أعظم هاشمي التركستاني
(رحمه الله)

أيام دامية في بخارى وسمرقند

(العهد السوفيتي ١٣٤٩هـ - ١٩٢١م)

سلسلة الإصدارات العلمية ٥٦

أيام دامية
في بخارى وسمرقند

عاشها شاب مسلم في عهد الحكومة السوفيتية

خلال سنة «١٣٤٩هـ – ١٩٣١م»

بقلم

أعظم هاشمي التركستاني (رحمه الله)

(١٣٣٣هـ - ١٣٩٣هـ)

ترجمه من اللغة الأوردية

أنس بن عبد الصمد شودهري

راجعه وصححه وعلّق عليه

كفاية اللّه هاشمي (حفيد المؤلف)

ح
مركز الإعلام والدراسات العربية الروسية، ١٤٤٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الركستاني، أعظم هاشمي
أيام دامية في بخارى وسمرقند/ أعظم هاشمي الركستاني؛ كفاية الله الهاشمي، ط١ . الرياض، ١٤٤٧هـ.
١٩٣ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم.
ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٤-٨٢٨٢-٥

رقم الإيداع: ١٤٤٦/٥٩٧٠، ردمك: ٩٧٨-٦٠٣-٠٤-٨٢٨٢-٥

الطبعة العربية الأولى
١٤٤٧هـ/ ٢٠٢٥م
حقوق النشر محفوظة

المقر الرئيسي: موسكو - روسيا الاتحادية- الفرع الرئيسي: مدينة الرياض: ص.ب: ٢٣٠١٨٥، الرمز البريدي: ١١٣٢١، المملكة العربية السعودية
Head Office: Moscow, Russia-Main Branch: P.O Box: 230185 Riyadh: 11321, Saudi Arabia
E mail: info.russianstudies@gmail.com www.ciars.ru

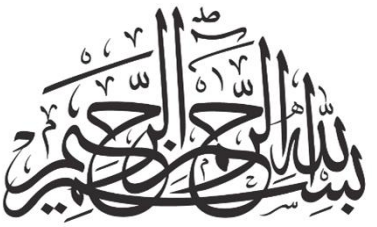
بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الموضـــــــوع	الصفحة
كلمة الناشر	٧
تقديم الكتاب	٩
حكاية الكتاب: (كما رواها الحفيد في رسالته إلى المركز)	١٣
الأستاذ أعظم هاشمي التركستاني - سيرة ذاتية	١٧
صورة الغلاف الخارجي للكتاب الأصل	٢٥
صورة الغلاف الداخلي للكتاب الأصل	٢٦
الصفحة الأولى من مقدمة الكتاب - الأصل	٢٧
الصفحة الثانية من مقدمة الكتاب - الأصل	٢٨
الصفحة الأخيرة من الكتاب الأصل	٢٩
إليكم الرواية، بلا مقدمة وبلا عناوين: سردية حياة	٣١
ملحق الصور والوثائق	١٦٣

كلمة الناشر:

بحمد الله وتوفيقه، تساق إلينا الأرزاق العلمية، بين الفينة والأخرى أتلقى اتصالاً هاتفياً، أو رسالة بريد إلكتروني، أو مبادرة مباشرة من فضلاء قد لا تربطني بهم سابق معرفة، فإذا أنا أمام عمل علمي عظيم، يقدم إليّ لنشره ضمن سلسلة الإصدارات العلمية، **بمركز الإعلام والدراسات العربية الروسية**.

هذه المنح الربانية مؤشرات "ولله الحمد والمنة" على النجاح والقبول، ولعلي هنا أشير إلى جملة كتب لم يكن لنا فيها فضل السعي للوصول إليها، ولكنها سيقت إلينا، منها: (وثائق نظير توريا كولوف مبعوث الاتحاد السوفيتي في الحجاز/١٩٢٨م- سجلات ووثائق توريا كولوف، التي لدى ابنته/ آنيل- مخطوطة/ رحلة الحجاج السوفييت/ ١٩٢٦م - رحلة المرجاني)، وغيرها.

هنا تتجدد سعادتنا في المركز، بإصدار هذا الكتاب:

أيام دامية في بخارى وسمرقند...

عاشها شاب مسلم في عهد الحكومة السوفيتية خلال سنة «١٣٤٩هـ –١٩٣١م»

لكاتبها/ أعظم هاشمي التركستاني (رحمه الله) (١٣٣٣هـ-١٣٩٣هـ)، نقلها إلي مشكوراً، الأستاذ/ كفاية الله الهاشمي "حفيد الكاتب" في رسالة بالبريد الإلكتروني، بتاريخ: (١٠ أكتوبر ٢٠٢٣م، ٢٥ ربيع أول ١٤٤٥هـ) راجياً ان أقوم على نشرها ضمن سلسلة إصدارات المركز، فتم له ذلك وهي بين أيدكم ضمن السلسلة، برقم/٥٦.

والله ولي التوفيق.

ماجد التركي - رئيس المركز

تقديم الكتاب

هذا الكتاب **«سمرقند وبخارا كى خونيں سرگذشت»** أي: «أيام دامية في بخارى وسمرقند» عبارة عن مذكرات لجدّي الأستاذ أعظم هاشمي التركستاني -رحمه الله-، كتبها قبل وفاته بأربع سنوات تقريبًا بعد إلحاح وإصرار شديدين من أحبائه وأصدقائه. كان أحد اللاجئين الأتراك الذين اضطرّوا للهجرة من بلاد تركستان في أثناء الغزو الاشتراكي، واستقروا لاحقًا في أماكن شتّى مثل الشرق الأوسط، وشبه القارة الهندية، وأفغانستان، وأوروبا. وعلى الرغم من أنه كتب عن رحلة هجرته مرارًا منذ أن خرج من بلاده في يوميّاته، وفي بعض مقالاته، ورسائله المتبادلة بينه وبين أحبائه ومقرّبيه وأصدقائه داخل باكستان وخارجها، فإنها لم تكن بهذه الصورة الشاملة. ولعلّه من أهم أعماله العلميّة التي قام بها؛ فقد أثّر هذا الكتاب تأثيرًا قويًّا في توعية المجتمع الباكستاني ضد الاشتراكيين ومخططاتهم في سبعينيّات وثمانينيّات القرن العشرين.

نُشرت مذكراته أولًا في مجلة شهرية «**أردو دايجَسْت**» الباكستانية (المجلة الأدبية الأردية) في خمس حلقات بين مدة ١٩٦٩م-١٩٧٠م، وتناقلتها المجلّات والصحف المحلية الأخرى، ثم طُبعت بوصفها كتابًا مستقلًّا، وتُرجم إلى سبع لغات حتى الآن.

هذا الكتاب ليس مجرد سرد للأحداث، بل هو نافذة على ما عاشه المسلمون في تركستان خلال الحكم الاشتراكي الشيوعي، حيث يروي المؤلف قصصًا شاهدة على الظلم والمعاناة. إنها قصة عن أرض سُمِّيت قديمًا بما وراء النهر، لكن صفحاتها أصبحت شاهدة على الألم الذي حلّ بها تحت مظلة الشيوعية. هذه الحكاية تحكي عن صراع الإنسان مع القهر والاستبداد، وتروي تفاصيل الجهد المستمر.

ها أنا الآن أتشرف بتقديم هذا الكتاب التاريخي مترجمًا بلغة الضاد. وقام أخي الأستاذ أنس شودهري بترجمة جزء كبير منه، وترجمتُ البقية، وصححتُ ونمقتُ ما احتاج إلى التصحيح والتنميق، وأضفتُ إليه ما يلزم من تعليقات وإيضاحات في الهامش، وجعلت كلامي بين القوسين المعكوفين [ ] عند أي إضافة في صلب الكتاب. كما حرصتُ على تشكيل أسماء الأماكن والأشخاص، وصوّبتُ الأخطاء الواردة في المطبوع (الكتاب الأصل) بمراجعة الأصل (مبيضة المؤلف)، فلله الحمد، وله الشكر. وإني لأرجو الله أن أكون قد وُفّقتُ فيما صنعتُ.

وإنني في هذا المقام لا يسعني إلا أن أتقدم بفائض الشكر وجزيل الامتنان إلى سعادة الدكتور ماجد بن عبد العزيز التركي، رئيس مركز الإعلام والدراسات العربية الروسية بالرياض على كريم تفضّله بإصدار هذا الكتاب من مركزه، وحسن عنايته، وتواصله معي على نَحوٍ مستمر، فجزاه الله خيرًا ووفّقه وسدَّده.

كما أتقدم بالشكر الوافر للمترجم المشارك الأستاذ أنس بن عبدالصمد شودهري الذي بادر بالتواصل معي، واقترح عليَّ بأن أشرف على هذا العمل. وقد كان حريصًا على التواصل الدائم معي، متشوقًا إلى إنجاز العمل. فشكر الله سعيه، وجعل عمله هذا في ميزان حسناته.

ويلزمني الوفاء أن أسجل شكري وتقديري لكل من أسدى إليَّ معروفًا، أو بذل معي جهدًا، وأسهم في إنجاز هذا العمل، وأخص بالذكر أخي الوفيّ عبدالله يوسف العتيبي، والدكتور سامي الجار الله (من المملكة العربية السعودية)، وسامي حسين (من ألمانيا) لاهتمامهم وتشجيعهم، فأسأل الله أن يكتب أجرهم، وأن يجزيهم خير الجزاء.

أقدّم هذا الكتاب إلى جميع المسلمين المعتزين بدينهم، المعظمين لرسولهم، راجيًا من الله -عزَّ وجل- القبول، وهو جلَّ وعلا من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حفيد المؤلف/ كفاية الله هاشمي

١٠/ محرم الحرام/ ١٤٤٧هـ

٠٧/ ٠٧/ ٢٠٢٥م

tarjumaneafkar@yahoo.com

حكاية الكتاب:
(كما رواها الحفيد في رسالته إلينا)

سعادة الأستاذ/ د. ماجد التركي **وفقه الله**

رئيس مركز الإعلام والدراسات العربية– الروسية

المملكة العربية السعودية

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

آمل أن تكون بخير، وأسأل الله لكم مزيدا من التوفيق والسداد، وبعد:

فأود إعلامكم بأنني كفاية الله هاشمي، باكستاني الجنسية من أصول تركستانية أوزبكية، قد ترجمت كتاب جدي الشيخ أعظم هاشمي التركستاني (ت: ١٣٩٣ هـ) رحمه الله من الأردية إلى العربية بالمشاركة.

والكتاب عنوانه: (أيام دامية في بخارى وسمرقند)، وهو عبارة عن مذكراته وقصة هجرته من بلاده تركستان إلى أفغانستان سنة ١٩٣١-١٩٣٢م إبان حكم ستالين في تركستان المسلمة.

وقد طبع هذا الكتاب أولاً في خمس حلقات في إحدى المجلات الباكستانية سنة ١٩٦٩م - ١٩٧٠م، ثم طبع مفردا أيضًا مرات عديدة. ولقد كان من أكثر الكتب انتشارا في ذاك الزمان، ومن أكثر الكتب تأثيرا في تكوين وعي المجتمع الباكستاني حول مفاهيم الاشتراكية ونظريتها، ويُعد وثيقة مهمة عن تاريخ مأساوي لمسلمي الاتحاد السوفيتي وخاصة لتركستان. ويومئ عنوان الكتاب بأنه حديث عن هاتين المدينتين، والأمر ليس

كذلك، وإنما وضع مؤلفه رحمه الله لشهرتهما، وقلّة معرفة الناس بمنطقة تركستان وتاريخها، وموقعها الجغرافي.

ونظرا لأهميته؛ فقد تُرجم الكتاب في أكثر من ست لغات، منها: التركية، والدَرية (الأفغانية)، والفارسية (الإيرانية)، والسندية، والأزبكية (وهي لغة المصنف)، والبنغالية.

ولقد اتصل بي الأخ "أنس بن عبد الصمد شودهري" بنغلاديشي الجنسية - الذي ترجم الكتاب أولاً-، ورغب أن أكون مشرفا على العمل، فوافقت على ذلك، فبدأنا العمل من جديد، وقد شاركت معه في الترجمة، وصححتها، وراجعتها كاملة، وقابلتُ النص مع المبيضة بخط المؤلف وصححت بعض الأخطاء التي وقعت في المطبوع، وعلقتُ على بعض المواضيع المهمة أيضًا.

وأود الآن أن يُنشر الكتاب بحلّة جديدة ولائقة بمكانة الكتاب لما له من أهمية بالغة في توعية المسلمين عن تاريخ تركستان المسلمة.

ولا أريد من ذلك ربحا ماديا أبدا، فإنما الهدف هو إعلام المسلمين اليوم عما جرى في تركستان وأهلها في تلك الحقبة، والله المستعان.

والكتاب يقع في نحو (١٠٠) صفحة على مقاس (A4)، وأرسلكم الآن نموذجا منه للاطلاع عليه، وإبداء الرأي فيه.

ولي استفسار آخر بخصوص أحد إصداراتكم بعنوان: (نظير توريا كولوف □ صانع تاريخ تركستان)، فلعلكم تفيدني في كيفية الحصول عليه، فإني أريد أن أطلع على أحواله. وقد مرّ علي ذكر هذا الرجل في مذكرات جدي (غير المنشورة) لما كان مقيماً في

الهند، ونظير توریاکولوف کان سفیراً لدى المملكة العربية السعودية آنذاك.

أشكركم مقدما على اهتمامكم وتعاونكم، وأنتظر ردّكم، وجزاكم الله خيرا.

المخلص:

كفاية الله الهاشمي

الأستاذ أعظم هاشمي التركستاني
رمز الكفاح والثبات

بلاد تُركِستان (بلاد الأتراك) هي اسم لتلك الأرض التي تمتدّ من بحر قزوين (أو بحر جرجان) في الغرب إلى جبال أَلْتاي في الشرق، ومن خراسان وصحراء قَرَه قُوم في الجنوب الغربي إلى جبال أُورال وسَيبيريا في الشمال والشمال الشرقي. وتقع وسط قارة آسيا، وتحدّها شمالًا سيبيريا ومنغوليا، وجنوبا أفغانستان وكشمير والتبت، وشرقًا الصين، وغربًا إيران وبحر قزوين. وتنقسم إلى قسمين: التركستان الشرقية (أو الصينية)، والتركستان الغربية (أو الروسية، والسوفيتية). ومن أهم مدنها: بخارى، وسمرقند، وتِرمِذ، والشاش، وأوش، وخُجَنْدَة، وخوقَند، وخِيوة، وكاشْغَر، وخُتَن.

وبلاد التركستان الغربية هي التي أطلق عليها المؤرخون العرب المسلمون اسم: «بلاد ما وراء النهر»، أي: ما وراء نهر جَيحون (آمو دَرْيا)، وهي الأراضي الممتدة بين نهري جَيْحون وسَيْحون (وكان بعضهم يطلقونه على بلاد تركستان كلها). بينما أطلق اسم «بلاد ما دون النهر» على ولاية خراسان.

ومن أقاليم تركستان الغربية المشهورة: إقليم «وادي فرغانة»، وكانت مدينة «أنديجان» عاصمته، وهي مدينة قديمة تاريخية مشهورة، تقع في الضفة اليسرى لنهر سَيحون الأعلى (سَيردَرْيا)، وهي الآن عاصمة المقاطعة التي باسمها في جمهورية أوزبكستان.

وفي إحدى قرى مدينة «أنديجان» العريقة ولِد مؤلف هذا الكتاب الأستاذ «أعظم خان»، الذي اشتُهر بـ «أعظم هاشمي التركستاني» عام ١٩١٥م، وهاجر منها في ربيع شبابه متخفيًا وهاربًا بدينه، مهاجرًا إلى ربه، متوجّهًا إلى أفغانستان عام ١٩٣١م، فأقام

مدة يسيرة هناك، ثم توجّه إلى شبه القارة الهندية عام ١٩٣٢م (وكانت تحت الاستعمار البريطاني آنذاك)، وأقام بمدينة دلهي، والتحق أولًا ببعض الجامعات الشرعية، وأكمل بها دراسته النظامية، وأتقن اللغة الأردية أيضًا في تلك المدة.

وكان في الهند البريطاني كثير من أبناء وطنه الذين هاجروا من بلادهم، فمنهم من كان يدرس ويدرِّس في بعض الجامعات الدينية، ومنهم من كان مشغولًا بأعمال التجارة، ومنهم من كان مقيمًا مؤقتًا عازمًا على قصد الحجاز أو بلدان أخرى. لم تكن هناك أي علاقة ترابط بينهم. ولقد شعر بذلك الأستاذ هاشمي وبعض زملائه، فاجتمعوا في مدينة دلهي، وكوّنوا جمعية أطلقوا عليها اسم «أنجمن مُظهر الإسلام» (جمعية مُظهر الإسلام) رغبةً في محاولة حلّ المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التي تواجه المهاجرين، إلا أن الجمعية كانت ذات النطاق المحدود، والتأثير المحدود. ففي عام ١٩٣٤م اجتمع كبار القوم، واتفقوا على وضع الخطة المتكاملة والأهداف المعينة المرجو بلوغها، وتمّ تأسيس جمعية جديدة باسم «بخارا وتركستان مهاجر لر برليگى مركزى» (الجمعية المركزية لمهاجري بخارى وتركستان) لإبراز قضية تركستان، وإخبار العالم بما يجري في بلادهم، وما يلاقيه المسلمون بأنواع من العذاب هناك. واتُّخذت مدينة دلهي مقرًّا لهذه الجمعية، وافتتحت فروعًا لها في مدن الهند الكبيرة.

قامت هذه الجمعية المركزية بالأعمال الخيرية والاجتماعية لرفع مستوى المهاجرين ثقافيًّا واجتماعيًّا، كما قامت بإنشاء مدرسة لتعليم الأطفال مجانًا، وفتح ملجأ للمهاجرين، واستضافة القادمين إلى الهند والقادمين منها إلى بلدان أخرى، وإنشاء مطبعة خاصة لنشر إصدارات الجمعية والكتب والنشرات المهمة، وبتدريب المهاجرين على مجموعة من المهن المختلفة. بينما تولى بعض أركانها كتابة المقالات في الجرائد والصحف

المحلية، وفي الصحف والمجلات التي كانت تصدرها جمعيات تركستانية خارج الهند مثلًا في فرنسا، وألمانيا، واليابان، وتركيا. كما تواصل أعضاؤها مع زعماء المسلمين الهنود وحرصوا على توعيتهم بقضايا المهاجرين، وبيان مناقضة الشيوعية للإسلام، وجرائم الشيوعيين في حق المسلمين.

أقام الأستاذ هاشمي في مدينة بومباي (مومباي الآن) في تلك المدة حيث عُيِّن مسؤولًا لفرع الجمعية هناك. ثم عاد إلى مدينة دلهي لما انتخب السكرتير العام للجمعية المركزية عام ١٩٣٨م، فبادر بإصدار مجلة علمية شهرية باسم «تَرجُمان»، مقسمة إلى ثلاثة أقسام (قسم باللغة الأردية، وقسم بالتركستانية، وقسم بالفارسية). وكانت هذه المجلة تهتم بإبراز قضية تركستان المسلمة، وأحوال المهاجرين التركستانيين بالهند. وقد أسهمت كثيرًا في توعية المجتمع الهندي، وقدّمت عملًا مهمًّا في مدة محدودة. استمرت هذه المجلة حتى عام ١٩٤٠م، ثم توقفت بسبب أحداث الحرب العالمية الثانية.

وطوال هذه المدة لم يتوقف الأستاذ هاشمي عن كتابة مقالات وأبحاث بالأردية وتراجم نصوص تركستانية في المجلات الهندية المحلية رغم الصعوبات الكثيرة. فلقد كتب عن تاريخ تركستان، وأوضاع المسلمين فيها، كما أنه كتب عن أسس النظام الاشتراكي وقام بنقدها نقدًا علميًّا، وشؤون المهاجرين التركستانيين في مختلف البلدان الإسلامية وأسباب هجرتهم من بلادهم، وأحوال بلاد تركستان بعد الغزو الاشتراكي السوفيتي.

وفي عام ١٩٤١م تشكلت جمعية جديدة لمهاجري التركستان باسم «تركستان ترك مهاجر لر بِرليگي» (جمعية المهاجرين التركستانيين)، وانتخب الأستاذ هاشمي أمينًا عامًّا لها مرة أخرى، فطاف بلاد الهند، والتقى بالمهاجرين الساكنين في مناطق مختلفة، واطلع

على أحوالهم، و حاول جمع شتاتهم، ولمّ شعثهم، وتوحيد قبائلهم وكلمتهم، وانضمامهم تحت لواء واحد حول قضية واحدة.

ثم انقسمت بلاد الهند وتحررت من الاستعمار البريطاني عام ١٩٤٧م، وانفصلت دولة باكستان عنها على أساس ديني، فوقعت اضطرابات محلية بين المسلمين والهندوس، وهو ما أدى إلى نشوب صراعات دموية و مذابح وتهجير بين الطرفين. وفي ذلك الوقت هاجر الأستاذ هاشمي مرة أخرى إلى دولة جديدة باكستان الإسلامية مع أسرته المكونة آنذاك من ٣ أفراد، واستقر في مدينة كراتشي الباكستانية. كان متزوجًا من سيدة فاضلة عام ١٩٤٤م بالهند، وأنجب منها ذكورًا وإناثًا.

استأنف جهوده السابقة في كراتشي بنشاط جديد وهمة قعساء، فاجتمع مع زعماء المهاجرين المقيمين هناك، وتشكّلت "تركستان ترك مهاجرلر بِرليگي" (جمعية المهاجرين التركستانيين) عام ١٩٤٨م بمدينة كراتشي لتنظيم صفوف المهاجرين مجددًا. تقلد الأستاذ هاشمي منصب الأمين العام للجمعية، وأعلى شأنها بهمّته وعزيمته الماضية. وكانت هذه الجمعية بمنزلة ضابط اتصال بجميع المهاجرين و حل قضاياهم، وقضاء حوائجهم حسب الإمكانات المتاحة لديها، و مدّ يد العون والمساعدة للأرامل والأيتام والمحتاجين منهم، وإيواء بعضهم في ملجأ الجمعية. ولشهرة الأستاذ هاشمي وحُسن إدارته انتخب رئيسًا لها في أواخر حياته.

وفي مطلع عام ١٩٥١م أسَّس مجلة علمية شهرية «تَرجُمان» بقسمي الأردية والتركستانية، لكنها توقفت عن الصدور في آخر العام. وفي عام ١٩٥٢م أصدر مجلة علمية أخرى باسم «ترجمانِ أفكار» (ترجمانُ الأفكار) باللغة التركستانية. ثم أصدر قِسمًا مستقلًّا باللغة الأردية للقراء الباكستانيين عام ١٩٥٤م. و كان جلّ اهتمام المجلة بالقضية

التركستانية، وشؤون المسلمين في الاتحاد السوفيتي، ونشر أخبار المهاجرين وأنشطتهم إلى جانب اهتمامها بشؤون اللاجئين في باكستان، والأبحاث السياسية العامة والاجتماعية، والثقافية، والدينية، والتاريخية. لقد أدّت المجلة دورًا فاعلًا في الأوساط الثقافية في مدة الخمسينيّات، ونجحت بسرعة نجاحًا باهرًا في تحقيق أهدافها، وتوسيع نطاق شهرتها بين التركستانيين. كان يكتب فيها كبار الكتّاب والمثقفين التركستانيين من السعودية، وتركيا، وألمانيا، ومصر آنذاك، ولاقت حال صدورها رواجًا وطنيًّا بين التركستانيين داخل باكستان وخارجها، ولاقت اهتمامًا في الأوساط الأجنبية التي أُرسلت إليها. استمرت هذه المجلة من عام ١٩٥٢م إلى عام ١٩٥٩م.

إضافة إلى ذلك، فقد أسس معها مكتبة «نشريات ترجمان أفكار» (دار ترجمان الأفكار للنشر) لطباعة الكتب الدينية، والعلمية، والتاريخية، والتربوية للجالية التركستانية في أنحاء العالم الإسلامي. وقد تولى ترجمة وطباعة كتب كثيرة باللغة التركستانية، منها:

١- طباعة بعض أجزاء وسور القرآن الكريم مع ترجمتها وتفسيرها باللغة التركستانية.

٢- طباعة رياض الصالحين للإمام النووي -رحمه الله- في أربع مجلدات (مترجمًا بالتركستانية).

٣- طباعة كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبدالوهاب التميمي (مترجمًا بالتركستانية).

٤- طباعة مختصر الشمائل المحمدية (على صاحبها أفضل الصلاة والسلام) للإمام الترمذي (مترجمًا بالتركستانية).

٥- طباعة متن الفقه الأكبر المنسوب للإمام أبي حنيفة -رحمه الله- (مترجمًا بالتركستانية).

٦- طباعة بعض الكتب الفقهية المترجمة باللغة التركستانية.

٧- طباعة بعض كتب الشعر والأدب التركستاني.

٨- طباعة بعض الكتب التربوية والمدرسية لتعليم اللغة التركستانية.

وفي عام ١٩٥٢م التحق الأستاذ هاشمي بالعمل في قسم اللغة الفارسية بإذاعة باكستان الوطنية بوصفه مقدّم البرامج، ومذيع الأخبار، وأسهم أيضًا في إنشاء القسم التركستاني بها، واستطاع من خلال عمله أن يوصل رسالته إلى قلوب المحيطين به وفق وصية أمه العزيزة. ويُذكر أنه كان ملتزمًا جدًّا ومنضبطًا في مواعيده. وظلّ يعمل في الإذاعة حتى وفاته.

كان الأستاذ هاشمي في نشاط مستمر لخدمة الإسلام والمسلمين. فقد كان خطيبًا للجمعة في مسجد قريب من بيته، وعمل مدرسًا، ومعلمًا، ومربيًا للكبار والصغار. كما عمل عضوًا في عدد من اللجان والجمعيات داخل باكستان وخارجها، وشارك في كثير من الندوات والمؤتمرات، كما استضاف في مقرّه الكثير من الوفود وزعماء الأتراك وأدبائهم، ومثقفيهم، وعلمائهم. إضافة إلى ذلك:

- فقد كان عضوًا للهيئة التنفيذية للجمعية العربية العامة في باكستان.
- عُقدت الدورة الرابعة لمؤتمر العالم الإسلامي بمدينة كراتشي في فبراير عام ١٩٥١م بدعوة من جمعية الإخاء الإسلامي الباكستانية، وحضره ممثلون عن ٤٥ دولة عربية وإسلامية. حضره الأستاذ هاشمي أيضًا مع زميله بوصفه الممثل لشعب تركستان الغربية من قِبل الجمعية التركستانية، وعُيِّن ممثلًا للمؤتمر في لجنته المختصة

بالقضية التركستانية.

- وعمل عضوًا في مجلس الشورى لمؤتمر العالم الإسلامي -فرع باكستان-.
- وعمل عضوًا في لجنة الوحدة القوميّة التركستانية بألمانيا.

كتب الأستاذ هاشمي مقالات كثيرة في أربع لغات (الفارسية، والعربية، والتركستانية، والأردية) داخل باكستان وخارجها، وترجم كثيرًا من الكتب والرسائل والأبحاث المهمة خلال أربعين عامًا في المهجر. وقد جرت محاولة اغتيال المؤلف بوساطة بعض الاشتراكيين المتطرفين في أثناء نشر هذا الكتاب، إلا أن الله سبحانه حماه وحفظه، وأُصيب ببعض الجروح، وتحسنت صحته بعد مدة.

لقد عاش الأستاذ أعظم هاشمي التركستاني حياةً حافلة بالنشاط الواسع في خدمة دينه ووطنه، مليئة بالجدّ، والعمل، والاجتهاد، والإنجازات. ولقي أجله المحتوم الذي قدَّره الله تعالى، وانتقل إلى رحمة الله في غرّة شهر رجب ١٣٩٣ هـ/٣٠ يوليو ١٩٧٣م بمدينة كراتشي- باكستان، ودُفن بها. رحمه الله وغفر له.

كتب عنه أصدقاؤه وزملاؤه بعد وفاته رثاء شعرًا ونثرًا، وأشادوا ببعض ما يستحق، وما خلف من مآثر حسنة، وصفات رفيعة. يقول قاسم أمين التركستاني: «كان شعلة من النشاط، وقاد الذهن، باشّ المحيَّا، وجميل المنظر والمخبر، عالمًا بعلوم الدين واللغة العربية».

فرحم الله الأستاذ هاشمي، وأسكنه فسيح جناته، وتقبَّل منه أعماله كلّها وجهوده بقبول حسن، وبارك في ذريته، إنه سميع مجيب.

حفيد المؤلف:

كفاية الله بن جارالله بن أعظم هاشمي التركستاني

(صورة الغلاف الخارجي للكتاب الأصل)

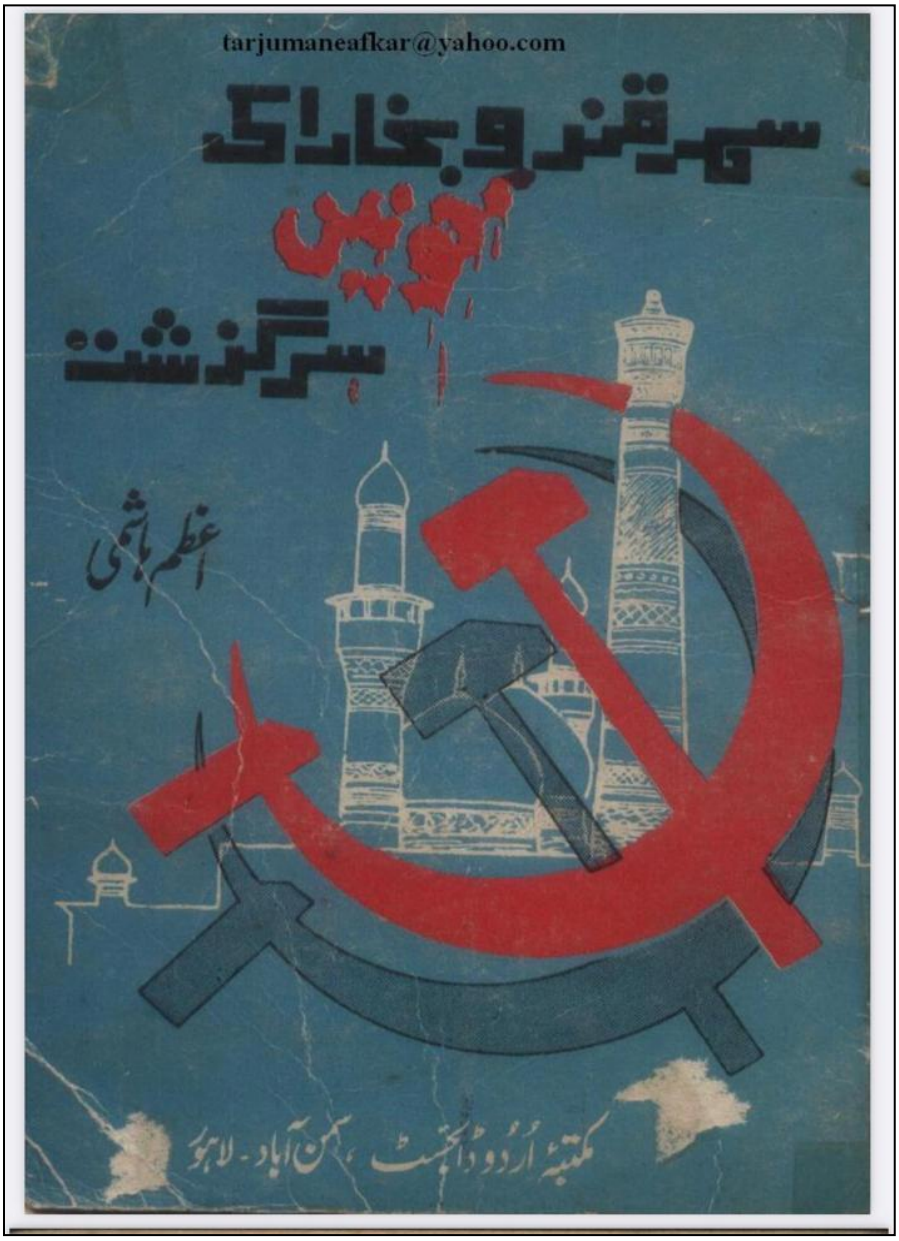

(صورة الغلاف الداخلي للكتاب الأصل)

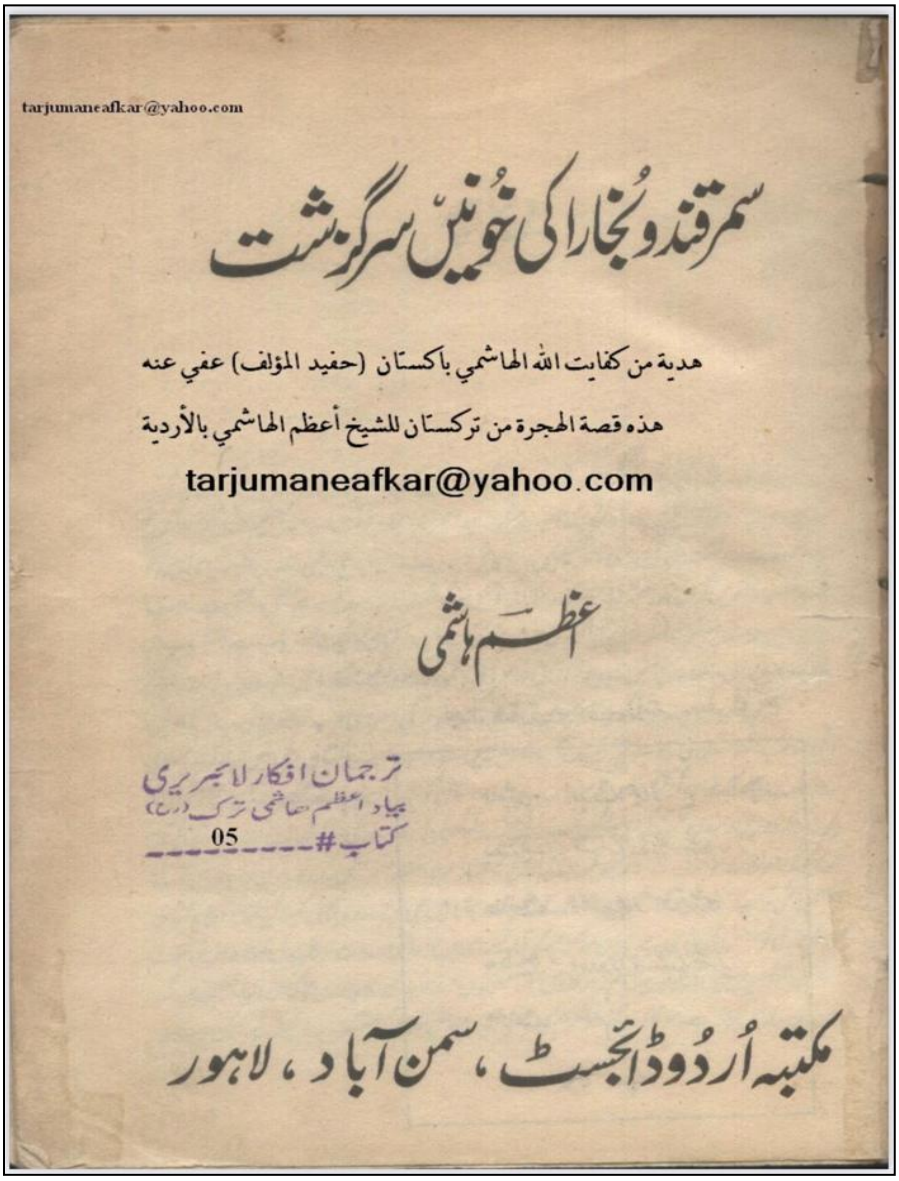

(الصفحة الأولى من مقدمة الكتاب الأصل)

دیباچہ

سمرقند و بخارا کی زیرِ نظر سرگذشت، دو شہروں کی سرگذشت نہیں ہے۔ "سمرقند و بخارا" سے مُراد ترکستان کی وہ سرزمین ہے جو اسلامی تاریخ میں ماوراء النہر کے نام سے مشہور ہے۔ "سمرقند و بخارا"، ملتِ اسلامیہ کی عظیم الشان تاریخ کا زرّیں باب ہے۔ اِس خاک سے اُمّت کی بڑی بڑی نامور شخصیتیں پیدا ہوئیں جنہوں نے اُس کی دینی، علمی، تہذیبی اور سیاسی تاریخ کو رنگ و آب دینے میں گراں قدر حصّہ لیا۔ "سمرقند و بخارا کی خونیں سرگذشت" اسی سرزمین سے تعلق رکھتی ہے۔ جب سوشلزم اِس علاقے پر مسلّط ہوا، تو اس پر کیا گزری؟ زیرِ نظر کتاب اسی داستان کا ایک مختصر باب ہے۔ مختصر باب اِس لیے کہ یہ صرف ان واقعات پر مشتمل ہے جو ترکستانی مہاجر اعظم ہاشمی نے خود دیکھے، سُنے یا جن سے وہ براہِ راست دوچار ہوئے۔

اعظم ہاشمی اُن ہزاروں ترک مہاجرین میں سے ایک ہیں جو ترکی، سعودی عرب اور مغربی یورپ میں آباد ہیں۔ ہاشمی صاحب افغانستان کی راہ سے برِّصغیر میں آئے اور پھر یہیں کے ہو رہے۔ جب پاکستان وجود میں آیا، تو اِس اسلامی ریاست میں چلے آئے، وہ گزشتہ ۳۶، ۳۷ سال سے اِس داستان کو سینے میں چھپائے بیٹھے تھے۔ اِن کے دوستوں نے بارہا کہا کہ وہ اپنی داستان قلمبند کر دیں، لیکن قلب و رُوح کے زخم کھول کر دکھانے کی وہ اپنے اندر ہمّت نہ پاتے۔ پاکستان میں سُرخ سامراج کے گماشتوں نے سوشلزم کا شور بلند کیا اور کچھ نام نہاد "مولانا" اور "مُفتی" اُن کے رکابدار بن کر میدان میں آئے، تو اعظم ہاشمی تڑپ اُٹھے۔ اُن کے زخم جیسے تازہ ہو گئے۔ سمرقند و بخارا میں بھی ٹھیک وہی کھیل کھیلا گیا تھا جو آج پاکستان میں کھیلنے کی کوشش کی جا رہی ہے۔ وہاں سوشلزم کے گماشتے اسی طرح معاشی مساوات اور غریبوں اور مزدوروں کی غمخواری کے نعرے لگا کر میدان میں آئے اور چند نام نہاد "مُلّاؤں" اور "مُفتیوں" نے اُن کے رکابداروں کا کردار ادا کیا۔ ترکستان کے مسلمان اُن کے اِس کردار سے دھوکا کھا گئے۔ سوشلزم کو وہ محض ایک معاشی نظام کی حیثیت سے دیکھنے لگے، لیکن جب یہ

(الصفحة الثانية من مقدمة الكتاب ـ الأصل)

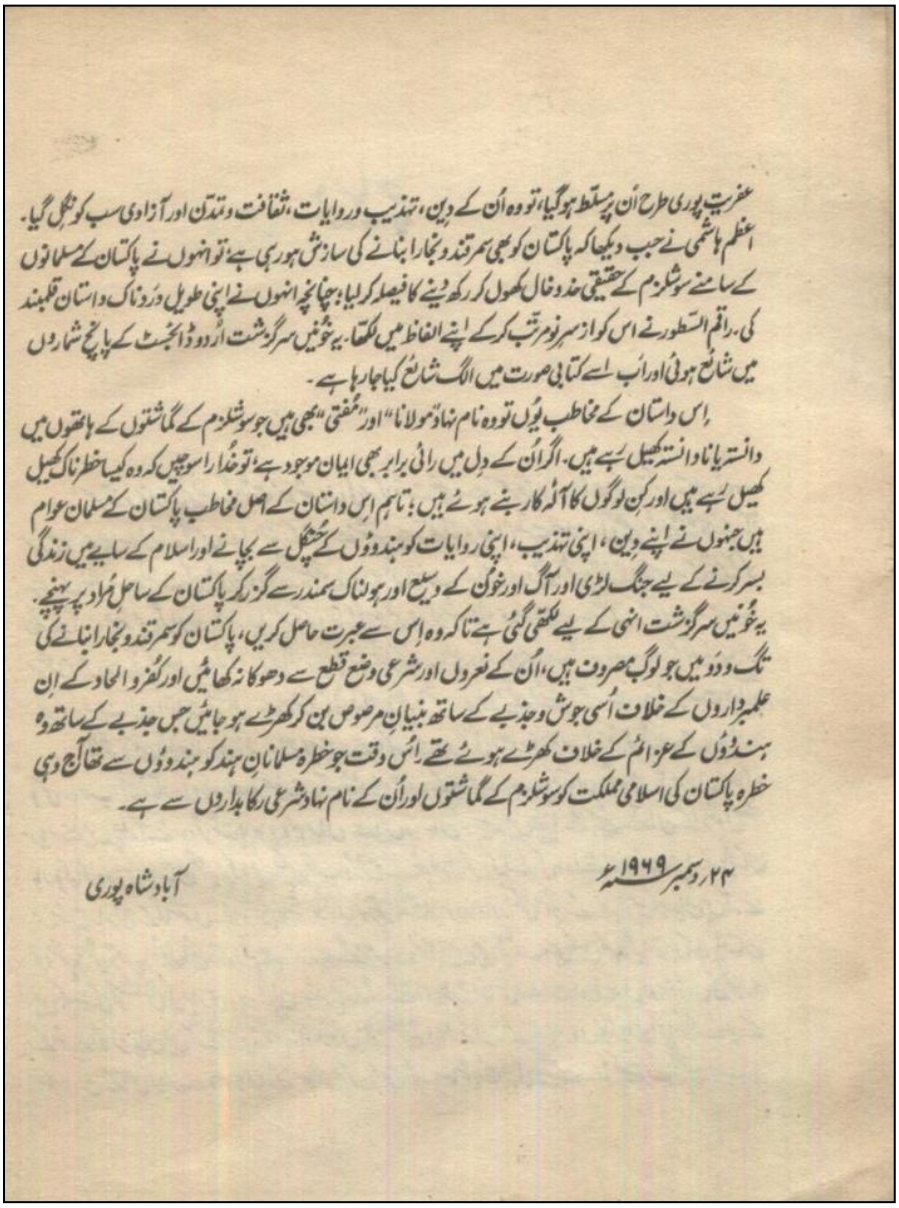

عفریت پوری طرح اُن پر مسلط ہوگیا، تو وہ اُن کے دین، تہذیب و روایات، ثقافت و تمدن اور آزادی سب کو نگل گیا۔
اعظم ہاشمی نے جب دیکھا کہ پاکستان کو بھی سمرقند و بخارا بنانے کی سازش ہو رہی ہے، تو انہوں نے پاکستان کے مسلمانوں کے سامنے سوشلزم کے حقیقی خدوخال کھول کر رکھ دینے کا فیصلہ کر لیا؛ چنانچہ انہوں نے اپنی طویل دردناک داستان قلمبند کی۔ راقم السطور نے اس کو از سرِ نو مرتب کر کے اپنے الفاظ میں لکھا۔ یہ خونیں سرگزشت اردو ڈائجسٹ کے پانچ شماروں میں شائع ہوئی اور اب اسے کتابی صورت میں الگ شائع کیا جا رہا ہے۔

اس داستان کے مخاطب یوں تو وہ نام نہاد "مولانا" اور "مفتی" بھی ہیں جو سوشلزم کے گماشتوں کے ہاتھوں میں دانستہ یا نادانستہ کھیل رہے ہیں۔ اگر اُن کے دل میں رائی برابر بھی ایمان موجود ہے، تو خدارا سوچیں کہ وہ کیسا خطرناک کھیل کھیل رہے ہیں اور کن لوگوں کا آلۂ کار بنے ہوئے ہیں؛ تاہم اس داستان کے اصل مخاطب پاکستان کے مسلمان عوام ہیں جنہوں نے اپنے دین، اپنی تہذیب، اپنی روایات کو ہندوؤں کے چنگل سے بچانے اور اسلام کے سایے میں زندگی بسر کرنے کے لیے جنگ لڑی اور آگ اور خون کے وسیع اور ہولناک سمندر سے گزر کر پاکستان کے ساحلِ مراد پر پہنچے۔
یہ خونیں سرگزشت انہی کے لیے لکھی گئی ہے تاکہ وہ اس سے عبرت حاصل کریں، پاکستان کو سمرقند و بخارا بنانے کی تگ و دو میں جو لوگ مصروف ہیں، اُن کے نعروں اور شرعی وضع قطع سے دھوکا نہ کھائیں اور کفر و الحاد کے ان علمبرداروں کے خلاف اُسی جوش و جذبے کے ساتھ بنیانِ مرصوص بن کر کھڑے ہو جائیں جس جذبے کے ساتھ وہ ہندوؤں کے عزائم کے خلاف کھڑے ہوئے تھے۔ اُس وقت جو خطرہ مسلمانانِ ہند کو ہندوؤں سے تھا آج وہی خطرہ پاکستان کی اسلامی مملکت کو سوشلزم کے گماشتوں اور اُن کے نام نہاد شرعی رکابداروں سے ہے۔

۲۴ دسمبر ۱۹۶۹ء

آباد شاہ پوری

(الصفحة الأخيرة من الكتاب الأصل)

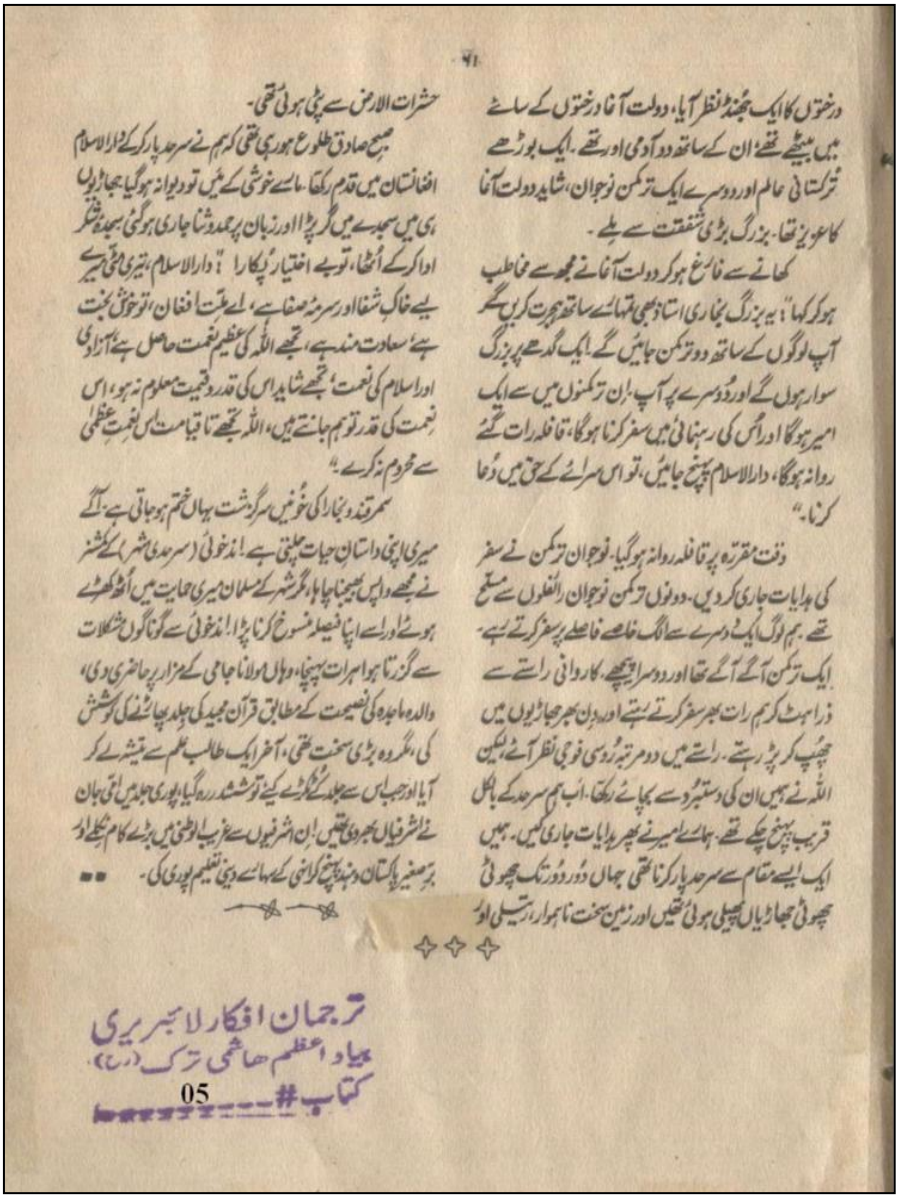

درختوں کا ایک جھنڈ نظر آیا، دولت آغا درختوں کے سائے میں بیٹھے تھے، ان کے ساتھ دو آدمی اور تھے۔ ایک بوڑھے ترکستانی عالم اور دوسرے ایک ترکمن نوجوان، شاید دولت آغا کا عزیز تھا۔ بزرگ بڑی شفقت سے ملے۔

کھانے سے فارغ ہو کر دولت آغا نے مجھ سے مخاطب ہو کر کہا: "یہ بزرگ بخاری استاذ بھی تمہارے ساتھ ہجرت کریں گے آپ لوگوں کے ساتھ دو ترکمن جائیں گے۔ ایک گدھے پر بزرگ سوار ہوں گے اور دوسرے پر آپ۔ ان ترکمنوں میں سے ایک امیر ہوگا اور اُس کی رہنمائی میں سفر کرنا ہوگا، قافلہ رات گئے روانہ ہوگا، دارالاسلام پہنچ جائیں، تو اس سرائے کے حق میں دُعا کرنا۔"

وقت مقررہ پر قافلہ روانہ ہوگیا۔ نوجوان ترکمن نے سفر کی ہدایات جاری کر دیں۔ دونوں ترکمن نوجوان رائفلوں سے مسلح تھے۔ ہم لوگ ایک دوسرے سے الگ خاصے فاصلے پر سفر کرتے رہے۔ ایک ترکمن آگے آگے تھا اور دوسرا پیچھے۔ کاروانی راستے سے ذرا ہٹ کر ہم رات بھر سفر کرتے رہتے اور دن بھر جھاڑیوں میں چھُپ کر پڑ رہتے۔ راستے میں دو مرتبہ رُوسی فوجی نظر آئے، لیکن اللہ نے ہمیں ان کی دستبرد سے بچائے رکھا۔ اب ہم سرحد کے بالکل قریب پہنچ چکے تھے۔ ہمارے امیر نے پھر ہدایات جاری کیں۔ ہمیں ایک ایسے مقام سے سرحد پار کرنا تھی جہاں دُور دُور تک چھوٹی چھوٹی جھاڑیاں پھیلی ہوئی تھیں اور زمین سخت ناہموار، ریتیلی اور حشرات الارض سے پٹی ہوئی تھی۔

صبحِ صادق طلوع ہو رہی تھی کہ ہم نے سرحد پار کر کے دارالاسلام افغانستان میں قدم رکھا۔ مارے خوشی کے مَیں تو دیوانہ ہوگیا۔ جھاڑیوں ہی میں سجدے میں گر پڑا اور زبان پر حمد و ثنا جاری ہوگئی۔ سجدۂ شکر ادا کر کے اُٹھا، تو بے اختیار پکارا: "دارالاسلام، تیری مٹی میرے لیے خاکِ شفا اور سرمۂ صفا ہے، اے ملتِ افغان، تو خوش بخت ہے، سعادت مند ہے، تجھے اللہ کی عظیم نعمت حاصل ہے، آزادی اور اسلام کی نعمت، تجھے شاید اس کی قدر و قیمت معلوم نہ ہو، اس نعمت کی قدر تو ہم جانتے ہیں، اللہ تجھے تا قیامت اس نعمتِ عظمیٰ سے محروم نہ کرے۔"

سمرقند و بخارا کی خُونیں سرگزشت یہاں ختم ہو جاتی ہے۔ آگے میری اپنی داستانِ حیات چلتی ہے۔ اندخوئی (سرحدی شہر) کے کمشنر نے مجھے واپس بھیجنا چاہا، مگر شہر کے مسلمان میری حمایت میں اُٹھ کھڑے ہوئے اور اسے اپنا فیصلہ منسوخ کرنا پڑا۔ اندخوئی سے گوناگوں مشکلات سے گزرتا ہوا ہرات پہنچا، وہاں مولانا جامی کے مزار پر حاضری دی، والدہ ماجدہ کی نصیحت کے مطابق قرآن مجید کی جلد پھاڑنے کی کوشش کی، مگر وہ بڑی سخت تھی، آخر ایک طالب علم سے تیشہ لے کر آیا اور جب اس سے جلد کے ٹکڑے کیے تو ششدر رہ گیا، پوری جلد میں امی جان نے اشرفیاں بھر دی تھیں۔ ان اشرفیوں سے غریب الوطنی میں بڑے کام نکلے اور برِ صغیر پاکستان و ہند پہنچ کر انہی کے سہارے دینی تعلیم پوری کی۔ ■■

ترجمان افکار لائبریری
بیاد اعظم ھاشمی ترک (رح)
کتاب #05

(إليكم الرواية، بلا مقدمة وبلا عناوين: سردية حياة[1])

(١)

إن نسيت لا أنسى تلك الليلة، مضى عليها ثمانية وثلاثون عامًا[2]، إلا أنني أتذكر تمامًا تفاصيلها، فلم ينقص مرّ الأيام والليالي من ذكرياتها شيئًا. وفي بعض الأحيان أشعر كأن أمي واقفة لدى الباب تودعني قائلة: بُني.. حفظك الله وسلّمك ... لا تنسَ ما نصحتك به، وإلا لن أرضى عنك!

هذه ذكرى عام ١٩٣١م، وكان اليوم من أواخر أيام فبراير أو أوائل شهر مارس. كنت نائمًا على سريري في غرفتي حتى جاءت أمي وأيقظتني في هدوء؛ فاستيقظت وجلست على السرير وقد أدركتُ القضية كلّها!

قالت أمي: «بُني، قم وتوضأ».

ثم بدأت تملأ الكوز بالماء، فتوضأت، وتوضأت أمي أيضًا، ثم قمنا إلى الصلاة وأدينا ركعتين. لقد حانت تلك اللحظة التي كنا نتشاور أنا وأمي فيها منذ أيّام.

قرأت أمي أورادها، ورقّيت نفسي بالرقية الشرعية ونفختُ على جسدي، ثم هي ذهبت إلى المطبخ. بعد خمس عشرة دقيقة أو عشرين دخلتْ تحمل السفرة وفي يدها الأخرى الكباب المشوي، فأطعمتني بيدها واحدة حتى فرغتُ من تناول طعامي، ثم قالت لي: «قطعة قلبي.. قم وانظر للمرة الأخيرة إلى إخوتك وأخواتك الصغار الأبرياء وهم أحياء».

---

(١) وضعت هذه العبارة في مطلع الرواية لإيضاح طبيعتها للقارئ الكريم ـ ماجد التركي.

(٢) كُتبت هذه المذكرات في سنة ١٩٦٩م باللغة الأردية.

فاقتربتُ من أسرّتهم مقبلاً عليهم، هؤلاء صغار السن المعصومون نائمون، بعيدون عن العالم وأحداثه، ودماء العصمة والعفّة تسير في وجوههم، فوضعتُ يدي على نواصيهم، ودعوتُ الله لهم بالخير والسلامة.

كان ذلك الموقف موقف صبر شديد، والحنان يدفعني نحوهم، وتهزّني الشفقة بشدّة. راودتني فكرة ألا أتمكن من رؤيتهم مرّة أخرى فسالت عيناي بالدموع، وحاولتُ منعها فلم أقدر.

كانت أمي في الخامسة والستين من عمرها، إلا أنها كانت أشدّ عزيمة وإرادة من الشباب. نظرت إليّ أمي بطرف عينيها برهة من الزمن، ثم قالت: «تعال يا ولدي». وكان في صوتها اضطراب، كأنها تحاول إسكان عواطفها ومشاعرها. ثم أخذت بيدها فراشًا صغيرًا، وبدأت تمشي فاتبعتُها حتى وصلنا إلى فناء البيت، ثم توجهنا نحو الحديقة، وفتحنا بابها ودخلنا. كنّا واقفين تحت السماء الزرقاء والأشجار الخضراء المتنوعة، فقبّلتني على جبهتي، وقالت: «إنك القائم على أموري في آخر عمري الضعيف، وإنك موضع آمالي وأمنياتي، لكن كما ترى لا تستطيع القيام بخدمتي وأنت مقيمٌ في هذه البلاد العزيزة، وأنت على إسلامك وإيمانك!

الآن آذن لك أن تهاجر إلى بلاد حرّة من أجل الحفاظ على دينك وعقيدتك، لكن بشرط! وهو أن تنشر أخبارًا قدر ما أمكن عن مسلمي تركستان وضعف حالهم ومصائبهم وشدائدهم، وما يحدث هنا من إهانة دينهم وتحقير عقائدهم، وأن تبلغها بقدر الإمكان إلى المسلمين جميعهم في العالم، وإلى الأمم والشعوب الحرّة الأخرى. اسمع يا بني... ما أرضعتك يومًا قطّ إلا وتوضأت قبله. فإن نسيتَ وغفلتَ عما طلبته منك ونصحتك فلن أرضى عنك أبدًا، وإنّ من كرامة الإنسان وشرفه أن يحافظ على قوله

وإرادته، وألا يغفل عن قراراته».

ثم أعطتني ذلك الفراش الصغير، ووزنه لا يزيد على ثلاثة كيلو غرامات، وبدأت تقول: «حافظ عليه، واعتنِ بما فيه من المصحف الشريف بوجهٍ خاص، ثم إن وصلتَ إلى غايتك؛ انزع جلده واجعل له جلدًا قشيبًا جديدًا، واخلع جلده القديم بيدك، ثم احرقه وفرّق. وتنبّه يا ولدي، لا يلهينّك شيء عن وطنك الذي ولدتَ فيه، ولا تغفل عنه أبدًا، ولا تنسَ فضل المشفقين عليك ولا رحمتهم وكرمهم، واعلم أن الذين هم أعداء ربك واحتلّوا بلادك، ليسوا أصدقاءك ولا ناصحين لك. الإنسان الضعيف الجبان لا يصل إلى غايته، وأمّا الموت فآتٍ، اليوم أو غدًا، والإيمان أغلى وأثمن ما يملكه المرء. والرجال لا ينزلون عن إرادتهم وعزيمتهم، والرجل القوي لا ينزل عن قراراته وإرادته، فالذي يتساهل ويتسامح في هذه الأمور تافه لا شأن له».

كانت أمي تنصحني لمدّة طويلة، وكانت الساعة الثالثة أو الثالثة والربع تقريبًا، وكنّا أحيانًا نسمع صوت الدّيك، وكانت أضواء القمر تضعف، وظلال الأشجار تتمدد طولًا. خرجنا من الحديقة، ومررنا على حائط الدار ووقفنا عنده، فرفعت أمي يديها تدعو الله، ثم مسحت على رأسي بيديها الطّاهرتين الزكيتين شفقة وحنانًا، وقالت وهي تحرّك بيدها كتفي: "امض يا ولدي، الله معك وهو ناصرك!".

نظرتُ النظرة الأخيرة إلى حديقتنا وبيتنا، تلك الحديقة كم غرست بيدي من صغار الأشجار، وسقيتُها دمًا وعرقًا...ذلك البيت ولدتُ فيه، ونشأتُ وترعرعتُ في رحابه، ذلك هو البيت الذي يحمل ذكريات آبائي وأجدادي منذ قرونٍ طويلة، وما من لبنة وحجر في هذا البيت، إلا وله علاقة بالتاريخ الماضي وأحداثه وقصصه، وله صلة عميقة بأيّام طفولتي وصباي.

استنشقتُ الهواء البارد وسلّمت على أمي وتسلّقت الحائط ونزلت على الأرض من الجهة الأخرى. كان بين حديقتنا وبين الشارع مقبرة، وكانت بيئتها مخيفة ومفزعة، فلما رأيت القبور الخربة المنكسرة، ورأيت التلول بعضها مرتفع والآخر منخفض، ملك قلبي الخوف والهلع، ورغم ذلك الخوف الشديد فقد دخلت المقبرة، وكان في يدي تلك الهديّة التي أعطتني إياها أمي، ومشيتُ قليلاً حتى فوجئت بصوت مفزع. فولّيت مدبرًا ورجعت إلى حديقتنا، فوجدتُ أمي مغمى عليها عند الحائط.

أسرعتُ بنضح الماء على وجهها، ففتحت عينيها، ولما رأتني لديها قالت متعجبة: "لمَ رجعت؟ لا تدنّس غايتك النبيلة، إن الله يحفظنا ويحمينا، الله هو القادر القوي، والإيمان به يعدّ من أغلى الأشياء لدى كل ذي عالم به". خرجتُ مرّة أخرى من الحديقة، وتوجهتُ نحو منزل وغاية مجهولة.

❁❁❁

لماذا تركتُ بيتي وخرجت من دراي في ظلمة الليل الحالكة خفية كما يخرج السارق؟ أين تجولتُ وبأي بلاد طفت؟ وما المصائب والبلايا التي حلّت بي؟ قبل الإجابة عن هذه الأسئلة، علي أن أعود إلى الماضي قليلًا.

في «وادي فرغانة» (الذي يتبع اليوم لجمهورية «أوزبكستان»[1]) تقع محافظة تُسمّى: «أَنْديجان»، و«**قايقي**» قرية صغيرة تابعة لها. ولدتُ فيها عام ١٩١٥م. والدي هو «خوجة

(١) قسّمت حكومة الاتحاد السوفيتي الأراضي الإسلامية ببلاد تركستان إلى خمس جمهوريات هي: أوزبكستان، وقازاقستان، وقرغيزيا، وتركمانستان، وطاجيكستان، وجميعها كانت محكومة بالمستعمر الروسي المتمثل في سكرتير الحزب الشيوعي في كل منطقة من هذه المناطق. وصارت جميع هذه الجمهوريات دولًا مستقلة. يُنظر للمزيد: المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ للدكتور محمد علي البار (١/٧٠-٧١).

خان دامْلا» (وكلمة دامْلا تعني في اللغة التركستانية: فضيلة الشيخ أو العلّامة). وكان اسم جدّي «الشيخ عزّت الله»، وجدّي لأمي هو الشيخ «غياث الدين إيشان النَمَنْكاني». وكانوا يُعدّون من طلائع علماء عصرهم، فأما جدّي لأمي فكان يُلقّب بـ«أستاذ العالم»، وكان تلاميذه قد انتشروا في أنحاء البلاد. وكان في سلسلة نسب والدي رجال علم ومعرفة، وكان فيهم متصوّفة على الطريقة النقشبندية منذ أربعة أجيال.

وأما سلسلة نسبي من جهة الأم فتتصل بسيّدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما سبط رسول الله ﷺ، فأجدادي من جهة والدتي كانوا قد قدموا بلاد تركستان مع القائد الإسلامي «قُتيبة بن مسلم الباهلي»[1] تبليغًا للدين ونشرًا للإسلام وتعاليمه، ثم استوطنوا هذه البلاد.

ومنذ ذلك الزمان ولد في هذه الأسرة عدد كبير من العلماء والمشايخ الأفاضل. وكانت قبورهم باقية إلى الأيام التي هاجرت فيها. ولما أغارت الإمبراطورية الروسية «تَسار»[2] على تركستان وهاجمتْ عليها[3]، كان جدّي لأمي الشيخ «غَياثُ الدِّين إيشان»، وخال أمي «باطُور تُورَه النَمَنْكَاني» في الصف الأول ممن دافع عن البلاد وقاتل

(١) **قُتيبة بن مسلم الباهلي** (٤٩-٩٦هـ): أحد الأبطال والشجعان، ومن ذوي الحزم والدهاء. ولي بلاد خراسان في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك الأموي، وفتح بلاد ما وراء النهر، وفرغانة. يُنظر: سير أعلام النبلاء للذهبي (٤/٤١٠).

(٢) تسار (Tsar) لقب لملوك روسيا، ومعناه «القيصر» بلغتهم.

(٣) استولت قوات الإمبراطورية الروسية على وادي فرغانة سنة ١٨٧٦م، واكتمل استيلاء روسيا على بلاد تركستان بوصول قوّاتها إلى هضبة بامِير سنة ١٩٠٠م (١٣١٨ هـ)، ومنذ ذلك الحين وُضعت بلاد تركستان تحت إدارة عسكرية روسية بينما احتُفظت إمارة بخارى وخانية خيوة باستقلال ذاتي تحت الحماية الروسية. ينظر للمزيد: التركستان: مساهمات وكفاح للدكتور محمد علي البار (ص ١٥٥).

الأعداء. ومن أجل هذه "الجريمة" كان جدي لأمي الشيخ غياث الدين تحت الإقامة الجبرية، وعلى هذه الحالة انتقل إلى رحمة الله تعالى.

كان لي ثلاثة أخوال: «عبد الحميد خان توره»، و«محيي الدين خان توره»، و«عبد الرشيد خان توره». كانوا من الأتقياء، وأصحاب ورع وزهد، وكانوا مرجعًا لخواص الناس وعوامهم. ومن الجدير بالذكر أن كلمة «خان» تُطلق في بلاد تركستان إمّا على الأشراف أو على الملوك والسلاطين.

كانت أسرتنا كبيرة، وهي تتكون من أحد عشر أخًا وأختًا، وكنتُ أصغر من إخوتي الخمسة وأختين، وأسرتنا أسرة علميّة، حتى إن نساءنا كنّ يجدن اللغة العربيّة والفارسيّة، وكانت أمي وأخواتها الأربع يعددن من العالمات البارعات في وقتهن. وكان معاشنا قائمًا على الزراعة والتجارة، وكنّا نملك حوالي١٢٥ فدّانًا[1] من الأراضي الزراعية، نصفها كانت بعليّة والنصف الآخر مرويّة، بالإضافة إلى المساحة المختصّة لزراعة المحاصيل، فقد كانت فيها بساتين وغابات. وكنّا في رغد من العيش ونقضي أيامنا في هناء وسرور.

لا يمكن لأحد أن يغالط في فهم النظام الزراعي في بلاد تركستان، ففي الأغلب يكون المزارعون هم أصحاب الأراضي الزراعية على النقيض كما هي الحال في روسيا، حيث يعمل المزارعون الفقراء في الأراضي المملوكة للأغنياء وأصحاب الأموال. نعم كان هناك نظام المزارعين المستأجرين إلا أن أنهم لم يكونوا يُحرمون من حقوقهم، بل كانوا يحصلون على أجورهم كاملة. وأما الذين لا يمتلكون الأراضي الزراعية فنسبتهم قليلة جدًا. فلم يكن في ديارنا إقطاعيون كبار كما في بلاد الهند وباكستان.

(١) وهي تساوي أكثر من ٥٠٠٠٠٠ متر مربع.

كانت أيام طفولتي في مدة الثورة[1]، وقد استشهد خلالها أكثر رجال أسرتنا. وكانت أمي تجيد اللغة العربية والفارسية، فتلقّيت تعليمي الأولي تحت إشرافها، وتلقّيت التعليم الابتدائي في منطقتنا. وأما الدراسة الثانوية فقد تلقّيتها في مدينة "تَمَنْگان"، و"خُوقَنْد"، و"سَمَرقَنْد"، و"شَهْرِسَبْز" حيث تحصّلت عليها خفية، وذلك لأنه لما استولى الاشتراكيون على تركستان أصدروا قرارًا بمنع تلقي الدروس الدينية وتدريسها. وأما تبليغ رسالة الإسلام وتعاليم الدين فكانت من أشنع الجرائم لديهم، فإقبالك على تعلّم العلوم الشرعية وتحصيلها كان يعني في ذلك الوقت جلب المصائب والشدائد على نفسك، وجرها إليك تطوعًا.

لم يكن في ديارنا قبل الثورة الروسية نظام قوي لدراسة العلوم الحديثة والعصرية بالفعل. إنما كان ما كان بالاسم فقط. وأسباب ذلك يطول بيانه.

فالأمر الأول: أن وسائل التعليم والتدريس كانت باللغة الروسية، وهذه مشكلة.

وثانيًا: معظم هذه المعاهد والمؤسسات التعليمية الحديثة يقوم عليها القساوسة الكاثوليك[2]، وكان هؤلاء من أشدّ الناس تعصبًا، وكانوا ضيّقي النظر. والمعلمون في هذه المعاهد كان أغلبهم من النصارى، وكان اهتمامهم ينصبّ في تنصير أبناء المسلمين أكثر من اهتمامهم بتدريسهم!

أما المتخرجون من هذه المعاهد فهم إلى جانب كونهم غير ملتزمين بأحكام الإسلام، ونافرين من الشريعة الإسلامية، كانوا يدافعون عن الإمبراطورية الروسية؛ لذلك قاطع

(١) أي ثورة ١٩١٧م في الإمبراطورية الروسية.

(٢) هكذا ذكر المؤلف، ويُرجّح أن المقصود بالنصارى هم الأرثوذكس، لكون هذا المذهب هو السائد في روسيا.

عامة المسلمين هذه المعاهد والمؤسسات والمدارس، كما أنه لم يكن في قلوبهم أدنى احترام وتقدير لهؤلاء الخريجين من تلك المعاهد.

وأما التعليم الديني فكانت هناك آلاف المدارس والمعاهد الدينية المنتشرة في بلاد تركستان، وكان التعلّم فيها بلغة التُرك، لا تجد مدينة أو قرية إلا وفيها مدرسة شرعية أو حلقة تعليم ديني. وقد أوقف أصحاب الفضل والكرم الأراضي الكثيرة التي تكفي تلك المدارس مؤونة. كانت دراسة العلوم الشرعية مجّانية للطلاب، ولم يكن من المعتاد في مجتمعنا تقديم المصروف الشخصي (المكافأة) أو توفير الكتب الدراسية لهم، فكان الطلبة هم الذين يتحملون نفقة التعليم لمدة اثني عشر (١٢) عامًا أو ستة عشر (١٦) عامًا خلال دراستهم. كان بعضهم يشتغلون بالتجارة بعد التخرّج، بينما يشغل البعض الآخر مناصب الإفتاء والقضاء في المناطق ذات الأغلبية المسلمة التي كانت تحت سيطرة الروس حيث يفتون عامة الناس في أمورهم الدينية، ويقضون في مسائل أحوالهم الشخصية.

كانت هذه المدارس وحلقات الدروس تعيش في عالم آخر بعيدًا عن عالم السياسة، فكأنها شجرة ممنوعة في رحابها، وترك العلماء والقادة الدينية هذا المجال المهم للتيارات اللادينية العلمانية. فالمجتمع التركستاني كان في غفلة شديدة عن العالم الإسلامي وما يحصل فيه، بل كان في انقطاع تام.

كان مجتمعنا مترفًا، يعيش في الرفاهية ورغدٍ من العيش، غارقًا في سُباتٍ عميق، فكأنّ كلّ واحد منا شاعر، وكلّ فرد من المجتمع يحلم بالمعالي والأمنيات الرفيعة، وكانوا يقضون من العام ستة أشهر في الترحال والتنزه والصيد وصرف الأموال وتفريقها بين الناس رياء وسمعة، إذ كان ذلك من مفاخرنا وميزاتنا.

وأما العلماء فكان أغلبهم أصيب بضيق النظر والجمود، وكان أكبر اهتمامهم في

المسائل الفرعية. أما "التصوف" فكان ذلك الزمان هو زمانه! فمشايخ الصوفية[1] كانوا في زواياهم بعيدين عن أحوال المجتمع ومشكلاته وتحدّياته، وكان نقاشهم وحوارهم يدور في الأغلب في «المراقبة»، و «علم مكاشفة القبور»، و«الخلوة والرياضة»، و«وحدة الوجود» ونحوها. فكما كانوا يشغلون أنفسهم بها، كانوا يلقنونها مريديهم وسالكيهم، فإذا انتقدهم أحد على هذه التصرفات وعلى جمودهم كان جوابهم: "أي عدو يريد أن يهجم أو يغير علينا؟ وإذا حصل ذلك يوما ما، فلنخرجنّ إلى المعركة لقتالهم، بل إن الغرض من وراء هذه التربية والممارسة التي تكون في الزوايا هو الاستعداد والتأهب للجهاد في سبيل الله".

هذه الأوضاع الاجتماعية التي كان مسلمو تركستان يعيشون فيها، ويقضون أيامهم ولياليهم بها حتى قامت الثورة الروسية عام ١٩١٧م ضد الإمبراطورية الروسية وأسقطتها. فأقام الديمقراطيون الوطنيّون في روسيا حكومة مؤقتة تحت قيادة «ألكسندر كيرنيسكي»[2]. وفي الجانب الآخر أعلنت بلاد تركستان استقلالها عن روسيا، وأقرّت مدينة خُوقَنْد عاصمة للدولة الجديدة[3]، فاعترفت بهذه الدولة الجديدة حكومة كيرنيسكي الروسية إلا أن هذه الدولة لم يكن لديها جيش نظامي، إلا كتيبة شرطة كانت تسمى

---

(١) يقال لشيخ الطريقة: المُرشد أو المعلم، ولمتّبعه وتلميذه: المريد أو السالك، وسيتكرر ذكر هذين المصطلحين في الكتاب.

(٢) **ألكسندر كيرنيسكي** (١٨٨١م-١٩٧٠م): زعيم روسي، تولى منصب رئاسة الوزراء لفترة وجيزة بعد ثورة فبراير ١٩١٧م ضد الإمبراطورية الروسية.

(٣) **دولة تركستان:** أعلن القادة التركستانيون قيام دولتهم المستقلة في نوفمبر ١٩١٧م، ولكن سرعان ما سقطت في فبراير ١٩١٨م لأسباب سيذكرها المؤلف. ويُنظر للمزيد: المسلمون في الاتحاد السوفيتي للدكتور محمد علي البار (٣٢١/١-٣٢٢).

الميليشيا أي: الحرس الوطني.

ورغم ذلك كلّه فلم يقصر القادة والزعماء في الحفاظ على حريتها وتنميتها وتقويتها، ولم يألُ العلماء والمشايخ وسعًا وجهدًا في إعانة الحكومة الجديدة، ودعم قادتها وزعمائها، وقد أنشئت اللجنة الدستورية، وبدأت اللجنة في إنشاء دستور الدولة بسرعة فائقة.

لكن في أثناء هذه المدة أسقط الشيوعيون البلاشفة نظام كيرنيسكي بقيادة «فلاديمير لينين»[1] واستولوا على روسيا كلّها. وفي فبراير من عام ١٩١٨م هاجمت الحكومة الشيوعية على بلاد تركستان وأغارت عليها، وسلبت حريتها واستقلالها. وفي ديسمبر من عام ١٩٢١م استولى الشيوعيون كاملًا على إمارة بُخارى[2]، وجمهورية خِيوة[3].

ولما استولت الشيوعية على تركستان قامت بمصادرة الأراضي الزراعية والبساتين والمتاجر والحوانيت والمصانع، وأسقطت حقوق الجنسية عن كل شخص له أدنى صلة بالدين الإسلامي، ولم تفرق في ذلك بين عالم وتاجر، وبين فلّاح وأجير فقير، وأصدرت الشيوعية قرارًا يمنع الصلاة والصوم وعدتهما جريمة، ومنعت الحجاج من السفر إلى بيت الله الحرام وأغلقت المساجد.

---

(١) **فلاديمير لينين** (١٨٧٠م-١٩٢٤م): زعيم الثورة الشيوعية، ورئيس الاتحاد السوفيتي الأول.

(٢) **إمارة بخارى:** إمارة إسلامية في بلاد ما وراء النهر في آسيا الوسطى، أسست عام ١٧٨٥م، وانتهت بالفعل عام ١٩٢٠م، وكان آخر أمرائها الأمير محمد عالم خان. وكانت عاصمتها مدينة بخارى.

(٣) **خانية خِيوة:** كانت خِيوة إمارة إسلامية في بلاد خوارزم في آسيا الوسطى، وامتدّ حكمها إلى أربعة قرون (١٥١١م- ١٩٢٠م)، وكان آخر أمرائها «سعيد عبد الله خان»، وعاصمتها كانت مدينة خيوة. أما الجمهورية فقد أسست بعد الثورة بوساطة الشيوعيين لمدة يسيرة، ثم انضمت في الاتحاد السوفيتي.

وقد اتخذت لإغلاق المساجد حيلة مكر ودهاء؛ ففي البداية سُلبت من المساجد والمدارس أوقافها من الأراضي والعقارات وغيرها، فواجهت ضيقًا وعسرًا شديدًا في تحمّل مصاريفها ومؤونتها. ثم فرضت الحكومة على المساجد الضرائب، فإذا جمع المسلمون أموال الضرائب ودفعوها إلى الحكومة فرضت عليهم "ضريبة الكنز"، وأعلنت بأن الذين يدفعون ضرائب المساجد يملكون الكنوز التي أخفوها في بيوتهم عن الحكومة، وإن الحكومة ستقوم بإخراج هذه الخزائن! وهكذا فمن يجرؤ بعد ذلك على دفع ضرائب المساجد!

فإذا مضى موعد دفع ضرائب المساجد ولم تُدفع من أحد، ومرّ عليها أسبوع كامل، فرضت الحكومة غرامة على المسجد التي تتزايد وتتراكم قيمتها بمرور الوقت. أما الذين كانوا يأتون إلى المساجد لأداء الصلاة، ففُرضت عليهم "ضريبة المصلّين"، فانتهى الأمر إلى أن ترك الناس أداء الصلوات في المساجد، وبدؤوا يصلّون في بيوتهم، فخلت المساجد من المصلّين وصارت خرابًا.

ثم إذا صار المسجد خرابًا خاويًا، فيجتمع فيه رهط من الشيوعيين ويتخذون قرارًا بأن هذا المسجد خاو وشاغر لا يأتيه أحد لأداء الصلاة، وعليه يرفعون إلى الحكومة الشيوعية أن تستخدمه في رفاهية عامة ومصالح اجتماعية. ثم تصدر الجريدة الرسمية في اليوم التالي ذلك القرار ويستولي على المسجد الشيوعيون، فإما أن يهدموه أو يجعلوه إسطبلًا للخيول والبهائم، أو ملهى ليليًا ومرقصًا، أو نحو ذلك.

وقد فتح المكتب الشيوعي في أنحاء البلاد كلّها، فكان من مهماته الاستهزاء بالدين والسخرية من تعاليم الإسلام وتقاليده، والتخطيط لاستئصال جذور الدين والشريعة من المجتمع. وإذا أراد الإنسان أن يكسب معاشه كان عليه أن يحصل على الرخصة الرسمية،

ومن دون هذه الرخصة لم يكن له أن يعمل مطلقًا، لا في الزراعة ولا في التجارة ولا في المصانع، حتى إنه لم يكن له أن يعمل أجيرًا لغيره دون هذه الرخصة!

وأما الذي يلتزم الشريعة الإسلامية أو له علاقة بالدين، فإن حصوله على هذه الرخصة الرسمية من المستحيلات، وإنما السبيل الوحيد إليها التبرؤ من الدين. وفي جانب آخر، إن السبل كلّها كانت مهيأة لأهل الشرّ والفجور والمجرمين، وكانوا يتمتعون بالحريّة الكاملة، وكثيرًا ما يغيرون على المتدينين ويقتلونهم دون أي تهمة، ولم يُسمع قط بأن قاتلًا قبض عليه من الشرطة. وهكذا استشهد الآلاف من المسلمين...

وبعد عام ١٩٢٧م اشتدّ القتل وسفك دماء الأبرياء بصورة رهيبة، وتجاوز الاشتراكيون الحدود كلّها في عداوة الإسلام. كانوا يوجّهون اتهامات ومثالب إلى الإسلام علنًا، ويرسمون "الكاريكاتيرات" عن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وتعاليم الإسلام والمشايخ والعلماء، ثم يعلّقونها في الشوارع وجدران المساجد، وينسبون إلى النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ما لا يُتصور نسبته إلى شخصيته الطاهرة.

وكانوا يعرضون في دور السينما أفلامًا ومسرحيات تحتوي على الإساءة إلى الإسلام وتحقير شعائره وتعاليمه، حتى لو أن أحدًا غضّ بصره عن تلك الصور والكاريكاتيرات المسيئة إلى الإسلام، كان ذلك جريمة لدى الشيوعيين. ويمكنك أن تتصور غاية تمرّدهم ومدى عداوتهم للإسلام بأن هؤلاء الشيوعيين كانوا يصنعون تماثيل رمزية للنبي ﷺ، ثم يضعونها في ملتقى الشوارع، فإذا مرّ بها أحد، قبضوا عليه وأوقفوه أمام تلك التماثيل قهرًا وإجبارًا. ففي تلك الأوضاع الرهيبة لم يكن أمام هؤلاء الذين يحبّون أن يعيشوا متمسكين بإيمانهم وإسلامهم إلا أن يتركوا بلادهم ويهاجروا في سبيل الله.

ذات يوم ... عقد الشيوعيون حفلة في أكبر مسجد في منطقتنا، وأعلنوا في المنطقة كلّها

بأنه يؤمر كل إنسان أن يحضر في الحفلة، وأن من يتخلّف عنها سيناله العقاب الشديد. فحضر الجميع بعد هذا التهديد، ولم يكن في المسجد مكان شاغر، فابتدأت الحفلة، وكان أول إعلان من مدير الحفلة: "فليخرج الروحانيون من المسجد!".

ويُلاحظ أن «الروحاني» كلمة تُطلق في بلاد تركستان على كل إنسان له علاقة بالإسلام، ومحبة وشغف بالدين. وبعد أن أعلنوا ذلك خرج كثير من الناس، ولم يبق في المسجد إلا الفسّاق والفجّار وضعيفو الإيمان من الرجال أو الصبيان. ثم كتب الشيوعيون في السجل أسماء الرجال الذين خرجوا من المسجد، ثم ساد الصمت لمدة من الزمن حتى ضرب الجرس بشدة! نعم... ضرب الجرس في المسجد، في بيت من بيوت الله كما يضرب في الكنائس. كان الموقف مرعبًا، فزاد الجرس فيه خوفًا ورهبة. ثم أتى إلى المنصّة رجل قيل عنه إنه فيلسوف إسلامي! فأخذ الرجل يبثّ السموم ضد الإسلام نحو ساعة ونصف، وأظهر بغضه وحقده على الإسلام. ولا يستطيع قلمي أن يعبر عن هذيانه كاملًا، لكن خلاصة ما قاله:

«إن تصوّر الإله الذي تعطيه الديانات وبوجه أخصّ الإسلام، يهدف إلى أخذ أموال عامة الناس، فهذا التصور للإله إنما أوجده الرأسماليون والمشايخ وعلماء الدين لملء بطونهم، وإن الله والرسول، واليوم الآخر، والبعث والنشور، والحشر، والجنة، والنار، والملائكة، والجن، وغيرها من العقائد والتصورات هي في الحقيقة خديعة، وأساطير وأكاذيب اختلقها الروحانيون. وإن الحزب الشيوعي على عزم تام لإزالة هذه التصورات والأفكار والعقائد وإبطالها، وتخليص العوام والشعب الكادح من هذه الأساطير». ثم صاح الرجل المتحدث قائلًا: «هل فيكم من يريد أن يسأل شيئًا؟».

كان الدم يغلي في جسدي من أباطيل وخرافات هذا الرجل البذيء المسيء فاقد

الأدب. فتحركتُ وقمت بقوة وقلتُ غير مبالٍ بطغيان الشيوعيين وقهرهم: «لقد أخرجتم هؤلاء الذين يقدرون على الرد عليكم، وعلى خرافاتكم وأباطيلكم، فهل تطلبون الرد من أشباحهم؟». كنت في اندفاع وحماسة شديدة، ولم أدرك بماذا تكلمت، ولا أدري ماذا قلت بعد ذلك، ولم أشعر بشيء إلا أنني رأيت المسجد قد عمّه السكون المخيم والصمت الشديد. وظلّ صوتي الصارم يضجّ في ذلك المكان حتى سمعتُ صيحة: «خذوه ... خذوه!».

فهجم علي وأحاط بي الشيوعيون من كل جانب، وأخذوا يضربونني بأيديهم وأرجلهم حتى تقطعت ملابسي، ثم أخرجني الشرطي من المسجد وهو يضربني بسوطه.

وصلت داري، فلما رأتني أمي وإخوتي الصغار -وأنا في تلك الحالة- تحيّروا ودهشوا وحزنوا لحالي كثيرًا. واضطراب أمي كان في محله؛ لأن المصائب والمحن التي لا تزال تلحق بالدين وأهله لم تكن مخفيّة عنها. وبالذات لم تكن أسرتنا في أمن وأمان، فقد قبضت الشرطة الشيوعية على عمي واثنين من أخوالي وزوج أختي، وابنَي خالتي والكثير من الأقارب والأعزاء كذلك، وأخذوهم من بيوتهم بجريمة أنهم علماء دين وأئمة للمسلمين، ولا ندري ما مصيرهم وعاقبتهم حتى يومنا هذا؟ أين هم؟ أحياء أم أموات؟

سألتني أمي «ولدي! فداك نفسي! من الذي ضربك هكذا؟».

أردت أن أخفي القصة عنها، لكن أمي أصرّت كثيرًا، فحكيت لها القصة كلّها. كانت تستمع إلي وتبكي بشدة، ثم قالت:

«نور عيني! هؤلاء الناس جهلة وملحدون، وهذا الوقت وقتهم، والحكم بأيديهم. وليس في قلوبهم وعقولهم من العلم والمعرفة شيء مطلقًا، والخرافات والأباطيل التي يبثّونها لا تزيد أن تكون بهتانًا وافتراءً على الإسلام. وأنا بحاجة إلى أن أذكّر في شأنك

قليلًا، والآن تعالَ وتناول العشاء». كنتُ أشعر بعدم الطمأنينة، كان قلبي مضطربًا اضطرابًا شديدًا، وكنتُ لا أشتهي الطعام، فأخذت أمي تطعمني. وكان قد مضى من الليل الجزء الكبير، فصلّيت بأمي وأختّي صلاة العشاء، ثم مضت بي أمي إلى غرفتها الخاصة، وناولتني كتابًا وقالت: «خُذ يا ولدي واقرأه». فتحتُ الكتاب فإذا هو المجلد الأول من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وكان مطبوعًا في مدينة قازان[1]، ثم انصرفت أمي. بدأت في مطالعة الكتاب حتى انقضى الليل. وقبيل طلوع الفجر دخلت عليّ أمي وأخذت الكتاب من يدي، وقالت: «فؤادي... استرح الآن قليلًا».

ثم نمتُ ساعة أو أقل، فعادت أمي وأيقظتني لصلاة الفجر، وأدّينا الصلاة جماعة، ولما طلعت الشمس انشغلنا في أعمال البستنة، وقد ذهب أخواي الصغيران إلى المدرسة، ولما رجعَا إلى البيت وقت الظهر أسرَّا بشيء إلى أمي، فقالت أمي: «هؤلاء الناس أعداء الدين، وهكذا يهذي ويلغو الأعداء».

وكان المعلّم عرض في المدرسة فيلمًا دراميًّا وكان فيه الهجوم على الصلاة والصيام، وشعائر الإسلام الأخرى، والسخرية منها. فلما ذهب الأطفال في اليوم التالي إلى المدرسة سئلوا عن انطباعات آبائهم وأمهاتهم عن تلك الدراما!

وبعد ١٥ يومًا، سَحبت الحكومة جنسية أمي بدعوى أنها روحانية وعاملة. ولهذه المناسبة قالت أمي:

«سنُفتتن الآن في إيماننا، ونُبتلى في ديننا، وهذا ما ظنناه فيهم بأنهم لا يتركون في هذه

---

(١) **قازان**: مدينة قديمة مشهورة عبر الزمان، وذات أهمية كبرى في تاريخ مسلمي روسيا وتركستان. وهي عاصمة جمهورية تتارستان التابعة لروسيا الفيدرالية حاليًا.

الأرض إنسانًا في قلبه إيمان وشعور ديني». ثم توجهت بي أمي إلى جانب وقالت: «ولدي إنني لا أدري متى يقتلني الأعداء أو ينفونني إلى أرض بعيدة مجهولة، ولا يمكن أن يعيش المرء هنا مسلمًا ومؤمنًا. فآذن لك الآن أن تهاجر إلى بلاد أخرى لكي تعيش مسلمًا متمسكًا بدينك».

ومن ذلك الوقت كانت أوقاتنا تمضي في المشاورة خفية. وكنت ورثتُ من والدي، وجدّي، وجدّي لأمي عددًا كبيرًا من الكتب الثمينة القيّمة والنادرة، فأشارت إلي أمّي أن أفتح فجوة في جدار سميك ثخنه نحو ستة أقدام في مجلس الضيوف، وأن أضع الكتب فيها، ففعلتُ ثم أغلقتها؛ لأننا كنّا على يقين تام بأن الحكومة الشيوعية ستستولي على هذه الدار، وستستخدمها مكتبًا حكوميًا، ولن تهدمها كاملة.

وبعد ثلاثة وعشرين (٢٣) يومًا من اليوم الذي سُحبت فيه جنسيّة أمي، ارتحلتُ من بيتي وسرتُ في طريق الهجرة.

في اليوم التالي وصلت قريبًا من بلدة «خضر آباد» بعد أن مشيت ساعات متتالية، وتقع خضر آباد على بعد ٢٤ ميلًا من قريتنا تقريبًا، وهي قرية كبيرة وتمر بها سكّة حديد القطارات، وإذا أراد أحد أن يدخلها كان عليه أن يجاوز «نهر سيحون»[١].

اقتربت من القرية، فإذا بقوات عسكرية روسية قد أحاطت بالقرية، يتراوح عددها بين ألف وألف وخمسمئة جندي. وتبيّن بعد ذلك أن الشيوعيين قد أساؤوا إلى الإسلام والنبي عليه الصلاة والسلام، وسخروا من الدين واستهزأوا به في «خضر آباد»، فاشتعل

(١) **نهر سيحون:** يُعتبر من الأنهار الرئيسة في بلاد ما وراء النهر، وأحد أكبر نهرَين في أوزبكستان، ويسمى حاليًا بـ «سِيردَرْيا SYR DARYA».

الناس غضبًا وغيرةً، وقطعوا دابر الشيوعيين، وقلعوا السكّة الحديدية، ورفعوا راية الحرّية ضد طغيان الشيوعيين. فجاء الجيش الروسي هنا لكسر شوكة أهل هذه القرية مسلّحين مستعدين، وكانت حراستهم حول قرية محكمة جدًا، ولم يكن أحد من السكّان لينجو منهم لو دخل أو خرج من القرية.

وقعت في حرج شـــديد، فلا يمكنني الآن أن أتراجـــع ولا أن أفرّ إلى مكان آخر، كما لم يكن هناك مكان أستتر فيه. وفي ذلك اليوم كنت قد رأيت الموت يُرفرف فوق رأسي.

ولما نظرتُ إلى الجيش ترددت وتحيّرت من أمري لمدة يسيرة، ثم جرى على لساني كلمتَي «الإيمان المجمل»[1] و«الإيمان المفصل»[2] دون شعور مني، وطرأت عليّ حالة غريبة وشعور لا أقدر على أن أصفه، فرفعت قدمي وبدأت أمشي، ولما عاد إليّ وعيي رأيت أنني تجاوزتُ الجيش، وتركتهم خلفي على بُعد كبير، والحق أنها كانت تجربة محيّرة، ولم أدرك حتى اليوم كيف نجوت ومررت بالطريق التي كان يحرس كل شبر منها الجيش الروسي!

وفي مساء ذلك اليوم وصلتُ مدينة «أُوَيلـــي» وكان يسكن فيها صديق والدي رحمه الله، وكان من العلماء العاملين البارعين، وكانت شخصيته مرموقة. وقد سيطرت على المدينة مخالب الشيوعية، فكان هذا العالم الجليل أوّل ضحيتها، فقالوا لي: «لقد قتله

---

(١) **وهي:** «آمنت بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، والبعث بعد الموت»، مأخوذة من حديث جبريل عليه السلام، ويحفظها مسلمو دول آسيا منذ الصغر.

(٢) **وهي:** "آمنت بالله كما هو بأسمائه وصفاته، وقبلت جميع أحكامه".

الشيوعيون البارحة». ثم دلّني أهل الحي على الطريق التي توصل إلى «نَمَنْگان»، فوصلتُ إلى «نمنگان» في اليوم التالي.

هذه مدينة أخوالي، كانت فيها عقارات ومبانٍ لأمي التي ورثتها عن أبيها. إن أوضاع «نمنگان» كانت أحسن بالنسبة إلى المدن الأخرى، فأقمتُ فيها أيامًا، ثم وصلتُ إلى «خُوقند»[1] بالقطار.

تُعدّ «خوقند» من المدن التاريخية في تركستان، وهي مدينة واسعة وكبيرة. ولما سقطت الإمبراطورية الروسية، وتشكّلت في تركستان حكومة مستقلة، كانت «خُوقند» مقرّ تلك الحكومة، وهي تقع على بُعد ١٥٢ ميلًا من قرية «قائقي». وكانت الشيوعية قد جرّبت أنواع التعذيب كلّها على أهل خوقند، وتجاوزت الحدود في المظالم والضغوط. وحينئذٍ أنشأ المسلمون في «خوقند» حركة سرّية، فإذا ما أساء شيوعي إلى الإسلام وطعن في الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، أو أذى عالمًا؛ قام بعض أعضاء تلك الحركة وقتلوه، وأوصلوا رأسه المقطوع إلى مقرّ الشرطة ووضعوا معه رقعة كتبوا عليها بعض العبارات مثل:

«إنكم ما زلتم تبثّون الأكاذيب ضد الإسلام، وتنشرون الأباطيل والهذيان عن الدين، وأما إذا قام علماؤنا ليردّوا على خرافاتكم فلا تتيحوا لهم المجال، وإنكم تجعلون أطفالنا وأبناءنا يسيئون الظن بالإسلام، وإننا الآن نردّ عليكم ونأخذ ثأرنا منكم بهذه الطريقة».

---

(١) **«خوقند» أو «قوقند»:** من أهم المدن التركستانيّة وأشهرها. وكانت عاصمةً لخانيّة خوقند التي حكمت في وادي فرغانة من سنة ١٧٠٩م إلى ١٨٧٦م.

لقد استبدّ الخوف والجزع بقلوب الشيوعيين، وملك عليهم الرعب والحيرة من ردّة فعل المسلمين، فلم يكن شيوعي يأمن على نفسه. وإذا أظلم الليل استتروا واختفوا في بيوتهم. ثم أعلنوا في المساجد والأسواق بأنه لا يُجبر أحد على إدخاله في الحزب الشيوعي، وأي إنسان يرغب في الالتحاق بالحزب فهذا مفوض إلى رأيه واختياره. وأعلنوا أيضًا: «أن الروحانيين سيحصلون على البطاقة التموينية».

وإن كان هذا الإعلان في الحقيقة حيلة من الشيوعيين إلا أنني اطمأنت، واطمأن الكثير من أمثالي، وعزمت على أن أقيم فيها، وأطلب العلوم الشرعية من علمائها.

كان الشيخ «محمد جان» المعروف بـ«باي وُچَّهْ داملا» من طلائع علماء «خوقند»، وكان من طلبة جدّي لأمي، ومن زملاء والدي رحمه الله. وكان يقيم في بيته تحت الإقامة الجبرية من الشيوعيين، وبعد هذا الإعلان المذكور ذهبتُ إليه وعرّفته بنفسي وقلت له: «أريد أن أقيم هنا، وأطلب العلم». سكت الشيخ برهة من الزمن ثم قال:

«بُني، لقد حظرت الشيوعية تدريس العلم الشرعي، وليس لدي إلا حيلة واحدة، وهي أن تعمل في المدينة نهارا أو إلى نصفه كأجير، وبهذا القدر يمكنك أن تقيم لدي». وافقت على فكرة الشيخ، وكنت أعمل طوال النهار، ثم أطلب العلم في الليل عند الشيخ.

وكان للشيخ محمد جان تعمقٌ في نظرية الإلحاد عند الشيوعيين، فكان يركز عليها كثيرًا، وخلال دروسه كان يذكر دعاوى الشيوعيين وأباطيلهم عن الإسلام، ويردّ عليها، ويفندها بدلائل ساطعة وحجج قاطعة.

كان ذلك الشهر الثالث منذ قدومي إلى «خوقند»، حتى بدأت الشيوعية من جديد فعاليات معادية ضد المسلمين، فلجأت إلى إحصاء عدد المواطنين في «خوقند»، وسجلتْ

أسماءهم في قائمة مفهرسة على ترتيب المناطق السكنية والأحياء، وفرضت المراقبة الشديدة على المتدينين منهم. وأدخلت في الشرطة العامة الفساق الأشرار البلطجيين من المدينة، فخوّفوا أهل الصلاح والدين وهدّدوهم، وقبضوا على بعضهم، وأجبروهم على الاعتراف بجرائم وجنايات هم منها براء. ففي كل يوم كان يختفي قرابة ٧٠-٨٠ شخصًا، ولا يدري أحد عن مصيرهم.

في ذلك الحين ذهبتُ إلى العلماء الذين بقوا في «خوقند» وعددهم قليل، وذكرت لهم هذه الأوضاع السيئة، وطلبت منهم النصح والإرشاد، لكن اليأس كان قد ملكهم، وفقدوا الأمل والرجاء، وكان أغلبهم يردّون عليّ بقولهم: «يا ولد، نحن كما ترى نعدّ ساعات بقاء حياتنا حتى موتنا واستشهادنا».

في ذلك الوقت، كان الشيوعيون لا يبالون بشيء، ولم يكن أمامهم أي عائق، وحتى الرهبة التي لحقت بهم من فعاليات الحركة السريّة تلاشت عنهم، وكانوا قد قبضوا على العلماء والقادة ونفوهم أو قتلوهم، فصار العامة من الناس بلا قيادة ورعاية. انتشر الرعب والدهشة في قلوب عامة الناس، وقصرت هممهم، وضعفت عزيمتهم، ولم يكن لديهم ما يقاومون به الشيوعيين، فكان لا يأمن أحد على نفسه وعرضه.

كان لديّ مصحف، وقد تمزقت بعض صفحاته فذهبتُ إلى دكان للتجليد، وكان في «**توبي بازار**»[1] الذي يقع في الجهة الشمالية الغربية من «جامع خوقند»، فبدأ عامل التجليد بإصلاحه، حتى أتى شيوعي وقال:

«هل أكملتَ تجليد كتابي؟».

---

(١) اسم السوق.

«بقي بعض العمل، سأكمله في ساعة وأوصله إلى بيتك»، أجابه العامل.

«ما هذا الذي في يدك؟» سأله الشيوعي.

«هذا... هذا... (تحيّر العامل وقال) هذا مصحف شريف، قد بقي دقائق ثم أتمم عملك». قاله بصوت فيه انكسار وخضوع.

اشتعل الشيوعي غضبًا، واحمرّت عيناه، وانتزع المصحف الشريف من يده وقال صائحًا:

«من أجل هذه الخرافات والأساطير (معاذ الله... معاذ الله) أوقفت عملي!؟» ثم رمى بالمصحف الشريف على الأرض خارج الدكان... آه ... يا ربّ! إن الدماء قد غلت في جسدي كله لكني لم أتمكن من التحرك. تمالكت نفسي، حتى قمت والتقطت المصحف الشريف من الأرض، وقبّلته مرارا. شعرت بغصّة في قلبي عند التفكير في أننا قد وصلنا إلى هذا المستوى من الوهن وضعف الإيمان، حتى أصبح الأعداء يستهينون بكتاب الله تعالى علنًا، ونحن عاجزون عن الدفاع عن حرمته!

كان مركز الشرطة على مسافة قليلة قريبة منّا، فلما اقترب ذلك الشيوعي من المركز أمسكتُ بيده وجذبته وذهبت به إلى الداخل، وأخبرت الضابط بما حدث، وندّدت بفعلة الشيوعي الشنيعة وقلتُ:

«إن هذا الرجل خالف قوانين الحكومة ونقضها؛ لأن الحكومة أعلنت أنه لا يجوز لشيوعي أن يقوم بعمل فيه إساءة إلى الدين، كما لا يجوز له أن يجبر إنسان مسلم على الإلحاد قهرًا، وإنني أطلب معاقبته لفعله البغيض المخالف للقانون».

لم يعطِ ضابط الشرطة لشكواي أي اهتمام ولم يلتفت إليّ، بل إنه أغلظ عليّ القول، وبدأ يقول: «لماذا جئت إلينا؟ اذهب إلى إلهك الذي تزعم أن الموت في سبيله

أسمى وأغلى شيء!».

خرجتُ من قسم الشرطة وذهبت إلى الجامع الرئيس، هذا المسجد الشامخ باقٍ إلى يومنا هذا، وقد حوّلته الحكومة الشيوعية إلى متحف[1]. كان المسجد في ذلك الوقت في وسط المدينة، وكانت مساحته بما فيه من الغُرف وغيرها ١٨ فدّانًا تقريبًا. وكان فريدًا في روعته وحسنه، ونموذجًا بديعًا في الفن المعماري الإسلامي، ومشيدًا على أعمدة كثيرة، ويقع في الجانب الشمالي من المسجد الشارع الرئيس، وكانت فيه الحوانيت والمحالّ التجارية الموقوفة على الجامع، وأما الجهة الشرقية فكان فيها حمام كبير. وكان «أمير خوقند» يؤمّ الناس بنفسه في الصلاة في هذا الجامع، ثم كان «شيخ الإسلام» للإمارة يصلّي بالناس فيه نيابةً عن الأمير.

وفي يومنا هذا كان العلامة «تُوره خان داملا» شيخ الإسلام فيه، وكان يعظ وينصح الناس في الأسبوع مرّة كعادته، ولم يبسط الشيوعيون قبضتهم الظالمة عليه بعد، وكانوا في انتظار الفرصة وبدأوا يبثّون الإشاعات والأقاويل ضدّه، حتى كلّفوا رجلًا يراقب أفعال الشيخ وحركته، ومن يفد إليه ومن يلتقي به. كان هذا الرجل الجاسوس من الأفغان، وكان ظريفًا وعذب اللسان، ويبدو عليه الصلاح والزهد والتقوى. وفي وجهه لحية طويلة، وكان أثر السجود في جبهته ظاهرًا، وكانت لا تفوته الصلاة جماعة مطلقًا، وكان يحضر لصلاة الفجر مبكرًا، ويقوم خلف أسطوانة يصلي ركعتي الفجر ويطيل في القراءة، وفي أثناء ذلك يراقب المصلّين الداخل منهم والخارج، وكان يلبس في المسجد الزيّ

(١) **جامع خوقند:** من أكبر جوامع مدينة خوقند الذي شيّد بناءه أمير خوقند آنذاك «عالِم خان» (ت: ١٨٠٩م) في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، ثم أكمل بناءه أخوه الأمير عمر خان (ت: ١٨٢٢م). أُعيد هذا الجامع إلى هيئته التي كان عليها قبل الغزو الاشتراكي. ينظر للمزيد: https://zenodo.org/records/8051235

الأفغاني التقليدي، وإذا خرج كان يجول في لباس أهل «خوقند» المعتاد.

رابتني أفعال هذا الرجل وأحوا له، فأمعنتُ النظر في حركاته، و بدأت بمراقبته، فتبيّنت لي أن الرجل مكلّف من الشيوعيين بالتجسس على الشيخ «توره خان داملا»، بل كان عليه أن يراقب من يزوره، ومن يهاجر إلى أفغانستان من الأسر.

انتقلت للسكن في «إسفَره گُزَري»، وهو حي من أحياء «خوقند»، ومسجد الحي كان من أجمل المساجد[1]، وكانت غرفه فاخرة جدًا، وقد تيسرت لي غرفة منها للإقامة فيها، إلا أنني كنت أصلي في أغلب الأوقات في الجامع الرئيس.

وذات يوم أتى عدد من الرجال زائرين مجلس الشيخ «توره خان داملا»، وذلك بعد صلاة الجمعة، وكان فيهم ذلك العميل الأفغاني، ومشيت وراءهم وحضرتُ في المجل. ولما تبيّن أنني سبط أستاذه العلامة «غياث الدين إيشان» وابن زميله الشيخ «خوجة خان»، استقبلني استقبالًا حارًا وألان لي جنبه، وقبّل جبهتي، ثم سألني عن أحوال أسرتي لمدة طويلة، ثم ذكر عددًا من علماء «نمنگان» المشهورين وسألني عن أحوالهم، وماذا يفعلون في هذه الأيام؟ فلما قصصتُ عليه أخبارهم، وأنّ منهم من قتله الشيوعيون واستشهدوا، ومنهم من نفوه من «نمنگان»، غشي المجلس صمت طويل، و شعر الجميع فيه بالألم والحزن والأسى. استأذنت من الشيخ، فسألني: «أين تقيم حاليًا؟» قلتُ: «استأجرت غرفة في مدرسة مير عالم[2]، وأقيم فيها». كتمتُ عنواني الصحيح من أجل ذلك الأفغاني.

---

(١) لا يزال **«جامع زِين بَرْدَار»** المشار إليه موجودًا في ذلك الحي.

(٢) لعل هذه إشارة إلى تلك المدرسة الكبيرة التي كانت داخل جامع خوقند. ينظر للمزيد:
https://uzbek-travel.com/about-uzbekistan/monuments/jami-mosque/

كانت هذه المدرسة في زمن الحكومة الإ سلامية تعدّ من أ برز الجامعات. وكا نت لها مكانة علميّة و شهرة وا سعة، يفد إلى رحابها آلاف الطلبة من شتّى النواحي البعيدة، ويتلقّون فيها العلوم الشرعية.

وكان قد أُسس بجوارها سكن كبير لإقا مة الأ ساتذة والطلاب فيها. وفي هذه الأ يام تستخدم هذه المدر سة ومسكنها الكبير لإقا مة العمّال الشيوعيين والمسافرين الرو سيين القادمين من أرجاء المدن الأخرى.

كان الشيخ «توره خان داملا» كثيرًا ما يصطحبني معه إلى بيته، و كان يشفق عليّ شفقة كبيرة، وكان رحيمًا بي. ذات يوم ذهب بي ذلك العميل الأفغاني إلى بيته بعد إصرار كبير. والحجرات في تركستان تكون في الأغلب على جزأين، فأجلسني في القسم الأول وذهب هو إلى القسم الآخر الخلفي ليغيّر ثيابه. وكان قد نسي أن يأ خذ الأوراق المو ضوعة على الطاولة، فو قع نظري على ور قة منها، فرأ يت ا سم الشيخ « توره خان دا ملا»، فأخذت الورقة، فإذا بها قائمة طويلة لأ سماء العلماء والمشايخ، فأ سرعت في و ضعها بجيبي. دخل الرجل الأفغاني إلى الغرفة متحيّرًا، وانتزع الأوراق من فوق الطاو لة انتزا عًا وغادر الغرفة، وبعد مدّة قليلة رجع إليّ، وأخذ يتحدث معي في انبساط وطمأنينة، وكان يحاول التقرب مني بتواضع جم.

لقد كنت محقًّا بشأن ذلك الر جل الأفغاني. قدّمتُ الور قة إلى الشيخ « توره خان»، وبعد أن ألقى نظرة عليها، دعا لي بالخير والبركة، ووضعها جانبًا، وبعد يومين أو ثلا ثة لم أعُد أرى الأفغاني، لقد غاب عن الأنظار. وأغلب الظن أن المجاهدين قضوا عليه.

وذات يوم ذكرت للشيخ «توره خان داملا» أمر إكمال دراستي، وأظهرت له رغبتي في دراسة «شرح العقائد النَسَفيّة»[1] عنده، فقال الشيخ: «نحن بحاجة إلى دراسة كتب أمثال «الفقه الأكبر»[2] و«القصيدة الأمالية»[3] ونحوها، فإنه من الواجب الضروري علينا أن نعلّم عامة المسلمين العقائد الأساسية ومبادئ الإسلام، كما يلزم أن ندرس المبادئ الشيوعية وأصولها وأفكارها المادية ثم نردّ عليها، وأما الفلسفة اليونانية فإنها لن تنفع شيئًا في عصرنا هذا، وليس من المعقول أن نضيّع أوقاتنا وقدراتنا بالخوض فيها».

فقلت للشيخ: «الأمر كما تحب وترضى، ولا اعتراض لي فيه». قال: «إذن، احضر في بيتي بعد صلاة العشاء». فما زلتُ أحضر عنده حسب أمره، وعلى هذا مضى ٢١ يومًا، علمني الشيخ خلال هذه الأيام أمورًا كثيرًا، وأعطاني دروسًا قيّمة ومفيدة، ثم كلّفني بالإمامة في «مسجد تويي بازار»، وكان يسكن في هذا الحي عدد من اليهود والأرمن، كما تقع فيه مؤسسة شيوعية، وكنت أعقد في المسجد درسًا بعد صلاة الفجر أعلّم فيه القرآن الكريم والعقائد الأساسية الإسلامية، فكان لهذا الدرس أثر ملموس في الحي، وهذا لم يعجب الشيوعيين بطبيعة الحال. فبإيماء منهم أثيرت في الحي قضية، وهي: هل إمام المسجد بالغ أم لا؟ فإنه لم ينبت شعر لحيته ولا شاربه بعد!

فذهبت إلى الشيخ توره خان داملا، وأخبرته عن القضيّة، فقال: «قدّم رجلًا من المصلين، ليصلّي بالناس، ولا تترك الدرس أبدًا».

---

(١) كتاب ألفه الشيخ سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت: ٧٩٢هـ) على طريقة المتكلمين.

(٢) كتاب منسوب إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي (ت: ١٥٠هـ) في بيان أصول الدين.

(٣) قصيدة «بدء الأمالي» منظومة عقدية للشيخ علي بن عثمان الفرغاني الحنفي (ت: ٥٧٥هـ) على طريقة المتكلمين.

عملت وفقًا لتوجيهاته، وهكذا مضت الأيام بسكون وطمأنينة، فبدأ أطفال الحي يحضرون الدرس، وعلى هذا فتحت حلقة درس صغيرة في المسجد، فأثيرت على إثرها قضيّة أخرى هل لدي تصريح جواز سفر وتصريح بالتنقل، أم لا؟

يُلاحظ أن الشيوعيين لما استولوا على الحكومة، أصدروا قانونًا بمنع التنقّل من مدينة إلى أخرى داخل الوطن إلا بتصريح. لكن هذه المشكلة حُلّت بوساطة رجل من الشيوعيين أنفسهم، وخمدت النار، وارتحتُ.

كان الشيوعيون يبذلون غاية جهدهم في إثبات أن مبادئ الإسلام وتعاليمه فاشلة، وغير صالحة لهذا العصر، ويخوضون في الجدال والمراء مع العلماء على هذا. كما كانوا يسخرون من الدين وتعاليمه ويجعلونه أضحوكة في مجالسهم، ويتناقشون في مسألة وجود الله ويهذون فيه.

في ذلك الوقت كان رئيس «مدرسة بيگ»[1] هو الشيخ «محيي الدين مخدوم» من أبرز من قاوم الشيوعية، وجاهدهم بكلماته وخطبه النارية، وقد أثرت تلك الخطب الجياشة في نفوس المسلمين تأثيرًا كبيرًا، وكانت كلماته تمسّ قلوب المسلمين وتحرّكهم بشدة.

كانت تلك الفعاليات والهجمات المعادية للإسلام من الشيوعيين قد أيقظت شعور العلماء، وجعلتهم يحسّون بمسؤولياتهم، فبدأوا يعملون على خطّة جديدة للدعوة والإرشاد من جديد دون أن يلقوا بالًا للخطر المحدق على مصيرهم ومستقبلهم، وشرعوا بتنظيم البرامج الدعوية. لكن لم يكن الشيوعيون يرضون بذلك، فسخطوا عليهم

(١) إحدى المدارس الدينية في مدينة خوقند.

وأســـرعوا في القبض على الناشطين، وعلى إثر ذلك، ازدادت عمليات الاعتقال بشكل كبير.

كان الباب يطرق في منتصف الليل، وعندما يُفتح الباب، تدخل الشرطة السرية وتقبض على الرجل المطلوب وتجلسه في عربة مغلقة، وتذهب به بعيدًا. وكانوا يقولون لأسرته: إنه سيرجع بعد ٣-٤ أيام! فإذا مضى أسبوع أو أسبوعان، كان يُعلم بأن الرجل قد بُعث إلى منفاه، وكان هذا يعني أنه نفي! إلى زمهرير مجاهل «سَيبيريا»!

الدرس الذي كنت أقيمه في «مسجد توبي بازار» يسير على نشاطه كاملًا، ولأجل ذلك صُودق على قرار اختطافي في اجتماع الحزب، وقد أخبرني بذلك شاب في الساعة الثالثة ليلًا. هذا الشاب كان من أركان "كمْسمول" (اتحاد منظمات الشباب السوفيتي)[1]. كان ذلك الشاب في ظاهره شيوعيًا متصلّبًا، لكنه في الحقيقة كان حزينًا على أوضاع الوطن المؤسفة، وكان قد صار من أصدقائي، وبوساطته حلّت قضية جواز السفر وتصريح التنقل كما مر سابقا. وبناءً على هذا القرار، بدأ الشيوعيون يراقبونني حتى لا أفرّ من أيديهم.

وكان لهذا الشاب عمّ اسمه «مِير أيوب» وكان أعمى، قدم إلى غرفتي في الصباح الباكر، ثم أخذ يناقشني في مسائل فقهية، وفي الساعة الحادية عشرة تقريبًا، جاءني ذلك الشاب مسرعًا، وطرق الباب بخفة، ففتحت الباب، فلما رأى عمّه جالسًا في غرفتي، أشار إليّ أن أخرج إليه، فخرجتُ وقال لي: «لقد عزم هؤلاء على إلقاء القبض عليك

(١) **الكَمْسُمول:** أسّست هذه المنظمة للشباب والصغار تحت إشراف حزب الشيوعية (البلشفية) الروسية عام ١٩١٨م.

واختطافك، وهذا الرجل الذي يجلس لديك هدفه ألا تخرج من غرفتك إلى أي مكان، فلا تتأخر واخرج من هنا في أسرع وقت ممكن».

ذهب الشاب، ورجعت إلى غرفتي، فسألني أيوب: من هذا الذي طرق الباب؟ فأجبته: «هذا ابن شيوعي شرير خبيث من هذا الحي» ثم أخذتُ فراشي الذي أعطتنيه أمي وخرجت من الغرفة مختفيًا، وذهبتُ إلى «مدرسة خشتن»[1]، حيث كان «عبد المالك قارئ» من طلابها، وكان من مواطني بلدة «پايتُوق» التي تقع على بُعد أربعة فراسخ من «أنديجان»، وكان من خلّص أصدقائي الحميمين، فعرّفني إلى رجل حافظٍ للقرآن الكريم، وكان هذا الحافظ من المجاهدين الذين كانوا يقاتلون الشيوعيين في جبال «طاجكستان». بالرغم أنه كان يعلّم الصبيان القرآن الكريم نظرًا وحفظًا، إلا أن مهمّته الحقيقية كانت توعية الشباب بمخاطر الغزو الفكري الشيوعي، وتسليحهم بناصية العلم الشرعي. كان أسلوبه في الخطاب والحوار رائعًا جدًا ومؤثرًا.

أقمتُ هنا نحو أسبوع، وخلال هذه المدة حدَثت في «خوقند» فوضى شديدة، ووقعت فيها أحداث وأهوال، ونُفي مئات من العلماء، واستُشهد الآلاف من المسلمين، وكان الرد على هذه العمليات قويًا جدًا أيضًا، فقد قُتل أكثر من عشرة آلاف من الشيوعيين.

فالموت كان في تلك الأيام أرخص شيء في «خوقند»، وقرر المسلمون إمّا أن يقضوا على الشيوعيين وإمّا أن يستشهدوا، فأخذت دائرة الشيوعيين تضيق تدريجيًّا، وبدأت قوّتهم تضعف.

عزمتُ أن أرحل إلى مدينة «سمرقند»، وقد أعطاني صديقي «عبد المالك قارئ» ٢٥

(١) إحدى المدارس الدينية في مدينة خوقند.

كيلو من الأرز عند الرحيل، وقال: «إذا وصلتَ إلى سمرقند بِعْها، ويكون المبلغ كافيًا لتغطية مصاريف سفرك ومؤونتك»، ثم أعطاني عنوان صديق له في «سمرقند» أيضًا.

حصلتُ على تذكرة قطار البريد المتجه إلى مدينة «سمرقند» بشكل غير متوقّع، ركبتُ قطار البريد في الساعة الثامنة مساءً، ووصلتُ إلى بلدة «خواص» في اليوم التالي. كانت «خواص» ملتقى طرق للقطارات، وفيها اشترى مني الأرز صاحب مطعم، وأعطاني مقابله ٤٠ روبلًا. كانت بلدة «خواص» تعاني من وقوع القحط والمجاعة المصطنعة. فقد نهب الشيوعيون ما لدى الفلاحين من الأطعمة والمحاصيل الزراعية.

ركبت القطار في المساء لمدينة «سمرقند». نصحني صاحب المطعم أن ألبس الزّي السمرقندي التقليدي، فإنه أسلم وأكثر أمنًا. فاشتريتُ معطفًا سمرقنديًا ذا كُمٍ طويل، فبدوت كرجل سمرقندي أُوزبكي!

أقمتُ بمدرسة «تِلّا كاري»[1] عند وصولي إلى «سمرقند». وفي اليوم التالي بحثت عن صديق عبد المالك، فلما التقيت به ذهب بي وأوصلني إلى قرية «مَيمَن قِشلاق» التي تبعد عن المدينة قرابة فرسَخَين ونصف[2]، وكان يقيم فيها عالم جليل يُعرف باسم «دا مْلا بخاري»، وكان شيخًا فطنًا، ذا ذهن ثاقب، خبيرًا بالشؤون، صاحب بصيرة، فكان مرجعًا لخواص الناس وعوامهم، وكان قد كتب إليه صديقي عبد المالك قارئ رسالةً، فلما أردت أن أقدّمها إليه امتنع عن استلامها، وقال: «لقد قررتُ ألا آخذ رسالة من

(١) **مدرسة تلّا كاري:** مدرسة دينية أنشئت في أواسط القرن السابع عشر الميلادي، وأحد أهم المعالم الحضارية والتاريخية في مدينة سمرقند.

(٢) حوالي ١٢ كم.

أحد، كما لا أتحدّث سرًا وهمسًا!». ورغم ذلك فقد عاملني بلطف واهتمام شديدين، أعدّ لي الشاي بنفسه وقدمه إليّ، فقلت له: «إن القارئ عثمان ألماسي[1] قرأ عليك السلام»، فردّ على تحيّته لمدة طويلة «وعليه السلام... وعليه السلام...»، ثم قال الشيخ:

«كيف حال عثمان ألماسي، هل هو على ما يُرام؟».

فأجبته: «نعم، هو بخير وسلامة».

فسألني مرة ثانية: «إلى أين تقصد الآن؟»

أنا: «إلى بخارى أو مدينة شهرسبز؟».

الشيخ: «عند أي شخص ستمكث في شهرسبز»؟

أنا: «يسكن فيها خالي، وسأقيم عنده».

فلما ذكرت اسم خالي ظهر أن «دا ملا بخاري» من تلامذة خالي الأوسط الشيخ «محيي الدين تُوره»، ففرح فرحًا شديدًا، ودعا لي بالخير، ثم قال لي أثناء حديثه: «لقد آن وقت امتحان المسلمين وافتتانهم، وإنه سيميّز الصالح من الطالح، ويفرّق بين الصادق المخلص والكاذب المنافق».

كان «دا ملا بخاري» يلقي درسًا في الأسبوع، يعلّم فيه القرآن الكريم ويشرح الأحاديث النبوية، حيث يحضر عنده عدد كبير من الطلاب ومن مسافات بعيدة رغم المخاوف والشدائد التي قد تلحق بهم من أجل حضور الدرس

كانت «تخته قراچه» سلسلة جبال مشهورة تقع على مسافة قريبة من «مَيْمَن قَشْلاق»، وكان فيها مركز للمجاهدين الأبطال ينزلون فيها يوميًا، فيغيرون على الشيوعيين مباغتة،

(١) لعل هذا هو اسم معلّم القرآن الذي سبق ذكره قريبًا.

إذ كان القتال يجري بينهم لمدة يسيرة، ثم ينسحبون ويغيبون بعد قتلهم وجرحهم وتقطيعهم، وكان «داملا بخاري» يردّ على هذيان الشيوعيين وأكاذيبهم وشبهاتهم، كما كان يقوم بتربية المجاهدين وتعليمهم، فقد قال لي ذات يوم:

«نحن مسلمو تركستان -وخاصة العلماء منا-، كنّا نغفل عن نِعم الله ونكفرها، وكان السيل قد علا وتعاظم، وكنّا مستغرقين في النوم، فلما أفقنا كان السيل قد بلغنا إلى المساجد والمدارس والزوايا، وهزّت أبنيتها بعنف وشدّة. وكفارة هذه الغفلة الآن أن يضحّي العلماء بأنفسهم!».

سكنتُ لدى السيد البخاري أسبوعًا كاملًا، ثم رحلت إلى مدينة «بخارى»، ووصلت إلى نقطة التقاء للقطارات الكبيرة «كاكان» التي تقع على بُعد ٧ أو ٨ أميال من «بخارى»، ومنها يتحرك القطار الصغير إلى «بخارى». فضّلتُ أن أذهب مشيًا على الأقدام، وعندما أظلم الليل كنت قد وصلت إلى قرية، وصلّيت في مسجدها صلاة العشاء، فلما قررت النوم في المسجد منعني الإمام، فابتدأ النقاش في هذه المسألة. كان الإمام يقول: «النوم في المسجد مكروه». وكان قولي: «المسافر لا يُكره له أن يقيم في المسجد، وأن ينام فيه». وأخيرًا عندما يئس من النقاش معي، قال المؤذن:

«إن هذا الحكم بات من الفرقة».

«الفرقة! أي فرقة؟» سألتُه.

المؤذن: «يا بدوي!» قال الإمام في سخرية وغضب، ثم أردفها: «ألا تدري عن الفرقة؟ أقصد الحزب الشيوعي».

أنا: «إن الشيوعيين ينكرون وجود الله، فما لهم ولتنظيم المساجد!».

المؤذن: «من أنت يا أحمق؟ أوزبكي؟ طاجيكي؟ قرغيزي؟ قازاقي؟ أو تركماني؟».

أنا: «أوزبكي».

المؤذن: «إنه لا يؤذن لك خاصةً أن تأتي إلى هنا، فكّر في سلامتك وارتحل فوراً».

قالها وهو يصرخ.

خرجتُ من المسجد ضيّق النفس متألمًا. وقضيتُ الليلة تحت شجرة خارج القرية، ولما ذهبت إلى المسجد لصلاة الفجر وجدته مغلقًا، فسرتُ إلى «بخارى».

وصلتُ إلى مدينة بخارى قرابة الساعة الثامنة صباحًا، ولما دخلت «حيّ الغُجْدَواني»، رأيت فيه مسجدًا جميلًا. كان منظره خلّابًا، فدخلته، فإذا عدد من النساء يغسلن الثياب، وقد اتخذته بعض العوائل مسكنًا لها، ثم علمتُ أن هؤلاء الأسر من اليهود الشيوعيين، أسكنتهم الحكومة الشيوعية فيه! فلما خرجت من المسجد فإذا بأصوات الطبول والأبواق وألحان الفِرق الموسيقية تقترب مني شيئًا فشيئًا، وظننت أنها قد يكون احتفالًا! وبعد دقائق قليلة انكشف المنظر أمامي كاملًا!

إنه الجيـش... يزحفون بخطـوات وفق ضربات الطبول والآلاف من الشيوعيين يمشون وراءهم في صفوف للرجال وأخرى للنساء. يرفعون أعلامهم بأيديهم، حتى اجتمعوا حول بِركة مياه كبيرة في وسط المدينة يُقال لها: «حَوض دِيوان بيگي»[1]. واتضح أن الشيوعيين كانوا يحتفلون في ذلك اليوم بذكرى «يوم نزع الحجاب»! إذ كانوا قد نزعوا قبل سنوات في مثل هذا اليوم النقاب والبرقع والحجاب من وجوه السيدات المسلمات وأجسـادهن، ثم أحرقوها، وذلك بمساندة مباشرة من الجيش الأحمر. وأما السيدات اللاتي امتنعن عن نزع البرقع، فقد تعرض أهاليهن لأنواع التعذيب والإيذاء، حتى

(١) **لَبِ حَوض أو حوض دِيوان بِيگي:** هذ الحوض موجود إلى يومنا هذا، وحوله آثار قديمة أخرى.

اضطررن إلى خلعه؛ تخليصًا لأسرتهنّ وأقربائهن. ومن ذلك الوقت أصبحوا يحتفلون في كل عام بيوم نزع الحجاب[1]. وعند انتهاء التّجمهر عقدوا حفلة انتقدوا فيها شعائر الإسلام، وطعنوا وشتموا، وقالوا ما شاؤوا، واتخذوا فيها قرارًا بعد اتفاقهم عليه جميعًا بأن ينصب تمثال «لينين» في مساجد «بخارى» الكبيرة جميعها.

أقمتُ في «بخارى» ثلاثة أيام، إلا أن هذه الأيام كانت شاقّة علي كثيرًا تعادل ثلاث سنوات، كانت أوضاعها غاية في الاضطراب والفوضى!

لا شكّ أن بلاد تركستان بأسرها كانت تعاني الشدائد والبلايا والعنف والعذاب، لكنها لم تكن توازي عُشر المصائب والمحن التي حلّت بالمسلمين في «بخارى». فقد وصلت الأكاذيب والدعايات والنشاطات المعادية للإسلام وأهله إلى ذروتها، وكان القانون السائد هو الكلام الذي يتكلم به الشيوعيون، وما يرضى به الحزب الشيوعي! فظلمت الحقوق الإنسانية والوطنية تُداس وتُطأ تحت الأقدام. وأما من أظهر علاقته بالدين وصلته بشعائر الإسلام، فكان يعني أنه جرّ على نفسه أشد أنواع العذاب.

كان عدد المدارس الدينية في بخارى ثمانمئة (٨٠٠) مدرسة، لكنها الآن حُرمت من أصوات "قال الله وقال الرسول"! فمنها ما حُوّل إلى إسطبل، ومنها ما اتخذ مستودعًا أو مخزنًا، ومنها ما انقلب إلى ملاهٍ ونوادٍ ليلية، تسمع منها أصوات اللهو والمرح والرقص. وأما المساجد فكانت أكثرها مغلقًا، ويسكن في بعضها أسر يهودية وغير المسلمين من أتباع

(١) إشارة إلى حملة «**هُجُوم** Hujum» السوفيتية التي بدأت في أواخر العشرينيات من القرن العشرين، وهدفت إلى فرض كشف الحجاب عن النساء المسلمات في آسيا الوسطى. **ينظر للمزيد:** Veiled Empire, Douglas Northrop, p. 69-101

الأديان الأخرى!

وقد فشت بين الناس الشبهة والريبة، فكان الرجل يشكّ في صاحبه! والعلماء والأئمة الذين هم قادة المجتمع إما استُشهدوا وإما أُرسلوا إلى المنفى والسجون، وكانت السجون مليئة بالمتدينين من أهل الصلاح. ولم يزل الضعف واليأس مستبدَّين على العوام، فصاروا يفقدون الوعي الديني.

كان المسلمون في وادي «فرغانة» و«سمرقند» يدافعون عن أنفسهم بقدر ما لديهم من الطاقة والوسع، لكن ههنا في أرض تَيمُور[1] أرى الناس قد فقدوا حماستهم الدينية، ونُزعت الغيرة والحميّة من قلوبهم. تألّم قلبي بشدة، وجعلت أفكر كثيرًا هل يلزمني الآن الهجرة من وطني؟

كان ذلك اليوم الثاني من قدومي إلى مدينة «بخارى»، وقد ازددت اضطرابًا وحيرة، فذهبتُ إلى «مسجد مَغاك» الذي بُني تحت الأرض، واختفيتُ فيه، ثم خطر ببالي... لماذا لا أستخير الله تعالى! عسى أن يهديني سبيل الرشاد. فتوضأتُ وصليتُ ركعتَين، ودعوت الله عز وجل ونمت. وعند الفجر، جاء المؤذن أولًا، ثم جاء رجلان فصلّينا نحن الأربعة فقط صلاة الفجر، ثم علمت من كلام هؤلاء المصلّين أنه قامت قيامة في المدينة!

والذي حدث هو أن الشيوعيين تجمهروا في ذلك اليوم مرة ثانية، وأكثروا فيها الإساءة إلى الله عز وجل ورسوله، وتجاوزوا الحدود في السبّ والشتم والطعن في الإسلام، كما سخروا من شعائر الدين واستهزأوا منها، فاستفزّ بعض الشباب من تلك الأفعال

(١) إشارة إلى القائد التركي ومؤسس الدولة التيمورية في بلاد ما وراء النهر تيمور لَنك (ت: ٨٠٧ هـ)، وكانت "شَهرِسبز Shakhrisabz " (أي: المدينة الخضراء) مسقط رأسه.

الشنيعة و قاموا غيرة وحما سًا، وقتلوا ا ثنين أو ثلا ثة من مُنظّري الشيوعية الكبار ثأرًا وانتقامًا. فغضب الشيوعيون وطغاة ا لجيش الأحمر من ردّة فعلهم، وانتشروا في أنحاء المدينة، و بدؤوا بإهلاك الناس عن بكرة أبيهم. حتى جاس ا لجيش خلال البيوت، وأخرجوا أهلها وأطلقوا عليهم الرصاصات. وفي الصباح كانت شوارع وأحياء «بخارى» مليئة بالأشلاء والدم!

(٢)

مكثتُ في «مسجد مَغاك» إلى وقت الضحى، وفي الساعة الحادية عشرة تقريبًا خرجت من المسجد وأتيت إلى «حوض ديوان بيگي»، وكانت في يدي حقيبة صُنعت بحبال غليظة، وكانت فيها أدوات مهنة الإسكافي[١]، فمشيتُ يمنة ويسرة لمدة يسيرة، ثم جلست تحت شجرة متكئًا عليها، ولم يمضِ وقت طويل، حتى جاء شاب من أقراني وسألني دون تكلّف أو تصنّع:

«متى جئتَ إلى هنا؟». حيّرتني هذه البساطة منه، وأمسكتُ على نفسي بدلًا من إجابته، ووجّهت إليه سؤالًا: «منذ متى تُقيم هنا؟».

«منذ شهرين». أجاب الشاب.

أنا: «من أين أنت؟» سألتُه ثانية.

الشاب: «من حي كُلتيپه من محافظة أنديجان».

ثم سألني: «ومن أين أنت؟».

أنا: «من قايقي».

الشاب: «لأي غرض جئتَ إلى هنا؟».

أنا: «بحثًا عن المعاش».

الشاب: «ماذا تعمل؟».

أنا: «إسكافي».

الشاب: «حسنًا. هل أنت خبير في عملك؟».

---

(١) **الإسكافي:** مهنة صناعة الأحذية.

أنا: «في الحقيقة أنا أصنع الخِفاف».

الشاب: «تعال معي نذهب إلى بيتي ونتكلّم هناك. وأنا أريد تصليح خفافي أيضًا».

بدأت أسير معه، وشعرت من حركاته وسكناته بأنه يعرفني من قبل. وعلى سبيل الحيطة كان يمشي قُدّامي بخطوات مسرعة. كانت أحياء وشوارع بخارى ضيّقة، وكانت العمائر الشامخة تمتدّ على جانبيها، وكنا نمشي عبر الممرات الضيقة داخل الأحياء، فلما دخلت في أحدها ونظرتُ إلى الشاب، لم أجده، وكان قد اختفى. وكنت واقفًا على التقاطع ولم أكن أعرف الوِجهة، فقلقتُ غاية القلق، ولم أستطع أيضًا سؤال أحد! فقررتُ الرجوع إلى «حوض ديوان بيگي» ...[1] ووصلتُ إلى هناك عند غروب الشمس، وصارت الشوارع خاوية تمامًا. كنت أفكر في نفسي: أين سأبيت الليلة؟ فإذا بالمصادفة رأيت أمامي الشاب نفسه الذي التقيت به وقت الظهر، وملامح القلق كانت محفورة في وجهه. فلما رآني قدم إليّ مسرعًا وأخذ كيسي ومشى دون أن يتحدث، فمشيتُ خلفه أيضًا. ثم قال لي في الطريق:

«كدتُ أيأس من أن أراك مرة أخرى! لقد طفتُ حول المكان قرابة عشر مرات. ماذا حصل يا تُرى؟».

أنا: «كنت قد ضللت الطريق وذهبت إلى الطرف الآخر من المدينة، وقد عدتُ للتو من هناك».

الشاب: «أين كنت تقصد الآن؟».

---

(١) حكى المؤلف هنا حادثة وقعت له مع شخص غريب الأطوار، ولم يذكر تفاصيلها، وأفاد بأنها غير متعلقة بما هو في صدده من بيان وقائع الهجرة، ولذا حذفناها كاملة.

أنا: «إلى مسجد مغاك».

ظهرت آثار الحزن في وجهه، وبدأت خيوط الأسى والألم على جبهته، فبدأ يقول:

«يا للأسف! إن هؤلاء قتلوا خطيب مسجد مغاك، وقد استُشهد في بيته. كان عالما جريئًا، وكان يواجه الجميع بكلمة الحق. إن التجمّع الذي أقامه الشيوعيون يوم أمس كان مليئًا بالأباطيل والأكاذيب عن الإسلام، وقد تطاولوا على الله ورسوله الكريم عليه الصلاة والسلام، وسخروا من القرآن الكريم ومن يوم القيامة، حتى زعموا أنهم أخرجوا الإله من مدينة «بخارى» (والعياذ بالله). فليس لروحاني الآن أن يأكل أموال العوام، ولا أن يخدعهم، فإن المفاهيم الدينية هي مجرد حيل يستخدمها الروحيانيون، ومن تلك الحيل وصيّة «بهاء الدين»[1] التي قال فيها: «إن الكفار لن يضعوا أقدامهم على هذه الأرض ما بقيت لبنة واحدة في قبري»، ولقد دمّروا قبره قائلين بأننا فضحنا هذه الحيلة! فلم يتمكن ذلك الخطيب أن يتمالك نفسه ويصبر على تلك الافتراءات، فقام مشتعلًا وألقى خطبة، كذّب فيها الشيوعيين في اتهاماتهم، وأثبت بالدلائل أن هذه الوصية التي ذكرها الشيوعيون ونسبوها إلى الشيخ «بهاء الدين» وصيّة كاذبة، وأنها من وضع الشيوعيين، والإسلام بريء تمامًا من أمثال هذه الخرافات والأباطيل. وخلال هذه المدة اليسيرة، وصلت كتيبة من الجيش الأحمر، فانتشر الناس وتفرّقوا، فجاس الجيش خلال بيوت المدينة، وبدلالة من الشيوعيين المحليين أخرجوا العلماء والمتدينين من الناس وأطلقوا عليهم الرصاص، وقتلوا الآلاف من المسلمين، وكان الخطيب من بين هؤلاء الضحايا».

وصلنا إلى منزل الشاب سريعًا، وكان هذا الشاب ترجمانًا لمستشار أفغاني، وكان

(١) **بهاء الدين محمد بن أحمد البخاري** (ت: ٧٩١هـ): أحد المتصوفة المشهورين من بلاد بخارى.

يقيم في مسكنه. كان الشاب عندي في ذلك الوقت كالملك من السماء، فقد صنع لي بطاقة تعريف شخصية، والتي أفادتني فيما بعد كثيرًا. فلما ذهبتُ إلى «كاگان» (بخارى الجديدة)، و«قَرْشي»، و «شَهرْسَبز»، استخدمت هذه البطاقة كتصريح تنقل في القطارات.

قال لي صاحبي: «إن هذا المستشار الأفغاني رجل صالح ومتديّن، وإن له صلة قوية بعالم هندي يقيم في كابل، ويُعد حاليًا من أبرز زعماء حركة الاستقلال في الهند (علمتُ فيما بعد أن هذا العالم الهندي هو الشيخ منصور أنصاري[1])، إلا أن الذين يلتقون به ويتحدثون إليه أكثرهم من أعضاء الحزب الشيوعي أو لهم صلة بالحزب! كما أن له علاقة قوية بكبار العلماء في بخارى وقرشي وشهرِسبز، وقد يذهب إليهم ويزورهم أحيانًا. وفي أثناء ذلك، دخل علينا السيد المستشار بنفسه، وسأل:

«هذا هو ابن أخيك الذي تبحث عنه منذ الصباح؟».

الشاب: «نعم يا أستاذ».

المستشار: «أين يقصد الآن؟».

الشاب: «قدم هنا بالأمس، ويفكّر الآن في ماذا يفعل».

المستشار: «هل يعرف الفارسية؟».

الشاب: «نعم، لقد تعلّم العربية والفارسية».

(١) **محمد منصور أنصاري** (١٨٨٤م- ١٩٤٦م): ناشط سياسي في حركة الاستقلال الهندية، وأحد قادتها النشطين ضد الاستعمار البريطاني. عاش حياة طويلة في المنفى بأفغانستان وتوفي هناك.

فتوجه إلي السيد المستشار مخاطبًا، وأنشد بعض الأبيات العربية والفارسية، وسألني عن معناها ومفهومها، وبحمد الله أنني كنت نجحت في ذلك الامتحان. فجلس السيد المستشار قريبًا مني، وبدأ يقول:

«إن العلماء والمشايخ كانوا قد حرّفوا في الدين وبدّلوه، وقد تبيّنت بالأمس حقيقة عقيدة المسلمين وانكشفت أباطيلهم!».

أنا: «أي عقيدة تقصد؟».

المستشار: «اكتشف الحزب الشيوعي وصية للشيخ بهاء الدين، وكشف النقاب عنها!».

أنا: «لا يا سيدي! لقد قام عالم جليل بالردّ على افتراءات الحزب بخصوص الوصية المزعومة وفنّدها، وبهذه "الجريمة" أطلقوا عليه الرصاص وقتلوه!!».

«حسنًا...حسنًا، هذا ما وقع إذن».

فغيّر السيد المستشار فورا موضوع الحديث وسألني: «أين تريد أن تذهب؟».

أنا: «سأذهب عبر طريق "قَرشي" و"غُزار" إلى "شهرسبز"».

فخاطب المستشار ترجمانه قائلًا: «اكتب مني رسالة إلى الشيخ جلال الدين إيشان أنني أرسلت هذا الطالب إلى حضرته ليتعلّم ويتربى لديه. وسأصنع له شيئًا لدى مفوّض المدينة غدًا».

ثم نظر إلي وقال:

«عليك أن تُعرّف نفسك بأنك من سكّان قرية من قرى بخارى، ولا تقل مطلقًا إنك من فرغانة. ولا تظهر لأحد أبدًا أنك من فرغانة». فلما سألته عن سبب ذلك، قال: «إن

الإفساد والبلبلة التي حدثت بالأمس، والتي واجهها الجيش الأحمر وصارعها، كان فيها شباب أوزبك من مواطني فرغانة وسمرقند».

فقلت له: «أجل يا سيدي! وإن المسلمين في تلك المناطق أعرف بالشيوعيين وأعلم بحِيلهم وظلمهم الشنيع».

ثم لّما قام المستشار وضعتُ يده في يدي وقبَّلتها حسب العادات في تركستان، وقلت: «سيدي الكريم! إن حزب لينين وماركس ليس عدوّنا فحسب، بل هو عدوّ كل مسلم، وانظر إلى تاريخنا الذي مضى وإلى الحال الذي نعيش فيها تجد العبر والعظات، وإنا إن شاء الله لن ندعهم يستقرون في أرضنا». وبعد أن قال لي: في أمان الله! رافقتك السلامة! توجَّه إلى الطابق الأعلى.

كتب لي صديقي رسالة، وذهب إلى السيد المستشار ليوقّع عليها، ثم رجع بعد ساعة كاملة، وكان في يده مكتوب آخر، وقد سجّل فيها تلك الواقعات الدامية في الأيام الماضية، وثّقه السيد المستشار كشاهد عيان. كان صديقي فرحًا جدًا، **فجعل يقول:**

«لقد أفصح الرجل عن آرائه، وصار يحمل نفورًا من الشيوعيين، والحقيقة أنه مسلم صادق غيور، فقد استقر الآن منهج عملنا، وهذا الشيخ الذي كتب إليه لا يقلّ عدد مريديه وسالكيه عن ثلث مواطني أفغانستان، وهو يؤيد أيضا الملك «أمان الله خان[1]»،

---

(١) **الملك أمان الله خان** (١٨٩٢م- ١٩٦٠م): تولى إمارة أفغانستان عام ١٩١٩م، ثم صار ملكًا بعد أن حوّل الإمارة إلى الملكية عام ١٩٢٦م، ثم تنازل عن العرش عام ١٩٢٩م بسبب الحرب الأهلية التي اندلعت بين القبائل الأفغانية، فغادر البلاد. ثم تولى العرش بعده الملك محمد نادر شاه (١٨٨٣م-١٩٣٣م) بعد أن قضى على البغاة، إلى أن اغتيل سنة ١٩٣٣م. وعاش الملك أمان الله بقيّة حياته في سويسرا، وتوفي فيها.

ويحميه[1] ، والعلاقة بين الملك والشيوعية علاقة جيدة جدًا».

مشى صديقي معي بعيدًا ليودّعني، فلما وصلت إلى مسجد مغاك، فوجدت المؤذن فيه، لقد رأيته في اليوم الأول عند صلاة الصبح إلا أنني لم أجد فرصة للتحدّث معه، والتعرّف إليه، فأقبلت إليه وصافحته ثم قدمت إليه (٥) روبلات روسيّة، وقلت له: «هذه هدية مني، تفضّل بقبولها!».

سُرّ بها المؤذن كثيرًا وسألني: «من أنت؟ وما مهنتك؟».

قلتُ: «أنا من سكان شهرِسبز، وأعمل إسكافيًا، وكان من أمنياتي منذ زمن بعيد أن أزور بخارى، فجئت هنا بالأمس، وتعرّضت لضجة وفساد من الشيوعيين».

المـــؤذن: «أوه! إذن أنت أوزبكي، وقاومتَ الشيوعيين!» قالها المؤذن بأسلوب محير.

أنا: «لا يا أخي، عندما وصلتُ إلى هنا، كانت المدينة قد عمّ فيها الفوضى والفساد، فماذا يعني لي هذا كلّه؟» أظهرت براءتي على الفور.

المؤذن: «اسمع يا عزيزي! أنا أيضًا من سكّان شهر سبز. إن الشيوعيين واليهود والأرْمَن قد اجتمعوا بالأمس وأفسدوا وعاثوا في المدينة وأبادوا الناس بالشراكة مع الجيش الأحمر، وفتشوا عن الروحانيين والعلماء وانتقوهم ثم قتلوهم، فلم يمضِ أربع ساعات حتى هجم على المدينة فئة من الأوزبك فجأة، ولا ندري من أين قدموا، ثم غابوا عن المدينة بعد أن قتلوا حوالي ٦٠٠-٧٠٠ شخص من جنود الجيش الأحمر والشيوعيين!».

---

(١) لعل هذه إشارة إلى أنه كان من ضمن حركة «الأمانيّين» (Amanullah Loyalism) التي أُقيمت بوساطة مؤيدي الملك أمان الله خان لتوليـه العرش مجددًا، فحاولوا محاولات عدّة، ولكن باءت كلها بالفشل. ينظر للمزيد: Fire in Afghanistan 1914-1929, Rhea Stewart, (p. 569-577).

حكى المؤذن الحادثة بتفاصيلها، فهاجت عواطفي وثارت من كلماته، وفكرت في نفسي: لا بدّ من الاتصال بهؤلاء الأبطال. فسألته بصوت فيه لطف ورقة:

«سيّدي! هل يمكنني أن أحصل على معلومات مفصلة عن هؤلاء الأوزبك؟».

المؤذن: «لماذا؟ هل لك شغف بهؤلاء؟».

أنا: «سيدي، إن ما حكيت لي من عمليات الشيوعيين الدامية من القتل والإبادة والتعذيب والإهانة، وما قصصتَ لي من ضعف المسلمين وهزيمتهم والشدائد التي يتعرضون لها، فهل يوجد بعد ذلك مسلم لا يغلي دمه إذا سمع هذه الحكايات والواقعات؟ فسؤالي هذا مما تقتضيه الفطرة بدوافع الإيمان».

المؤذن: «أنت من الأوزبك؟».

أنا: «سيّدي الشيخ! هل أنت أيضًا من هؤلاء المجاهدين؟». بدلًا من الرد وجّهتُ إليه سؤالًا! فسكت المؤذن خائفًا وقال بعد مدة: «لقد حان وقت صلاة العشاء، فاجلس في هذا المكان، وسأعود إليك بعد زيارة أسرتي لمدة قصيرة».

أنا: «بل أنا أقضي الليلة هنا في المسجد».

المؤذن: «حسنًا كما تحب!» قالها المؤذن ومضى بدون أن يسلّم عليّ بخطوات مسرعة، لقد رابتني هذه السرعة الغريبة منه.

هذا الرجل لا بدّ أن يكون من رجال الحزب الشيوعي، ولا شكّ أنه ذهب ليخبر الشرطة عني، وقد كانت تصرفاته وكلماته مشبوهة، فرفعتُ أمتعتي مسرعًا وخرجت من المسجد، وسرت إلى حوض ديوان بيگى، وقضيتُ الليلة كيفما اتفق. وفي صباح اليوم التالي اتخذت طريقي إلى كاگان. فما زلتُ أسير حتى مررت بقصر عظيم فاخر، وفوجئت بوجود صديقي الشاب أمامه، وتبيّن لي أن هذا القصر مكتبه الذي يعمل فيه! فقال:

«لقـد ذهبتُ الليلـة الماضية بالطعام إلى مسجد مَغاك، لكني رأيت مجموعة تتراوح بين ثمانية وعشرة جنود من الجيش الأحمر واقفين أمامه، فآثرت الرجوع من بعيد». فقلتُ في نفسي: لقد تأكدت من صحة شكوكي من خلال تصرّفات ذلك المؤذن!

تحدثت مع صديقي بعض الوقت، وأعطاني أيضًا خمسة (٥) روبلات، وبعد ذلك ارتحلت إلى كاگان.

❁❁❁

تقع بلدة «كاگان» على بُعد ٨ أميال من «بخارى». يسير قطار السكة الحديدية ذات المسار الضيّق بين المدينتين، لكنه أوقِف منذ أيام، فاضطررتُ إلى قطع المسافة مشيًا على الأقدام. توجد في «كاگان» محطّة كبيرة، وهي ملتقى طرق للقطارات، وكانت هذه القطارات تتجه إلى اتجاهات عدّة: «طاشكند»، و«فرغانة»، و«تِرْمِذْ»، و«عَشْق آباد» و«موسكو». فلما وصلت إلى المحطة علمت أن قطارًا محليًّا يتّجه إلى «قرشي» في الأسبوع مرّة واحدة فقط، وأما القطارات الأخرى فهي مشغولة في شحن العتاد العسكري ونقل الجيوش!

كان هنالك مطعم للفُرس قريبًا من المحطة، فدخلت فيه وجلست على أحد كراسيه وطلبت الشاي الأخضر. فجاء بالشاي رجل كبير في السن ووضع إبريق الشاي على الطاولة ثم نظر إلي وأخذ يدندن (بالفارسية): «يا ربّ! كل شيء بتقديرك، فاحفظنا جميعًا!»

نظرتُ إلى الرجل المسنّ محدقًا، وقد وضع الشاي ثم مضى، وبعد قليل عاد إليَّ وسألني (بالفارسية):

«يا بدوي! هل تجيد الفارسية؟».

أنا: «قليلًا».

الرجل: «ألستَ من فرغانة؟ ألا أعرفك؟».

أنا: «إن مدينة شهرسبز بما فيها من كثرة الثمار والهواء الطلق وارتفاعها عن سطح الأرض شبيهة بفرغانة، فلعلك تحسبني من فرغانة من أجل هذا السبب؟».

ذهب الرجل المسن وعاد بعد قليل وكان في يده «بُولْكا» (رغيف روسي)، فخرج من فمي دون وعي: «لم أعتد أن آكل خبزهم»، ثم أخرجت من حقيبتي قطعة من الخبز السمرقندي (وكان السيد دامْلا بخاري أعطاني عددًا منه في ميمن قِشْلاق)، فأمعن الرجل المسن النظر في هذه القطعة من الخبز، والتفت يمنة ويسرة، ثم قال بالفارسية بصوتٍ خافت: «يبدو أن هذه القطعة من الخبز بقايا من مائدة المحاربين، أليس كذلك؟».

فتجاهلتُ قائلا: «عذرًا يا سيدي! لا أجيد الفارسية كثيرًا، إنما أعلم بقدر ما يكفيني ويوفي بالغرض!»

فابتسم الرجل المسن وأخذ يقول: «بُني! إن هذه القطعة من مائدة دامْلا بخاري، ألم تأتِ بها من هناك؟».

أنا: «داملا بخاري من هو؟ وما لي ولمائدته؟!».

الرجل: «أقصد دامْلا بخاري الذي يقيم في شمال شرق سمرقند في بلدة ميمن قشلاق، ألم تذهب إليه؟ ألست تذهبُ الآن إلى شهرسبز لدى خالك؟». قالها المسنّ والابتسامة تملأ وجهه. وقعتُ في دهشة وحيرة من أمري! فقلتُ في نفسي: هذا الرجل إما أن يكون جاسوسًا شيوعيًا مكلّفًا بمراقبتي، أو أنّ له صلة بجماعة المجاهدين. أخذ المسن بيده إبريق الشاي وهو يبتسم ومضى، ثم عاد بعد مرور خمس أو ست دقائق، وقال: «إن الحادثة التي وقعت في بخارى لا توصَف، لقد قُتل من المدنيين الأبرياء عدد لا

يُحصى! وإنما هذه البداية، انتظر وانظر إلى ما يؤول إليه الأمر». ثم فاجأني بسؤال:

«هل صلّيت صلاة العشاء».

قلت له: «نعم». فقال: «يغادر الليلة قطار محلي إلى قَرشي في الساعة الثالثة، فاركب فيه».

كان كلامه كلّه بالنسبة إليّ مدهشًا محيّرًا فقد كان مطّلعًا على خطواتي جميعها أثناء السفر، فجعلت أنظر إليه ساكتًا من دون أي رد، ثم مضى الرجل وعاد إليّ بعد نصف ساعة تقريبًا وقدّم إليّ ورقة قائلًا:

«خذ، هذه تذكرة القطار إلى قرشي!». فاطمأن قلبي الآن بأن هذا الرجل المسن على صلة بالمجاهدين الأبطال، فكّرتُ قليلاً ثم خطر ببالي أن ترجمان المستشار الأفغاني الذي التقيته في بخارى كان أيضًا من رجال المجاهدين، ولعلّه كان قد اطّلع على قدومي إلى بخارى، وعرفني بعلامة خاصة بي، كما عرفني هذا الرجل بقطعة من الخبز السمرقندي، فقد كان يحدث معي دون أيّ تكلف وتصنّع عندما التقى بي، وكأنه يعرفني منذ مدة!

ثم استغرقت في التفكير وطاف بي الخيال حتى وصلتُ إلى تلك الجبال التي لم يزل المجاهدون البالسلون يقاتلون فيها الشيوعيين منذ ١١ أو ١٢ عامًا. كان الرجل يراقبني منصتًا، وينظر إلى تقاسيم وجهي واقفًا قريبًا مني. ثم خرجت من عالم الخيال وسألته بجرأة:

«كيف كان حال السيد داملا بخاري؟».

فضحك الرجل وقال: «القارئ الألماسي بخير وسلامة».

ثم هدأ و قال بجدّية تامة: «إن الأوضاع في "قَرْشِي"، و"غُزَار"، و"كِتاب"، و"شَهرِ سبز" لم تزل حسنة إلى الآن، ويوجد في "قرشي" مطعم أحمر[1] بالقرب من المحطة، امكث فيه، فإنك إذا عشتَ بين اللصوص والسارقين نجوت من بطشهم». دفعتُ إليه قيمة التذكرة والشاي فتناولها مني، وقال:

«إن هذه النقود تُجمع في حسابك!»، ثم ذهب بعد أن استودعني الله، و قال: «في أمان الله».

وصلت إلى المحطة في الساعة الثالثة إلا ربعًا، وكانت غرفة الانتظار مملوءة بالمسافرين، وكان أمام شبّاك التذاكر زحام شديد. كانت التذكرة موجودة لديّ، فتقدمت إلى رصيف المحطة، وكان جندي أحمر واقفًا على الباب، فأوقفني صائحًا: «التصريح.. التصريح! وأين أنت مسافرٌ؟» ناولتُه التذكرة بلا مبالاة، وكأنها تصريح رسمي، و سلّمني الله عز و جل، فلم ينظر الجندي إليها ممعنًا، و ظنّ التذكرة تصريحًا، فأذن لي بالدخول إلى الرصيف، حتى وصل القطار في الساعة الثالثة تمامًا، ووقف مدة خمس دقائق. كان الجنود يقفون عند كل باب عربة من عربات القطار حاملين البنادق في أيديهم. كان من المعتاد في بلادنا كتابة رقم العربة على التذكرة، ولكن لم يكن هناك أي رقم في تذكرتي!

ذهبتُ إلى العربات كلّها ولكن لم يؤذن لي بالدخول. وفي تلك الحالة الحرجة بين التردد إلى الأمام والخلف، تحرك القطار وبدأ في السير، وبدأت أبواب العربات تُغلق،

---

(١) مثل المؤسسات «الحمراء» الأخرى كمقهى أو مطعم أحمر (Red Tea House) كانت هذه المقاهي والمطاعم تهدف إلى تعزيز ونشر القيم الاشتراكية الشيوعية في البلاد. وسمّي بذلك لترمز إلى ارتباطها بالثورة الاشتراكية واللون الرمزي للاشتراكيين.

فطلبتُ من أحد الجنود أن يرأف بحالي ويعطف عليّ. فاستجاب له قلبه، وتنحّى قليلًا، وصعدت إلى الأعلى.

ركب في القطار بعدي ستة من اللصوص الروسيين وتعلّقوا بعروة الباب، فلما ازدادت سرعة القطار دخلوا إلى العربة. كان في العربة ثلاث أسرّة، وكان يجلس عليها ثلاثة رجال من الأوزبك، وكانوا من منطقة شرق بخارى، ذوي وجوه وقورة وطوال القامة، وكانت رؤوسهم كالقِرب، وأصابعهم عظيمة مثل كفّي، وعليهم جبّة طويلة، وعلى رؤوسهم عمامة كبيرة ضخمة.

فوجئت بهجوم مفاجئ من هؤلاء اللصوص، فقد حاولوا انتزاع ما لدي من الأمتعة، وأرادوا رميها إلى خارج القطار. فاستغثتُ صارخًا، لكن هؤلاء الأوزبك لم يتحركوا مطلقًا. فما زال الروسيون يضربونني بشدّة وعنف، وصرتُ أصيح ألمًا ووجعًا. وكان الخبثاء كلهم أقوياء، بنيتهم صلبة متماسكة، حتى وكزني أحدهم على عنقي بشدّة، فدار رأسي وأظلمت عيناي وصحتُ قائلًا دون وعي: «أغثني يا ربّ!» فما إن خرج من فمي اسم الباري عز وجلّ حتى جُن الروسيون اللئام وتغيّظوا، وسبّني أحدهم بأمي، وصاح يقول: «الكلب الروحاني!».

ثم بدأوا بالوكز والركل والضرب، وما زالوا يسبّونني ويشتمونني: «على دينك ... على خالقك ... على قرآنك».

دافعتهم مدّة قليلة، لكنهم كانوا ستة رجال وكنت وحيدًا، فأسقطوني على الأرض وأمسكوا بساعدي وساقي، وحاولوا أن يلقوني من النافذة. وفجأة فُتح باب العربة المجاورة وخرج منه مفتش التذاكر حاملًا مصباحه. فلما رأوه أسرع الروسيون العابثون وغادروا العربة، وفرّوا إلى العربة الأخرى من الناحية الأخرى. حكيتُ لمفتّش التذاكر ما

حدث لي، فنقلني إلى العربة المجاورة وأقعدني فيها.

كان كل جزء من بدني يتألم، وقد انتفخ وجهي من الوكز والصفع، سألني الجالسون عما حدث؟ فبينتُ لهم ما حدث لي، ثم علمت منهم أن هذه العمليات الجنائية أصبحت عادة للصوص الروسيين اللئام، فقد شاع في القطارات الغصب والضرب والسرقة. كانوا يغصبون أموال من شاؤوا ويأخذونها ظلمًا، وصاروا يلقون من أرادوا من القطار، فلا عدل هنا ولا إنصاف ولا نصرة!

وبالعكس يجعل المظلوم المستغيث مجرمًا آثمًا! ولم يكن أحد ليقوم فينكر عليهم ويمنعهم من الظلم والعدوان. فكان لا يُسمع إلا لمن هو من أعضاء الحزب الشيوعي أو من كمسمول (اتحاد منظمات الشباب الشيوعي السوفيتي)، فنصحني بعض المسافرين بأن أظهر نفسي واحدًا منهم، أي: من كمسمول! وإلا فسوف يلقون بالتهمة عليّ، فقلتُ: هذا لن يكون مني، لا يمكن أن أتظاهر بهذا.

ثم بعد مدّة قليلة جاء اثنان من شرطة القطار، ومفتش التذاكر، وقد أمسكوا ثلاثة من هؤلاء العابثين السارقين، فجرى البيان والسماع، ثم أطلقوا سراح السارقين بعد أن أثبتوا وقرروا بأني روحاني!

نزلتُ في محطّة «قرْشي» في الصباح الباكر. ولما سرتُ إلى طريق المدينة، التقيت برجلَين من القازاق فصحبتُهما. كان هذان الرجلان من الوطنيين القازاق المستنيرين، ويعني ذلك أنهما من هؤلاء الرجال الذين قاموا بحركة وطنيّة في ولاية قازاقستان[1]، وقاوموا

(١) لعل هذا إشارة إلى حركة «ألَاش أُورْدا» القومية التي ظهرت في أفق تلك المنطقة أوائل القرن العشرين، وانتهت في نهاية العقد الثالث من نفس القرن. يُنظر للمزيد: Historical Dictionary of Kazakhstan, p.24

الشيوعيين فيها لتحرير أنفسهم من سلطة الشـــيوعيين. وكان أحدهما محاميًا كبيرًا ذائع الصيت. فلما سمع قصتي وعلم أحوالي؛ عاملني بلطف و شفقة، وأجلسني معه في المطعم الأحمر في المدينة.

وفي الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم، انعقد تجمّع للقوات الشيوعية في ميدان السكّة الحديدية. في الحقيقة كانت تجري هنالك محاكمة ضد عالم شهير من "قرْشي" في المحكمة العسكرية، وأُعلن عنها مسبقًا في المدينة، وأُمر الناس ليحضروا ويشاهدوا المحاكمة. تراوح عدد العسكر ما بين ٨٠ و ٩٠ جنديًا، فانعقدت جلسة القضاء في ناحية من الميدان، وكان الازدحام شديدًا. ثم أُحضر هذا الرجل الشجاع الناطق بكلمة الحق بين حراسة شديدة، وكان التهمة الموجّهة إليه أنه يمارس الأعمال الروحانية، وينشرها و يدعو إليها، وأنه يردّ على الشيوعية وينقد أفكارها ومبادئها.

«ما ارتكبتُ أي جريمة إلا ما أقوم من الدعوة إلى الدين، وتبليغ أحكامه ورسالته، و هذه مسؤولية شرعية، أوجبها علميّ ديني، ولقد بذلتُ جهدي في إقناع الخصم والمعترضين بدلائل وبراهين، ومهما يكن من الأمر، فإنني لا أزال أؤدي هذا الواجب الشرعي، ولا أمسك عنه طول حياتي». هكذا ردّ شيخ مدينة قَرشي على التُهم.

فقال القاضي العسكري وهو يصيح غضبًا: «إن ما تقوله واجب عليك هو نقض للقانون وخروج على الحكومة الشيوعية! فالممارسات الدينية والفعاليات الروحانية ممنوعة قانونًا».

فقال الشيخ: «إن الدين الحق الذى أرسل الله به رسوله، والكتب السماوية المنزلة من الله، والملائكة والآخرة والقيام أمام الله ليحاسب على الأعمال التي عملها المرء في الدنيا (البعث والنشور)، فهذه العقائد الرصينة يؤمن بها أغلب المواطنين التركستانيين،

والشيوعيون يشكّلون أقل بقليل من نصف الواحد في المئة، وفيهم من يُعد من البغاة أيضًا، فيعاقَبون على جرائمهم ويؤاخذون على "جناياتهم"، كما يزعمون. إن الأغلبية من أهل هذه البلاد لن يتركوا دينهم ولن يدعوه».

لم يدعوه يكمل عبارته حتى أمطروه بوابل من رصاصات بنادقهم، وجعلوا جسده ثقوبًا كالغربال.

رأيت العسكر قد أحاطوا بالناس، ولم يكن في أيدي الناس أي سلاح، لكنهم لما رأوا هذا العالم المجاهد يسبح في دمائه، احمرت أعينهم بالدماء، وضجّ الميدان بالنعرات والتكبيرات، فتحولت أفواه بنادق الجنود نحوهم واحدة تلو الأخرى، وبدأت تمطرهم بالرصاص. وهنا قام عدد من الرجال الشجعان واختطفوا بعض البنادق والرشاشات من أيدي الجنود، فابتدأت معركة بين الطرفين. وبعد مدة يسيرة وصلت كتائب عدّة من الجيش التي كانت مرابطة عند محطة القطار ووسط المدينة ومستودعات السكّة الحديدية، فساد السكوت الرهيب، وعمّ الصمت المرعب بعد ساعة ونصف في المدينة بالكامل. وكنت قد اختفيت في عربة من قطار الشحن، وكان الميدان قد خلا من الناس، فخرجتُ من العربة ووصلتُ إلى المطعم محترزًا مستترًا، وكان صاحباي ينتظرانني في المطعم، قلقين عليّ ويفكران في مصيري، فلما رأياني سرى الفرح والسرور في وجهَيهما.

إنه من الصعب جدًّا إحصاء عدد الشهداء الذين استشهدوا في ذلك اليوم برصاص الجيش. وكانت الأقاويل التي يتناقلها الناس تقول أنهم بلغوا المئات!

أقمنا بقرشي ثلاث ليال، وفي الليلة الرابعة ارتحلنا إلى «شَهرِ سبز»، وكان أحد أصحابي يقول لي: «الأوضاع في شهرسبز طيبة وآمنة إلى الآن! ولكن إلى متى يبقى هذا الأمن؟ لقد سيطروا على قرشي، وستقع الدراما الدموية نفسها هنالك أيضًا!».

لم تنشر الصحف الروسية عن هذه الإبادة الجماعية حرفًا واحدًا على الإطلاق، ورغم ذلك فقد انتشر الخبر المأساوي في الأقطار والنواحي، وأثار عواطف المسلمين، وحركّهم بشدة. وكان الضيق الشديد مستبدًا في قلوب الناس في قرشي. فلما ارتحلتُ إلى «غزار» كان الجيش الأحمر مشغولًا بالحصار على «قرشي».

وصلتُ من «قرشي» إلى «غزار»، ثم منها إلى «شهرسبز»، وهذه مدينة صغيرة جميلة ومحاطة بالأسوار من أطرافها الأربعة، وتبعد عن «قرشي» ٧٢ ميلًا[١]، وتقع البوابة الرئيسة للمدينة على بُعد ٧ أميال[٢] من المحطة، فأقمت بمسجد ملاصق لسُور المدينة. كان المسجد أشبه بنُزل كبير، يجري جدول صغير في صحنه، وكان هناك حمام بجانبه، وحديقة على جانب آخر، وكانت في طرفي الجدول المائي أشجار خضراء ومتنوعة، وبالقرب من الحديقة تو جد قاعة عظيمة تتسع لحوالي ٥٠٠ شخص تقريبًا، و كان بجانبَي المسجد حجرات كثيرة، وبالجملة كان المسجد غاية في الروعة والجمال بما يحتويه من مرافق وخدمات.

ذهبتُ من المحطة إلى المدينة على عربة الحصان. فلما وصلت، سألتُ بائعًا للنّاص (تبغ الغمس) عن عنوان «الشيخ الخوقندي» أي خالي الكريم، فنظر إليّ بتمعن وأطال النظر، ثم دفع أجرة سائق العَربة ورفع أمتعتي وأدخلني الطابق الأعلى من دكانه، وأجلسني عنده ثم أعدّ لي شاي القشدة. التركستانيون يكرمون ضيوفهم الأعزاء بتقديم هذا الشاي، ويُصنع عادة من الحليب والسمن وبعض الفستق والجوز وغيرها، ثم تُلقى

(١) نحو ١١٠ كم.

(٢) نحو ١١ كم.

كمية من أوراق الشاي الأخضر في كوب من الماء المغلي، ثم يقدّم إلى الضيف مع الخبز.

شربت الشاي، فسألني صاحب الدكان:

«أنت من أقرباء الشيخ الخوقندي؟».

أنا: «كيف أدركت ذلك؟».

صاحب الدكان: «من شكلك ومظهرك، ومن سلوكك وتعاملك».

أنا: «الشيخ الخوقندي خالي».

صاحب الدكان: «هل قدِمتَ إلى هنا من قبل؟».

أنا: «لا، لم آت من قبل، ولا رأيتُ خالي قط».

صاحب الدكان: «جئت مباشرة أم توقفت في مكان بالطريق؟».

أنا: «خرجت من داري قبل ثلاثة أشهر، وذهبت إلى خوقند، وسمرقند، وبخارى، وكاگان، ثم مررتُ بقرشي، وغزار، حتى وصلت هنا».

صاحب الدكان: «متى خرجتَ من قرشي؟».

أنا: «مساء الأمس».

صاحب الدكان: «لعلك لم تنم من الليل، فاسترح ولا تخرج حتى أعود إليك».

«يا للمصيبة التي حلّت بي!» قلتها في نفسي، ولعله أحسّ بما في قلبي من الخوف والفزع لما نظر إلى وجهي، فعاد يقول:

«ما زال العسكر الأحمر يتجوّل في المدينة منذ أمس، ولقد فرضوا حراسة شديدة على بوابات قلعة الشيخ الخوقندي، وأنا اسمي تيميربك، خُويدم للشيخ الخوقندي».

أنا: «لكن لماذا تحدث هذه الإجراءات؟».

تيميربك: «لقد وقعت كوارث في بخارى، وأطلق الجيش الأحمر الرصاص على

عالم جليل من قرشي، وهو المفتي خالْمُراد وقتلوه، وأخذوا يفتّشون في كل بيت من بيوت المسلمين، وهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وأعراضهم، ولم يتخلص من سيطرة الجيش وعدوانه إلا من يسكن في الصحراء أو السهول...وللعلم يقيم هنا عالم ومرشد صوفي أفغاني: السيد جلال الدين».

أنا: «هل أنت تعرفه؟».

تيمير بك: «نعم، هو يقيم في غُزار، وله علاقة طيبة بالشيخ الخوقندي، ويزوره عادة في كل أسبوع برفقة ٢٥ إلى٣٠ من مريديه، وهم طوال القامة، عظام الأبدان، ويقيمون لدى الشيخ الخوقندي إلى يومين أو ثلاثة أيام، ويتمتعون بحسن ضيافته وكرمه! لكن ... هو رجل ...» إلى هنا توقف صاحب الدكان وسكت.

سألته: «كيف هذا الرجل؟» فتمعّر وجهه، وكأني سألته سؤالًا مُحرجًا!

تيمير بك: «يا ابن السيد الشريف! أجيب عن سؤالك غدًا، والآن أذهب إلى قلعة الشيخ، فإن وجدت فرصة مواتية أُخبرك لتحضر عنده».

فلما انتهى من كلامه مضى، ونمت على السرير مستويًا. كنت متعبًا جدًا منذ أيام، وكان قلبي مضطربًا وفزعًا، فلما وجدت هذا المكان الهادئ أغلقت عيني ونمت هانئًا.

رجع تيمير بك في المساء، وأيقظني بلطف، وقال:

«لقد وُضع الشيخ الخوقندي تحت الإقامة الجبرية في قلعته، ومن ذلك الحين لم يذهب مسلم إلى عمله لا في المدينة ولا في القرى المجاورة، والحوانيت والمحالّ مغلقة، وأما الجيش الأحمر فهم يتجولون في أنحاء الأسواق كالكلب العقور، وظلموا يطلقون الرصاص في الهواء لبثِّ الرعب والفزع في قلوب الناس. لهذا لا يمكن لك أن تذهب إليه الآن، وقد وجدت مسجدًا كبيرًا ورتّبتُ إقامتك فيه. وإمام المسجد هو أحد زملاء الشيخ الخوقندي،

لكن بقي أمر: لو سألك أحد عن سبب قدومك إلى شهر سبز فقل له: أنا عامل متولّي هذا المسجد، وأقوم على عقاراته وأراضيه في "غزار"، وبقية الأمور فوّضها إليّ». وقد ظهر لي فيما بعد أن تيمير بك من رجال خالي المقرّبين، وهو مكلّف من جانبه ليقوم على أمور المسجد.

في تلك الليلة انعقدت في المسجد جلسة للمشاورة، فقد أصدر الحزب الشيوعي منشورًا مُوجّها إلى كافة القائمين على أمور المساجد الكبيرة في المدينة، وجاء الحكم فيه بأن تسلم المساجد إلى الحزب في التاريخ الفلاني من بعد صلاة المغرب إلى الساعة الثامنة صباحًا، وذلك لإقامة حفلات تخصّ الشيوعيين، وبعد مناقشات طويلة اتفق الجميع على أن ترفع شكوى إلى مفوض الشرطة، كما صوّتوا القرار أيضًا ضد هذا المنشور من الحزب الشيوعي. وبطبيعة الحال لم تقبل أيّ صحيفة محليّة نشر هذا القرار، كما لم يقُم مفوض الشرطة بأي عمل حسب النظام، وإنما قال دون أي مسئولية: «إن الأحكام والمراسيم التي يصدرها الحزب الشيوعي لا يحق لمواطنِ سوفيتي أن يرفضها، كما لا يملك المفوض أن ينقضها».

كان ذلك اليوم الرابع الذي عقد فيه الحزب الشيوعي حفلاته في المساجد الكبيرة في المدينة في وقت واحد، وأُجبر أهالي الأحياء أن يحضروا الحفلات مع أزواجهم وبناتهم المحجّبات! دخلت الشرطة المسلحة بقيادة جندي أحمر وبدأت بتفتيش المنازل بيتًا بيتًا، وأخرجت الرجال والنساء وساقتهم كالقطيع إلى الحفلات. وكان رجلان من الشيوعيين واقفَين على بوابة المساجد، أحدهما على اليمين والآخر على اليسار، أتيا من خارج المدينة. كانا ينزعان البرقع والرداء والجلباب من وجوه النساء وأجسادهن، ويلقيانها في صحن المسجد، فصارت كومة عظيمة، وفي الساعة العاشرة مساءً أوقدوا النار فيها

أمام مشهد الجميع.

ثم بدأت الخطب واحدة تلو الأخرى، يتحدثون فيها ضد الحجاب والجلباب، ويلقون خطبًا نارية بحجج فارغة. ثم قدموا يهوديًا باشكيريًّا بالألفاظ التالية:

«هذا السيد من أعضاء الحزب الشيوعي العظيم في باشقوردستان[1]، وقد زار قرشي قبل أسبوع ثم تشرّف بزيارة شهرسبز!».

فأخذ هذا اليهودي يقول أثناء خطابه:

«إن الحجاب سمة ظلم الرجال على النساء، والآن تحررت النساء، ويحق لهن أن يعملن في المكاتب، ولقد أدرك هذه الحقيقة أهل فرغانة، فأصبحت نساؤهم يتمتّعن بنعمة الحرية وسعادتها، ولقد زالت صعوبات النكاح والطلاق ومشكلاتها، فظل النساء يعشن في أمن وطمأنينة وسعادة، بعيدات عن سيطرة الرجال وعدوانهم وظلمهم. آه.. لو وجد هنا رجل اطّلع على أحوال فرغانة أو سمرقند أو بخارى لصدّقني فيما بينته. إن مفاهيم الدين، والرب، والرسول، والقرآن، والقيامة، والحساب، والملائكة، والجنة والنار، كلها حيل ودجل وافتراءات، اخترعها الروحانيون وأعانهم الإقطاعيون والرأسماليون. لقد كشف القائد لينين وستالين هذه الأكاذيب وأزالَا النقاب عن هذا المكر والخداع، وإن الحزب قد عقد هذه الجلسة لإبلاغ رسالته إليكم ولإرشادكم إلى طريق السعادة والمنهج الصواب».

كان هذا الهذيان أمرًا لا يُطاق، لكن شيوعيًا آخر قام فتجاوز الحدود كلّها، فلما

(١) **باشكيريا** ويقال لها قديما **"باشقُردِستان"**: أكبر جمهورية إسلامية ذات حكم ذاتي ضمن الروسيا الفيدرالية الآن، وسكانها الباشكيريون يُعدّون من شعوب تركيّة وأكثرهم مسلمون.

صعد المنبر نسي كلّ شيء، فقال ما شاءت نفسه، وفي أثناء كلامه بصق على المنبر وألقى فيه من نخامته، ثم وقع نظره على مصحف شريف في أحد الرفوف، فوثب وثبة القردة، وأخذ المصحف الشريف وعبث به، ثم ذهب به إلى صحن المسجد وألقاه في رماد الحجب والأغطية الملتهبة، وصاح بكل قوته قائلًا:

«إننا شيوعيو شهرسبز، نأخذ العهد على أننا لن نترك الخرافيين، ولن ندعهم يعيشون رغدًا في مساجدهم وزواياهم، وكما قبضنا على مراكز الروحانيين في بخارى وسمرقند وفرغانة حتى قام أهل تلك الديار وعارضوا الروحانيين، كذلك سنفعل في شهرسبز».

عجزتُ أن أتمالك نفسي، فهممت بالقيام لأردّ على هذيان هذا الرجل، فسبقني إليه تيمير بك فقال:

«أنتم أبناء يهود، وهذا الحي والمسجد للمسلمين، وتتواجد في هذه المدينة ستة من معابدكم، فقوموا وأحرقوها أولًا حتى يتبيّن أنكم شيوعيون صادقون. أنتم تقولون: لقد رضي أهل فرغانة وبخارى وغيرها بالشيوعية وقبلها علماؤهم وعامتهم، إنكم كاذبون ويشهد عليكم هذا الشاب». وأشار إليّ تيمير بك، فقمتُ وقلتُ بصوت مرتفع:

«إن ما قاله الباشكيريّ لا تصح منه كلمة واحدة، لقد قام العلماء في فرغانة وغيرها وأجابوا على دعاوى الشيوعيين، واحتجّوا عليهم وتحدّوهم»، فما إن انتهيتُ من كلامي حتى هجم أهل شهرسبز المسلمون الغيارى على الشيوعيين. وعلى الفور وصلت ميليشيا الجيش الأحمر وأعلنوا اختتام الجلسة، وأمروا: «ليرجع كل واحد إلى بيته».

كنا مستغربين من هذه الأوامر! كيف يأذن الجيش الأحمر بالرجوع إلى البيوت دون أن تسيل الدماء وتُزهق الأرواح؟ والواقع أن الشيوعيين عبثوا وفعلوا ما فعلوا في مسجدنا، فاشتعل المسلمون غضبًا وحميّة، فحدث في بعض المساجد جدال شديد

وصراع بينهم وبين الشيوعيين، ولما وصل العسكر الأحمر لمساعدتهم، انتزع المسلمون أسلحتهم من أيديهم فهرب العسكر هنا وهناك، عاجزين فاشلين، ولم يلبّوا دعوة الشيوعيين في مسجدنا.

وفي الساعة الثانية عشرة نهارًا، عاد الجيش الأحمر إلى معسكراتهم. وقد زالت المراقبة الشديدة على القلعة، وكان ذلك أمرًا لم يتوقّعه أحد، والحقيقة أن الحكومة الشيوعية أرادت أن تجرب وتطّلع على مدى إلمام أهل «شهرِ سبز» بالواقع المحيط بهم من باب جس النبض، فهل لديهم رؤية نفقية أم إنهم يطلعون على مجريات الأمور في البلاد؟ كما أرادت أن تعثر على شعورهم وأحاسيسهم تجاه دينهم وثقافتهم، هل يدافعون بشدة وقوة عنها أم لا؟ كذلك أرادت أن تعرف ما مركز المرجعية لعامة المسلمين في الحب والولاء؟ وما الجوانب الضعيفة التي يمكن استغلالها في المسلمين وعلمائهم؟

ولم تزل الشيوعية تُجري مثل هذه التجارب في المناطق كلّها، واحدة تلو الأخرى، وكانت تختار رجالًا غير مشهورين وقليلي الأهمية والتأثير في الحزب، فإذا اشتعل الناس سخطًا لهذه العملية وكانت ردّة فعلهم قوية، أعلنت الحكومة أن هذه الواقعة لا علاقة لها بالحكومة الشيوعية في شيء، وليست هذه سوى تصرفات شخصية فعلها عدد من الرجال العشوائيين. كما أن الحكومة كانت تعدم شنقًا رجلًا أو رجلين بعد أن تثبت أنهما أعداء العامة من الناس، كي يطمئنوا على الحكومة وأفعالها بأنها تراعي النظام، وتسير وفق القوانين، وبأنها تصنع برامج ومناهج أكثر نجاحًا وعدالة!

فلما رجع الجيوش إلى معسكراتهم، عاد السكون إلى المدينة وانتشرت الطمأنينة في قلوب الناس، تكلمتُ مع تيمير بك بانبساط وتوسّع، فعلمت بأنه يعمل بصفة مستشار سياسي لخالي، وكان قد سافر إلى «بخارى»، و«سمرقند»، و«طاشكند» مرات عدّة. فلما

تطرق الحديث إلى ما حدث في الليلة الماضية، قال: «سيقوم هؤلاء الأعداء بعملية أخرى واعتداء جديد».

ثم ذهب إلى خالي الشيخ الخوقندي ليطّلع على أحواله وماذا حدث له، ولما رجع إلي كان وجهه يتهلل فرحًا، وأخذ يقول: «بناء على شكوى من عدد من الشباب اليهود الشيوعيين، قام الجيش الأحمر بتفتيش منزل الشيخ الخوقندي، فقد قدّم هؤلاء اليهود شكوى إلى الجيش بأن هذا الشيخ يظلم العامة من الناس، ويثيرهم ضد الفِرقة (الحزب الشيوعي)، وكان كلّ ما وجدوه بعد التفتيش في غرفة الشيخ عبارة عن ثوبين قديمين، وحذاء، وجلد كبش مدبوغ، ولحاف كبير، وإناء شاي طيني، وغلّاية شاي نحاسية، فهذه كانت كلّ الأثاث الذي يمتلكه الشيخ في بيته!».

ثم وجدوا في دار الضيافة سجلًا، كُتب فيه الإيرادات والمصاريف: كم مبلغًا دخل عليه؟ ومن أين؟ ومن جاء به؟ ومن استلمه؟ وأين أنفقه؟ وما إلى ذلك. فأصبح الضابط مدهوشًا بعد أن حسبها درهمًا درهمًا، ثم رجع مع فريقه من حيث أتى دون أي اعتراض ولا قيل وقال.

وبعد أسبوع جاء إعلان من مفوّض الشرطة، فكان رجل يضرب على الطبل ويعلن قائلًا:

«لقد قام بعض أعضاء الحزب الشيوعي بتصرفات من عند أنفسهم، وغير قانونية، والحكومة لا علاقة لها بشيء منها! وقد قامت الحكومة بعقاب هؤلاء الرجال، وإن الحكومة لا تريد أن تتدخل في الشؤون الدينية والقضايا الشرعية، نعم، إذا أحبّ رجل أن ينضمّ إلى الحزب الشيوعي وأن يكون عضوًا فيه، فإنها تنقذه وتخلّصه بكل تأكيد من أيدي سيطرة العلماء والمرشدين المتعصبين».

ثم تبيّن أنه قد نُشر هذا الإعلان في تلك المواطن التي قام فيها الشيوعيون بالإساءة إلى الإسلام وأهله وعقائدهم وشعائرهم، مثلما حدث في شهرِسبز.

۞۞۞

قدّمني تيمير بك إلى خالي الكريم، فضمّني إلى صدره، وكان قد ناهز الثمانين من عمره، لكنه رغم ذلك يتمتع بصحة طيبّة وعافية، وكان أبيض مشربًا بحمرة، أبيض الشعر واللحية، ذا وجه وقور، وتعلوه هيبة، فسألني قائلًا: كيف حال أمك؟ ومع من تركتها؟

أنا: «لما فارقتها قبل ثلاثة أشهر كانت على قيد الحياة، إلا أن حقوقها كانت قد سُلبت فحُرمت منها».

خالي: «الحرمان من الحقوق وإسقاطها! ماذا تعني؟».

أنا: «الإنسان الذي يؤمن بالله، ورسوله، والجنة والنار، واليوم الآخر، والكتب السماوية والملائكة، يُعلن فيه بأنه روحاني، ثم تُسقط على إثرها حقوقه المدنيّة».

خالي: «هذا عقاب من الله عز وجل على كفراننا بالنعم الإلهية وآلائه العظيمة!» قاله الخال الكريم ثم سكت. وبعد برهة من الزمن قال لتيمير بك: «استدع الحاج قوقندي».

كان اسم «الحاج قوقندي»: «يُولْداش». وكان رجلًا خبيرًا، وصاحب تجارب كثيرة، وكان قد سافر إلى «البلاد العربية»، و«تركيا»، و«إيران»، و«أفغانستان»، و«الهند»، كما زار «أوروبا»، وإلى جانب ذلك كان من رفقاء الزعيم «أنور باشا»[1] المقرّبين، وكان يعمل

(١) **إسماعيل أنور باشا** (١٨٨١م-١٩٢٢م): ضابط عسكري عثماني، ومن الشخصيات المثيرة للجدل في الدولة =/=

قيّمًا على بساتين خالي آنذاك، ومراقبًا على أراضيه، فلما قدم «حاج قوقندي» قال له خالي الكريم:

«اذهب إلى السيد جلال الدين، وائتِ به فورًا».

فمضى الحاج ورجع بعد قليل، وأخبر بأن «السيد جلال الدين» سافر إلى مدينة «لنكرآته»، وسيعود غدًا أو بعد غدٍ.

كان «الحاج قوقندي» قد رجع ذلك اليوم من «قرشي»، فحكى ما حدث فيها، وما حلّ بالمسلمين من العذاب والقتل والإبادة، وظهر من بيانه أن العالم الكبير الذي استُشهد على يد الشيوعيين بالرصاص، كان هو المفتي المشهور في بخارى الشيخ «خالمراد»، والخطيب في مسجد مغاك كان من تلاميذه.

وفي اليوم التالي قدِم «السيد جلال الدين» فقال له خالي الكريم: «يا سيدي! لقد كنت تقول: إن الشيوعيين لا يقصدون إلا إعانة الفقراء ومواساة المساكين ولا يهدفون إلا إلى ترويج التعليم وتعميمه، وتحديد مبلغ الإيرادات وتخلية الأراضي التي لا يحتاج إليها المرء، والحفاظ على حقوق المرأة، وما إلى ذلك! وإن الشيوعيين يدافعون عن الأقوام المستضعفة كلّها ويقفون ثابتين إلى جانب كلّ الشعوب المضطهدة!».

فقال السيد الأفغاني:

«نعم يا سيدي! لقد حصحص الحق، وانكشف الستار عن الشيوعيين، وظهر الآن

العثمانية. انضم عام١٩٢١م مع الجبهة العسكرية في تركستان لتحريرها، ثم صار قائدًا لها، ووقعت اشتباكات عدّة بينه وبين الشيوعيين إلى أن استُشهد ببلدة بَلاجوان، ببخارى عام ١٩٢٢م. ينظر للمزيد: «سيرة ذاتية» لشَكيب أرسلان (صـ١٧٣ وما بعدها).

أن تلك الدعاوي وتصريحاتهم لم تكن إلا مكرًا ودجلًا، ولقد شاهدتُ في «غزار» بعينيّ ما شاهده نفسه الحاج خوقندي في قرشي».

وفي ذلك الوقت قدّمتُ إليه تقرير ذلك المستشار الأفغاني الذي أرسله إلى هذا الشيخ الأفغاني، فقرأه، ولما انتهى من قراءته، قال:

«لقد شاهدنا بأنفسنا في غُزار، فوضحت لدينا صورة البلاد بأكملها».

(٣)

غادر الشيخ «جلال الدين الأفغاني» في حالة الاضطراب والتحيّر، و قال لخالي قبل المغادرة: «أريد أن أذهب إلى بخارى، وسأقيم بها مدّة، وسألتقي بكم إن بقيت حيًّا!».

ثم عاد بعد شهر ونصف تقريبًا، وخلال هذه المدة قام برحلة طويلة ليشاهد الأو ضاع الحالية في أطراف البلاد، ويبصر ما جرى لها بنفسه، فسافر من «شهر سبز» إلى «كِتاب»، ثم ذهب إلى المناطق الجبلية وتجوّل فيها حتى بلغ «دَرْواز» الواقعة في منبع «نهر آمو»[1]، ثم ارتحل منها إلى «حِصار» فـ«بايسون» فـ«لنگراته» فـ«غُزار» إلى أن و صل إلى «قر شي». وكلما مرّ بمنطقة سمع من أهلها حكايات وقصصًا جديدة عن المشكلات والمصائب ا لتي نزلت بهم، فعلم ما حلّ بهم من أنواع التعذيب وأشكال المظالم التي مار سها الشيوعيون في بلادهم.

ثم قصد من قرشي إلى بخارى، لكن الحكومة الشيوعية لم تأذن له بدخولها! فأر سل إلى أحد ممن يعتمد عليه في بخارى، فجاءه وقصّ عليه من أخبار ها وأ حداثها. ولقد فتح هذا الترحال والتجوّل عيني السيد الأفغاني، فإن الشيوعيين بذلوا ج هودًا ليقنعوه بأن الشيوعية أو الاشتراكية ليست إلا نظامًا اقتصاديًا، وليس لها أي عداء للإسلام، فإنها إ نما تهدف إلى إنقاذ خلق الله من الأو ضاع السيئة الرائجة في النظام الاقتصادي، وإلى محو الرأسمالية. فاغترّ السيد جلال ا لدين بافتراءاتهم وحيلهم ودجلهم. و لما كان تلاميذه يسألونه عن الاشتراكية فكان يجيبهم بأنها نظام اقتصادي يهدف إلى تحقيق المساواة والعدالة

(١) **نهر آمو** (AMU DARYA): من أكبر أنهار آسيا الوسطى، وهو الذي يسمى بالعربية وفي ا لتراث الإ سلامي: "نهر جيحون".

الاجتماعية، وليس له علاقة بالدين. فلما شاهد بنفسه مصير الإسلام والمسلمين وعاقبتهم تحت السيطرة الشيوعية، وكيف عامل الشيوعيون الدين وشعائره وتعاليمه وأهله، وأدرك حقيقة النظرية الماركسية وموقفها من الإله والدين التي تعدّ أن الدين أفيون الشعوب، وأن المتدينين رجعيون متخلفون يجب القضاء عليهم، اشتعل غضبًا وحزنًا، وتغيّظ من دهاء الشيوعية ودجلها ومكرها، وتبين له أن «ليس كل ما يلمع ذهبًا!».

قلق الشيخ الأفغاني على وطنه أفغانستان وأهلها، وقرر الرجوع هناك لكي يخبرهم عن حقيقة الشيوعية، فقدم إلى خالي العزيز وحكى له ما رأى بعينيه وما سمع من الناس في أثناء رحلته الطويلة بالتفصيل عن مآسي المسلمين وضعفهم وذلهم وهزيمتهم في أنحاء البلاد، وقال بصوت خيّم عليه الحزن: «سيدي الشيخ! لقد فرضت الهجرة علينا! فتهيأ للسفر وامضِ معي. يا سيدي! كنتَ وما زلتَ تتلطف معي وتكرمني إلى يومنا هذا، فمن اليوم أكون خادمك».

ظلّ خالي العزيز ينصت إلى السيد الأفغاني ويستمع إليه، ولما انتهى من حديثه قال: «لقد عزم علماء تركستان وعِلية القوم على عدم الهجرة، والبقاء مع عوامهم، وعدم تركهم وحيدين حتى آخر لحظة من حياتهم».

أخذ السيد الأفغاني يد الخال الكريم، ووضعها في يده، وجعل يقول وهو يبكي: «الآن أجعل حياتي وقفًا، وأبذلها في إنذار بلاد المسلمين وتوعيتهم عن هذه الفتنة الهدّامة، وسلام الله عليكم».

ارتحل الشيخ الأفغاني، فعمّ في الأرجاء الحزن والغم والأسى!

خلال هذه المدّة كنتُ أقيم في شهر سبز لدى «تيمير بك»، وعادت الأوضاع في ظاهرها طيّبة حسنة، وكان الناس قد عادوا للاشتغال بأعمالهم، وقد زالت من أذهانهم

تلك الأحداث الدامية التي وقعت قبل شهرين ونصف تقريبًا، فصار يبدو على الناس أن تلك الإجراءات المعادية للإسلام وأهله لم تكن إلا حادثة مفاجئة واتفاقية محضة، ولم تكن مخططة لها من قبل، كما لم تكن وراءها أيدٍ للحكومة.

فقامت الحكومة الشيوعية من جديد لتخدع المسلمين، ففرضت على بعض البلطجيين عقوبات شديدة، بعد أن أعلنت بأنهم مجرمون، كما أعدموا عددًا منهم شنقًا، فاغترّ بها البسطاء من الناس، فصاروا يعدّون الحكومة الشيوعية بريئة من الجرائم، وأخذوا يتناقلون: إنما كانت تلك الحادثة تصرفات من بعض اللئام والعابثين من الناس، فلو كانت وراءها يد الحكومة لم تكن لتعاقب هؤلاء المجرمين.

ثم اتخذت الحكومة حيلة وخطة جديدة لتجعل العوام يثقون بها، فقد شكّلت في أحياء المدينة كلّها لجانًا، وأسمتها بالعربية «أصحاب العدل»، أي: رجال يحبّون تطبيق العدل والإنصاف في المجتمع. وكانت أفعالهم في ظاهرها حسنة جدًا، فكانوا يدفعون الجدال والخصومات بين أهل الحي ويصلحون ذات البين، وبهذه الطريقة أخذوا يوهمون العوام البسطاء غير الفطنين بأن هؤلاء الأعضاء يحبون الخير والعدل، وأنهم رجال صالحـــون، ويبغضون الظلم والفتنة والإفساد، وأنهم يريدون الأمن والسلام. كانت غاية الشيوعيين الحقيقية كسب مزيد من ثقة أهالي الأحياء، وإقناعهم بأفكار الشيوعية، وتهيئة الميدان لبث سيطرة الشيوعية. عادةً ما كان أعضاء هذه اللجان يتكونون من البلطجية المشهورين والشباب العاقّين لوالديهم، وكان الحزب الشيوعي يعيّن عضوًا في كلّ لجنة ليشرف على أنشطتها ويرسل تقارير منتظمة إلى الحزب والشرطة. وعلى الرغم من أن هيكل هذه اللجان كان يكشف عن حقيقتها، إلا أن هناك بعض الأشخاص البسطاء الذين خدعهم الوضع. فقد انخدعوا بأعمال الوساطة بين الناس، وحسبوه أمرًا حسنًا، لكنهم لم يلبثوا زمنًا حتى انكشف النقاب وظهرت معالم الحقيقة، وزال الظنّ الحسن فيهم، فأصبحوا

يجتنبونهم، ويبتعدون عنهم وعن إدخالهم في قضاياهم. ووفق الأحكام الصادرة من الحزب الشيوعي قسّمت كل لجنة أهل الأحياء إلى فِرق مختلفة بناءً على تقاليدهم وتفكيرهم وعقلياتهم وعقائدهم، ثم حُددت من الرجال والنساء من يعمل في صالح الحكومة ومن سيكون حاجزًا ومانعًا دونها، وعيّنت من يتنازل ويخضع أمام القوة والمال أو بالترغيب والترهيب، ومن لم يستسلم قط ولن يخضع للحكومة!

وكذلك اطّلع الشيوعيون على طبيعة علاقات الناس فيما بينهم، واطلعوا على أصدقائهم وأعدائهم، وهكذا عثروا على صديق أو عدو كل فرد، واتخذوا حيلًا وتدابير ليفرقوا بين الناس، وبثّوا فيهم تفرقة كبيرة لاستعمال بعضهم ضد بعض.

وكان من واجبات أصحاب العدل الأساسية مراقبة العلماء، وتوفير المعلومات الكافية والمطلوبة للشرطة والحزب الشيوعي، فقد اجتهد أصحاب العدل وقاموا بواجباتهم خير قيام! وسرعان ما اجتمع في مكتب الشرطة والحزب الشيوعي المعلومات الكاملة عن كل فرد في المدينة. فجعلوا لكل شخص ملفًا خاصًا به، كان يسجّل فيه اسمه وأسرته ونسبه وأسماء أقربائه، ومهنته وتعليمه ودراسته، وتفكيره واتجاهاته حتى مزاجه وطباعه، وما يحب وما يكره! وكذلك تحفظ فيه مراحل حياته المختلفة.

هكذا ظلت نتائج العمليات التي ينفّذها أصحاب العدل تظهر، وتبدو آثارها أمام الناس. وكان ينضم إلى الشيوعية صنفان من الناس: صنفٌ هم الفاسدون والعابثون والجهلاء الذين لا يبالون بشيء، وهمهم الوحيد التمكّن من السيطرة على الناس وإدخال الرعب فيهم. وصنف آخر: متعالمون يقال عنهم "رجال دين وتصوف"، كانت معرفتهم قليلة، وإدراكهم محدود، وفهمهم سطحي، وفعالياتهم وأنشطتهم ضعيفة وضئيلة جدًا. وقال لينين مرة: "ادخلوا في الشرق من بوّابة الدين". فكانوا يعملون هنا حسب إرشاداته

حرفيًا ؛ لأن الشيوعيين تمكّنوا من السيطرة على عدد من رجال دين، وزهّاد ومتصوفة، وأدخلوهم في الشيوعية واستخدموهم لصالحهم، كانوا في زيّهم مؤمنين صادقين قانتين، وفي وجوههم اللحى الكثة الطويلة، وفي جبهاتهم آثار السجود ظاهرة، فجعل هؤلاء الناس يستدلون على الشيوعية والاشتراكية من القرآن الكريم والسنة المطهرة، ويحتجون بحياة الصحابة، وفي جانب آخر كانوا يصنفون العلماء الربانيين المخالفين للشيوعية بأنهم عملاء الطبقة الرأسمالية والإقطاعيون!

نتيجة لذلك ؛ فقد انتشرت الفُرقة والتشاحن في تلك المناطق والمجتمعات التي كانت مصونة بسبب جهود علمائها الربّانيين، وانقسم فيها العوام من المسلمين إلى فريقَين. وتعرضت مقاومة المسلمين للهجمات الشيوعية على حياتهم الدينية والثقافية لضرر بالغ.

لقد اطلعــــتُ على حقيقــة هذه اللجان وأغراضها وغاياتها من إمام المسجد في قريــة «يعقوب چرخي» التي تقع على بُعد ١٦ ميلًا من شهرسبز تقريبًا، وأهل هذه القرية ينتسبون إلى قبيلة «كِنَاكَاس» الأوزبكية.

في تلك الأيام كنّا نحن أربعة طلاب نتجوّل ونطوف بين القرى والمناطق حول شهرسبز، فلما بلغنا قرية «يعقوب چَرْخِي» كان إمام المسجد هناك مسافرًا لحضور حفلة زواج، ورجع في منتصف الليل، فالتقى بنا بودّ وحرارة ورغبة شديدة. ولما علم أنني من أقرباء «الشيخ الخوقندي» ازداد محبته وإجلالا له، ثم حكى لنا بالتفصيل مآسيه وشدائده التي لحقته، وكان يقول:

«نحن الآن نبكي على الأوضاع دمًا لا دمعًا! أنا إمام لأربعة مساجد غير هذا».

«كيف يكون ذلك؟» لم أستطع الانتظار فسألتُه.

الإمام: «وذلك أن الناس لا يصلّون الآن، لكن يُطلب الإمام عند عقد النكاح أو

لصلاة الجنازة وغيرها من الأمور. كان أئمة المساجد في الماضي يحصلون من حصاد المزارعين على ما يكفيهم من المؤونة، لكن منذ ٤-٥ سنوات، قلّص الشيوعيون مخصصاتهم إلى حدٍّ أن إيرادات خمسة مساجد مجتمعة لا تسدّ الاحتياجات الأساسية، فصارت الحياة صعبة بين فقر وبؤس وحاجة!» هكذا شرح الإمام الأمر.

كان قد انقضى من الليل نصفه، وساد الجوّ من سكون وهدوء، وكان زملائي الثلاثة من سكّان الصحراء، وكانت دنياهم تقتصر على شهر سبز ولا تتجاوزها، ولم يروا في حياتهم صحيفة قط! ولم تكن لديهم أي رغبة في نقاش الأوضاع الحالية والأحداث السياسية المتتالية، كما لم يشاركوا في أي من مجالسها قط، فكان حديثنا ونقاشنا مملًّا لهم وفوق استيعابهم، فمالوا إلى النوم.

قال لي الإمام: «تعالَ نجلس في صحن المسجد ونتحدث كي لا نزعج أصحابك في أثناء نومهم».

جلسنا في صحن المسجد، وجرى الحديث التالي مع الإمام:

«قبل شهرين أو شهر ونصف، كوّنت الحكومة في المدن والقرى لجانًا في كلّ حي، وقد شكّلت لجنة في قريتنا هنا أيضًا، ولا علم لي بالمدن الأخرى، لكن اللجنة في قريتنا انضم إليها كل العابثين والسفهاء والمشاغبين المفسدين، لا يوجد بينهم رجل عاقل، ولا يعرف أحدهم القراءة والكتابة، هؤلاء يأتونني ويستكتبوني تقاريرهم جميعها التي يرسلونها إلى مركز الحزب الشيوعي رغم أني لستُ من أعضاء اللجنة! وقد هدّدوني بأن لا تخرج كلمة من التقارير إلى الناس، وإلا سأتجرع عقابهم الأليم».

أنا: «ماذا يعطونك؟».

الإمام: «لا شيء! سوى الأمان الشفوي بأنه لن يلحق بي من الحكومة أي عقاب

وأذى، ولن يسجّل اسمي في قائمة الروحانيين». كان الإمام رجلًا فطنًا ومتيقّظًا. فمضى يقول مِن عنده:

«لقد أدخلوا في الدين أمورًا جديدة، وأضافوا إلى الشريعة أشياء غريبة ما أنزل الله بها من سلطان، والحكومة تحتفظ وتحمي هذه الأمور المحدثة، فلو أنكر رجل وأراد أن يمنع أو ينهى عنها، تعتبره الحكومة مجرمًا وتتهمه بأنه يريد أن يقيّد أذهان الناس وأفكارهم، ويسلب حرياتهم فيها، فهو المشاغب والمفسد!».

ثم ذكر مثالًا على ذلك: «إن الطواف بالقبور لم يكن أمرًا مألوفًا في ديارنا قط، لكن الآن صار يفعله الناس علنًا صباح مساء. كيف ابتدع هذا الأمر؟ اسمع مني: رأى أحد سكان القرية في المنام أن مرشده المتوفى يأمره قائلًا: طف بقبري! فبدأ يطوف بقبره، ثم جعل شخصًا آخر سادنًا للقبر، وأجبر الناس أيضًا على الطواف حول القبر، وهكذا انتشرت هذه البدعة في الناس، ومن كان ذلك الرجل يا تُرى؟ كان هذا الرجل رئيس الأشرار ورأس المفسدين، وكان عنصرًا ناشطًا فعّالًا في لجنة أصحاب العدل!

زَفَر الإمام زفرة، وعاد يقول:

«مضى على تشكيل هذه اللجان شهران تقريبًا في الأكثر، لكن في هذه المدة القصيرة أُعدت كثير من السجلات الضخمة، وأُرسلت إلى مراكز الشرطة والحزب، ذُكرت فيها أحوال الناس فردًا فردًا، وعُرّف فيها بالعلماء والمتدينين من المسلمين وكل من يلتقي بهم في صورة أكمل وأوسع، إضافة إلى ذلك، ذُكر مع العلماء أسماء مخالفيهم ومعاندهم، وكيف يمكن استغلالهم لتحقيق أهداف الشيوعيين.

في ذلك الوقت سألتُ إمام المسجد عن خالي الكريم، فقال: «أما هو وأمثاله من العلماء الكبار فيسجّل عنهم: الاسم، واسم الأب، ومكان المولد، والعنوان التفصيلي،

والمهنة فقط! وأصدر الحكم إلى اللجان في الأحياء بأن تراقب فعالياتهم وحركاتهم وسكناتهم. يعتبرا لحزب الشيوعي خالك العزيز روحانيًا متصلبًا، وأرسل الحكم إلى اللجان جميعها بالمراقبة على من يزوره ويتواصل معه». ثم حدّثته بما جرى في فرغانة وسمرقند وبخارى وقرشي وغيرها من المدن، وحكيتُ له ذلك مفصلًا، وأخبرتُه بأن الشيخ الأفغاني في تيقّظ وانتباه من الشيوعيين ودهائهم، وقد ذهب الآن إلى أفغانستان، فقال الإمام متحيّرًا:

«إنه أمر مدهش جدًا، ويبدو لي ذلك أعجوبة. كان الشيخ الأفغاني يدّعي بأنه ابن المُرشد لملك أمان الله خان[1]! وإلى جانب آخر لم يكن مؤيدًا وحاميًا للشيوعية فحسب، بل كان يقول: إن نظام الاشتراكية كفيل بإسعاد البشرية كلّها، وسيصبح الإنسان وهو في هذه الدنيا كأنه في الجنّة!». وفي اليوم التالي ودّعنا الإمام بكل احترام وتقدير.

وفي تلك المدة أدّت الحكومة الشيوعية دورًا آخر، واتخذت خطة جديدة لزرع الفرقة والنفرة بين العلماء، وإثارة الجدل، وصرفِ اهتمامهم عن الأوضاع والقضايا السياسية الوطنية. فالمتعالمون الذين فقدوا الوعي واستسلموا للشيوعية وانقادوا إليها دورًا أساسيًا، أثاروا الجدل العقيم في المسائل الفرعية والقضايا الفقهية التي لا طائل منها، وأصبحوا يبذلون في ذلك غاية جهدهم وقوتهم. لا شك أن هذه المسائل الخلافية كانت موجودة في ديارنا من قبل، وكذلك كان يوجد عدد غير قليل من المتعالمين وأصحاب الأهواء وحدثاء

(١) وقع في الحيرة فيما يبدو بسبب تعامل الملك أمان الله خان مع حكومة الاتحاد السوفيتي، فكانت علاقته طيبة معهم وجيّدة طوال مدة حكمه. وقد أجرى زيارة رسميّة إلى الاتحاد السوفيتي أيضا سنة ١٩٢٨م. ينظر للمزيد:
Soviet foreign policy toward Afghanistan 1919-1988, Douglas A. Borer, (p.29-35)

الأسنان، وكانوا ينشغلون بهذه الخلافات والجدال ويتيهون فيها، لكن العلماء الربانيين لم يلقوا بالهم إلى هذه المسائل ولم يكترثوا بها، ولم يتدخلوا فيها إلا لإخماد الخلاف والفتنة كي لا تتسع دائرتها ولا تنتشر بين العوام. لكن منذ أن بدأت هذه الموجة استمرت في التزايد، حتى صار يبدو أن المشكلة الأساسية في البلاد ليست في إيجاد سُبل لمواجهة الاستبداد الذي يكبت الإسلام والشعائر الإسلامية، وإنما القضية الكبرى والجوهرية لأهل البلاد: هل ينبغي أن تُصلّى الظهر احتياطًا بعد صلاة الجمعة أم لا؟ وهل يجوز إقامة محافل المولد النبوي أم لا؟ وهل يرفع المصلي سبابته في أثناء التشهد أم لا؟ وهل كان للنبي ظل أم لم يكن له؟ وماذا يقال في والدَي النبي ﷺ، هل هما مسلمان أم لا؟ وما إلى ذلك من القضايا المتشعبة[1].

اشتعلت المعركة بين الطرفين وصارت تنعقد جلسات المناظرات والمجادلات برغبة واهتمام في المساجد التي لا تأذن الحكومة للمسلمين بالصلاة فيها! فقد نجحت خطة الشيوعيين غاية النجاح. وهكذا خاض عدد غير قليل من المنتسبين للعلم في هذه الخلافات، ونسوا أكبر أعدائهم، وأما العوام فقد صرف انتباههم أيضًا عن جرائم أصحاب العدل.

ولما انفصلنا عن الإمام رجع منا طالبان اثنان إلى شهرسبز، وبقي واحد معي، فبلغنا بلدة «سَري آسيا»، وهي مدفن جدّي لأمي الشيخ «غياث الدين إيشان»، وقد زرنا فيها

(١) لا شك أن الواجب على المسلمين أن يردّوا ما تنازعوا واختلفوا فيه إلى القرآن والسنّة كما أمر الله تعالى في كتابه الكريم. فما حكم فيه القرآن أو السنّة وجب الأخذ بحكمهما، وما خالف ذلك رُدّ على من أحدثه وعلى من قاله.

قبره، ثم توجهنا حسب خطتنا إلى الجبال، فانطلقنا نقطع سلاسل الجبال الشامخات، و نمرّ بالأودية والعقبات الصعبة في الصعود والنزول، ومضينا على الطرق الوعرة حتى وصلنا إلى قريةٍ كان الناس فيها أقوياء البنية، و طوال القامة والهيبة، والوقار ظاهر على وجوههم.

هذا المكان يبعد عن شهرسبز مسافة مقدّرة بثلاثة أيام لكن الفرق بينهما فرق ما بين السماء والأرض. رأيتُ في هذه القرية الروح الدينية الأصيلة، فكلّ أهلها يواظبون على الصلوات ويلتزمون بأحكام الشريعة الإسلامية، ويتأدّبون بآدابها، وهم أصحاب أخلاق طيبة وكريمة، ولا يكثرون من الكلام، ويبادرون بالسلام، ويوجد في مساجد القرية مكان خاص بالنساء، فيأتين المساجد ويصلّين الفرائض مع الجماعة ثم يرجعن. وفي النهار لا تكاد ترى امرأة مطلقًا. و كان بجانب المسجد دار ضيافةٍ واسعة مخصصة لاستقبال المارّة ومأدبة جماعية. كانت حياتهم بعيدة عن التصنّع والتكلف، وتتميز البيوت بقلة الأثاث. إن إمام المسجد هو الذي كان أميرًا للقرية ويتولى أمورها، فكان يصلي بالناس في المسجد، ويقوم بالتدريس والتعليم، ويذهب لعيادة المرضى، و ينظم أمور علاجهم، ويعيّن واحدًا للاهتمام بالمرضى. كانت حياتهم كلها منسّقة ومنظّمة، ولم يكن فيها وجود للجريمة والجناية، وتبيّن لي أن هذه القرية من تلك المناطق والقرى التي لبّت دعوة جدي لأمي العلامة غياث الدين رحمه الله الدينية والإصلاحية، وجعلت نصب عينيها، وحاليًا يتواصل أهل هذه القرية مع الشيخ الخوقندي خالي الكريم للإرشاد والتوجيه الديني.

من هنا تبدأ مناطق المجاهدين الذين ظلّوا يجاهدون ويقاتلون الاستعمار الشيوعي منذ ١٠-١١ عامًا. لم نر لدى أهل القرية ما يدافعون به عن أنفسهم، فتبيّن أنه إذا هجم

الأعـــداء عليهم يذرون بيـــوتهم ويلجؤون إلى الجبال. وأما مركز المجاهدين الرئيس ا لذي يقع في جبـــال «تَخْتَـه قَرَاچَـه» الشامخـة، فقد كـــان على مسافة شـــاسعة بعيدة من هنا.

أم ضينا الليـ لمة في دار ا لضيافة، وفي ذ لك ا ليوم اجت مع فيـ ها جما عة من ا لشباب والمسنين، يبلغ عددهم مئة شخص تقريبًا، وكان أكبرهم سنًا لا يقل عمره عن مـئة عام، فأخرج هذا الر جل بعـ ضًا من الأوراق الخر مة البال ية من جراب م عه، ثم تلا قو له تعالى: ﴿ **مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [يوسف: ٤٠].

وكذلك قرأ المعوّذتين، وجهر بالشهادتين، وردّد معه الجما عة رافعين أ صواتهم. ثم بدأ ا لشيخ المسن يقرأ من تـ لك الأوراق، وكا نت مكتو بة باللـ غة التركستانية، ولا أزال أتذكر بعض كلماتها إلى اليوم:

«إلهنا! لقد عرفناك بمعرفة نبيك محمد صلى الله عليه و سلم، وإ نه أمر نا وعلّمـ نا ألا نعبد إلا إياك، ولا نسجدَ إلا لك، ولا نؤذي أ حدًا، وأن نحترم من آ من بك، وأن نوقّر كبيرنا، وأن نرحم صغيرنا، وأن نحافظ على حـ قوق جار نا، وأن نكسب ونأ كل بالحلال ونجتنب الحرام. يا رب! إننا نوالي من يوالي رسولك، ونعادي من يعادي ر سولك، إننا سلّمنا أنفسنا وفوّضنا أمورنا إليك...».

كانت الأجواء في دار الضيافة يعمّ ها ا لسكون، و كل وا حد مـ نا ينـ صت ويستمع إلى الشيخ كأن على رؤوسنا الطير، ولما انتهى الشيخ من قراءته قام الحا ضرون و صافحوه ثم خرجوا.

فعلم أن هؤلاء الناس يجتمعون في بداية كل شهر ويستمعون إلى هذا الميـ ثاق من أي

مسن بينهم ثم ينتشرون، وهكذا يتعهد كل واحد في بداية الشهر على أن يعيش مسلمًا صادقًا عاملًا.

من هذه القرية انفصل عني رفيقي الثالث وصحبني رفيق جديد، وأخذنا سمن الغنم الطبيعي والسويق زادًا لنا في الطريق. كان على تلك الجبال طريق قديم منذ العهد الإسلامي، ولكنه تضرّر بشدة خلال أيام الثورة، حيث غزته الأشجار والنباتات البرية، مما جعله غير قابل للاستخدام.

كانت في الطريق عيون كثيرة بها مياه عذبة باردة، وكانت الأنهار تجري بين الجبال بأصوات الخرير والعجيج، وكانت المنطقة مليئة بالأعشاب والنباتات الخضراء، وأشجار اللوز، والدلب العظيمة، والطيور المتنوعة التي تطير في الهواء الطلق وتغرّد، والظباء المختلفة تجري وتعدو خلال الأشجار الخضراء، وبالجملة كانت قد تجلّت قدرة الله عز وجل في الطبيعة من كل جانب. كنّا نسير ونمشي طوال النهار، ونصطاد الطيور ونتغذى بها، ونمكث بين الأشجار في أي مكان من الغابة لنمضي الليلة.

ففي اليوم السادس بلغنا ملتقى طرق ثلاث، وكان قد حان وقت العصر فرأينا طريقًا واضحة معالمه، فسرنا فيها، وبعد أن مشينا قرابة ٢٠-٢٥ دقيقة وجدنا أنفسنا في غابة عميقة كثيفة الشجر، فبدت لنا قلعة عظيمة، فشكرنا الله عز وجل على ذلك. لم يمض وقت طويل حتى دهمنا شباب مسلّحون من وسط الغابة، بعضهم راكب على فرس وبعضهم راجل!

«السلام عليكم» قالها أحد الفرسان بصوت قوي.

أنا: «وعليكم السلام».

الفارس: «من أين أتيتم؟ وإلى أين أنتم ذاهبون؟».

قلتُ: «أنا من شهرِسبز».

الفارس: «يبدو أنك لستَ من شهرِسبز، نعم قد يكون الشاب الآخر من أهلها!» قاله الفارس بأسلوب غريب، وارتسمت الابتسامة على وجهه.

أنا: «ظنك صادق، في الحقيقة أنا من سكان فرغانة، وأما صاحبي فهو من سكّان قِزيل ايمجك».

الفارس: «هل تعرف أحدًا من بلدة «قِزيل ايمجَك؟».

أنا: «لا يا سيدي! لقد أقمت بها ثلاثة أيام، فلا أعرف أحدًا منها، كما لا أعرف اسم أحد». قلتُها بوضوح وحرارة.

الفارس: «تعرف أحداً في شهر سبز؟».

أنا: «نعم أعرف تيمير بك، وكنت ضيفًا عنده». ثم أخبرت عنوانه كاملًا، فأمعن الشاب الفارس نظره إليّ، وصعده وخفضه، وقال: «حسنًا، لكن لم تجِب عن سؤالي بعد! لماذا أتيت؟ وإلى أين تقصد؟

أنا: «خرجت للسياحة، أسير وأشاهد قدرة الله تعالى في الكون ونعمته علينا». فسرت ابتسامة ذات دلالة على وجه الفارس، وقال:

«يعني ذلك أنك جئت لتشاهد القلعة؟».

أنا: «نعم! أحب أن أزور القلعة».

أمر الفارس رفاقه بالانتشار يمنة ويسرة، وبقي معنا فارسان وأربعة رجال. وذهب ذلك الفارس بعيدًا عنا، فسألتُ أحد المرافقين معنا.

«من أنتم؟ وأين ذهب ذلك الفارس الشاب الذي كان يتحدث معي؟».

«لا أعرف اللغة التركستانية». أجاب الرجل بالفارسية بلطف.

فسكتُّ ولم أتكلم لأظهر له أنني لا أعرف الفارسية، غير أن صاحبي سأله بالفارسية:

«من أين أنتم يا سيدي؟».

الفارس: «مِن بَلْجُوان، أقيم هنا في الغابة بعد استشهاد أنور باشا منذ ٧-٨ سنوات».

وبعد ساعة تقريبًا عاد الفارس وودّع صاحبي وأخذني معه وسار إلى القلعة. ولما وصلنا إلى بابها كانت الشمس قد غربت، ولما بلغنا قريبًا من جدارها، وضع الشاب على عنق فرسي قماشًا أبيض، يبلغ طوله ذراعًا، ولعله للدلالة على أنني منهم، فلا يتعرض لي أحد. كان الشباب المسلّحون يقيمون في الغابة الكثيفة على جانبي الطريق، وكانوا يحرسون القلعة، ولكنهم تمركزوا بطريقة لا تدلّ على أنهم يقومون بالحراسة.

دخلنا القلعة من بوابة مخفية غير معروفة، فنحن الآن أمام قاعة. تقدّم نحوي رجل كهل له لحية كثة، طويل القامة، عليه سروال واسع، وتعلوه هيبة ووقار، فصافحني، وسألني عن أحوالي، ثم استفسر:

«هل بَرئ تيمير بك؟».

أنا: «نعم».

الشيخ: «ماذا حلّ به؟».

ارتبكت في البداية لكني تمالكت نفسي وأجبته:

«كان يعاني من ألم في ضرسه».

«حفظ الله أمثال هذه الوجوه وحماها». قاله أميرهم.

«آمين» قلتُ رافعًا صوتي.

كان يقيم في القاعة ٥٠٠ مجاهد تقريبًا، وكانوا جميعهم مسلّحين ببنادق عيار ٣٠٣.

لكن الشيء الذي حيرني هو تنظيم هؤلاء المجاهدين الدقيق وتنسيقهم، ونظام الحصول على الأخبار والمعلومات. فقد وصلت إليهم أخباري الكاملة قبل دخولي القلعة، وكانوا مطّلعين على كل ما يحدث في البلاد، متواصلين مع المراكز التنظيمية في جميع أنحاء البلاد وقادتها.

فكلما شدّد الشيوعيون وضيقوا على المسلمين في «سمرقند» وغيرها من المناطق الجبلية المجاورة ومارسوا عليهم التعذيب والتنكيل، نزل عليهم المجاهدون من الجبال كالعاصفة، وأغاروا على هؤلاء العابثين، وكانوا كلهم فرساناً مهرة ورماة فائقين حاذقين.

ثم علمت أن هذه القلعة مركز لألف مجاهد تقريبًا. تبدأ حدود أفغانستان من خلف هذه الجبال الشاهقة، لكن المنطقة المتصلة بأفغانستان قد استولت عليها الشيوعية، وعلى هذا كان المجاهدون محاصرين من الأطراف. كان أمير القلعة من خريجي مدارس بخارى، وكان عالمًا فاضلًا بارعًا، وقد أدّى هذا العالم دورًا بارزًا حاسمًا في المعارك التي قادها الشهيد -بإذن الله- أنور باشا في تحرير بلاد تركستان. هؤلاء المجاهدون يصنعون حوامل الأقلام النفيسة من أخشاب شجرة الملوز والدلب وغيرها، فتُباع في أسواق بخارى، وسمرقند، وأفغانستان بأثمان مرتفعة، وكان ذلك مصدر معيشتهم أيام الأمن والسلام.

قام الأمير بعد أداء صلاة الفجر وعرّفني بالمجاهدين، وبيّن لهم تلك الأحوال والأوضاع التي حكيتها له، وفي أثناء حديثه قال جملة لم أفهمها، قد تكون كلمة السرّ بينهم، فقام المجاهدون جميعًا وحيّوني تحيّة عسكرية، ثم رفع الأمير صوته بالتكبير والتهليل وكرّر الجميع من بعده، وتبيّن لي فيما بعد أن المجاهدين إذا أعادوا عهدهم بالشهادة في سبيل الله، رفعوا أصواتهم بكلمة التوحيد. ثم وضعت مائدة، وكان الطعام هو ما أكلناه نفسه في الليل أي: طعام مصنوع من السويق وحليب الخيل. أجلسني الأمير

بجانبه وسألني خلال تناول الطعام: «ما فكرتك الآن؟ إلى أين تقصد؟».

فاجأني قائلًا قبل إجابتي: «هل حدث لك صراع مع الروسيين في محطة قرشي؟» فبقيت متحيّرًا وجعلت أطيل نظري إلى وجهه، فضحك الأمير وربت على كتفي بيده، وقال: «تُوره زاده! (يا ابن الشيخ) إن هذه المصائب والشدائد التي تراها نزلت بنا وحلّت علينا، إنما يرجع سببها إلى بَطرنا وكفراننا بالنعم» ثم قال:

«هل تحب أن تزور بلدة غِيلان[1]؟».

فقلتُ: «سأزور وأسافر إلى كل بقعة من بقاع وطني».

ارتحلت من القلعة صباح اليوم التالي وكان أمير القلعة قد أعطاني فرسَين، فسرنا طول النهار، ولما أظلمَ الليل مكثنا على سفح جبل قريب من عين ماء، وأمضينا ليلتنا هناك. ثم أدينا صلاة الفجر وأكلنا وشربنا ما لدينا من سويق وحليب، وسرنا في طريقنا عبر جبال «تخته قراچه» الشاهقة التي تُعدّ أطول سلسلة جبال في تلك المنطقة، وكان الجيش الأحمر يقيم ويحرس الطرقات في أطراف هذه الجبال. وذات مرة حدث أن اقتربنا اقترابًا شديدًا من أحد مراكز الجيش ولم يتمكن الدليل من النفخ في صفارة التنبيه؛ لأنه من الممكن أن تكون إحدى جوّالة كتائب الجيش الأحمر قريبة. وفي المساء وصلنا إلى منطقة خضراء ذات بهجة، فقال الدليل: بقيت لنا مسافة ساعتين، ما رأيكم؟ هل نمضي الليلة هنا أم نُكمل مسيرنا؟ فاستقر الأمر أن الأفضل أن نكمل المسير، وكانت الليلة مقمرة، فكان كل شيء يشرق بنور البدر، وكان الحسن والروعة والبهاء قد عمّ المنطقة كلّها.

وصلنا إلى غايتنا الساعة العاشرة تقريبًا، ونزلنا بدار الضيافة وسألنا: «هل يوجد

(١) **غيلان:** منطقة جميلة تبعد عن مدينة شهرسبز على بُعد ٨٠ كيلو مترًا تقريبًا.

طعام؟» فقدّم لنا خادم خبزًا وحليبًا وشايًا بدون سكّر، كانت لذته لا تُوصف!

كان يقيم في دار الضيافة رجال آخرون عددهم فيما بين ٤٠ و٥٠ رجلًا، وكان من المعتاد أن كل من نزل بها نازل يعرّف بنفسه ويبيّن غرضه الذي أتى لأجله، فكتبنا رقعة وبعثنا بها إلى الداخل، فما لبثنا مدة حتى جاء شيخ عظيم وجيه، كان مجهزًا بالأسلحة تمامًا كأنه في معركة، والتقى بكل رجل فردًا فردًا. ولما فرغ وانتهى من الجميع، قدم إليّ فسألني عن اسمي وأحوالي وصحتي، ثم ذهب بي إلى الغرفة، وهي غرفة الشيخ الخاصة للعبادة، وكانت مملوءة بالأسلحة الروسية. كان فيها عدة أنواع من السلاح مثل بنادق عيار ٣٠٣، وموزر، ومسدسات، وصناديق بارود، ورماح، وسيوف، وخناجر، وغيرها، وكان على جانب الغرفة سرير خشبي عليه جلد مصبوغ ومفروش، وفيه وسادة وبطّانية من صوف سميك، وكان عمر الشيخ فوق خمسين عامًا، وكان متخرّجًا في العلوم الشرعية من مدينة بخارى.

وفي ذلك الوقت كان يقيم عنده أحد العلماء من أحد البلاد الإسلامية فعرّفني الشيخ به، وقال: «هذا الشاب ابن أخت الشيخ الخوقندي، وفي أحواله وأخباره من العبر والعظات شيء كثير». فسألني الشيخ عن أوضاع وادي فرغانة الحالية وأحوالها، فحكيتُ لهما بالتفصيل ما رأيت وشاهدت خلال هذه الأشهر الثلاثة في سمرقند وبخارى وقرشي وشهرسبز وغيرها، وكانا يستمعان إلى هذه الحكايات والأحداث بانتباه شديد. ثم قال لي الشيخ:

«إن هذه كلّها جزاء أعمالنا، وهذه ليالي الكفر والإلحاد والظلم التي حلّت بنا، وليالي المصائب والشدائد والآلام والأحزان الطويلة التي سُلّطت علينا، إنما هي جزاء ما اكتسبنا بأيدينا، ولا يعلم أحد سوى الله تعالى عز وجل متى يطلع فجر هذه الليالي؟

ومتى تنكشف هذه الظلمات؟ لكن على كل حالٍ مهما يكن من شيء فعلينا أن نكفّر عن ذنوبنا وعما اقترفناه بكفراننا بالنعم.

فأظهر ذلك الشيخ الضيف اليأس والقنوط وأبدى رأيه حيال ذلك، ومفاده أنه ينبغي لنا أن نهاجر من بلاد تركستان إلى أفغانستان أو إلى أي دولة مسلمة من دول الإسلام، ونقيم فيها براحة وطمأنينة!

فقال الشيخ:

«القضية ليست قضيـة راحة نفس وسكونها، أو راحة بعض المجاهدين، إنما هي قضية الحفاظ على دين المسلمين في هـــذه البلاد وإيمانهم وعقائدهم والدفاع عنها. ولقد قرر العلماء ألا نترك عوامهم المسلمـين وحدهم منفردين في البلاد، فقد قام مجلس الشورى للمجاهدين بإرسال الطلب إلى كل من إيران وأفغانستان وبلاد العرب وتركيا، حتى إلى جماعات ذات الهيئة والمنعة للمسلمين في الهند، ودعا فيه إلى النصرة والمساعدة. لكن مع الأسـف لم نر من أي مكان أثرًا عمليًّا للإخوة الإسلامية وإقبالًا على الإعانة والمسـاعدة! ثم طلبنا منهم وقلنا لهم: إن جهادنا هذا الذي نقوم به والتضحيات التي أداها المجاهدون في سبيل الله كلّها ضد السـيطرة الروسـية الشيوعيـة واحتلالها وتسلطها على بلادنا، نرجو منكم أن تنقلوا للعالم حقيقة ما يجري في أقل تقدير.

لكن هذا الطلب لم ينل كسابقه أي إجابة أو تلبية. فقل لي يا سيدي: ما الدولة الغيورة المسلمة التي بقيت لتُجيرنا ولتكون مثوىً لنا؟ بل بعكس ذلك، يوجد في بعض الدول أحزاب وحركات تحررية قادتُها المستنيرون ما زالوا يثنون على الاستعمار الشيوعي

الأحمر ويمجّدونه. ثم إن من هاجر إلى أفغانستان من موظفي دولة تركستان الكبار والشخصيات البارزة -ومنهم أمير بخارى[1]- هم كلّهم يعيشون تحت الإقامة الجبرية. ففي هذه الحالة لا ملجأ ولا مأوى إلا ربنا عز وجل، فلا يجير أحد سواه ولا نستجير إلا به جلّ في علاه.

سكت الشيخ بعد أن قال هذه الكلمات فعمّ الهدوء، ورأيت ذلك الشيخ الضيف تتدفق الدموع من عينيه وتسيل، وانتشر الحزن العميق في الغرفة، وظلّ يزداد عمقًا وألمًا بالنفوس لحظة بعد أخرى.

(١) **الأمير محمد عالِم خان** (١٨٨٠م-١٩٤٤م): آخر أمراء إمارة بخارى. تولى الإمارة خلفًا لأبيه عام ١٩١١م، واضطرّ إلى الهجرة بعد الهزيمة من الجيش الأحمر إلى أفغانستان عام ١٩٢٠م، فأقام هناك وتوفي فيها.

(٤)

كان اليوم التالي هو يوم الجمعة، فأديت الصلاة مع هؤلاء المجاهدين الشجعان، وقد اجتمع للجمعة قرابة ألفي مجاهد، وحضر شيخ المجاهدين في الوقت المحدد بالضبط، كان مسلحًا بأسلحة عدّة، لقد أشرقت في عيني عند رؤيته صور قادة الجيوش البا سلين من القرون الأولى! كان في جنبه مسدس، والخنجر مسدل، وحزام الرصاص ملتفًّا حول صدره، وكان يحمل في يده بندقية عيار ٣٠٣، وكان التواضع والانكسار ظاهرًا عليه، فتقدم إلى المنبر بخطوات هادئة متزنة، وخطب متكئًا على بندقيته، فكانت الخطبة فائقة موفقة وشاملة، فيها حرارة الحماس والاندفاع، والانتفاضة والعاطفة، كما كان فيها نور الهداية والإرشاد، وضوء الفكر العميق. وكان فيها ترغيب وحثّ على التضحية وبذل النفس في سبيل الله، كذلك كان فيها علاج اليأس والضعف وسقوط الهمة، وامتلأت القلوب بالطمأنينة، والرضاء بالقضاء والقدر.

أدينا صلاة الجمعة فزاد سرور قلبي وسكينته، وكسبت الروح شعورًا جميلًا نبيلًا وحلاوة عجيبة، وهذا الشعور النبيل الذي حصل للروح الملوثة بقذارة النفس والدنيا، لم أجده قط فيما بعد.

أدينا السنّة الراتبة بعد صلاة الجمعة. كان الناس جالسين في صفوفهم، فنظرتُ إلى خلفي منصرفًا، فرأيت المجاهدين يحملون الرشاشات واقفين في أواخر الصفوف على انتباه واستعداد تام.

طلبتُ من شيخ المجاهدين وقلت له: إنني أودّ أن أقضي ساعات بين صفوف المجاهدين في مواقعهم. فقبل الشيخ مني ذلك الطلب، وأعطاني منديلًا، وجعل لي مرافقًا يصحبني، كنت أينما أذهب يرحّب المجاهدون بي ويستقبلونني بحرارة، وكلما رأوا المنديل

في يدي ألقوا علي التحية بترحاب ومودّة.

عين على سقف المسجد أربعة شباب كانوا يراقبون بالمناظير الجوانب الأربعة، وقد جعلت كتيبة من المجاهدين على جبل عالٍ على استعداد دائم للإغارة على الأعداء والدفاع عن أنفسهم، وكان نظام نقل الأخبار وإيصال المعلومات فائقًا ومنضبطًا جدًا، وكانوا قـــد أقامـوا لهذا الغرض كثيرًا من المراكز والمحطات، وكانت جبال «تخته قراچه» و «لنگر اَتَه» مركزين رئيسين (تخته قراچه جبال عظيمة شامخة تقع فيما بين سمرقند وشهرسبز، وعبور هذه الجبال يتطلب يومين، وطريقها وعرة وصعبة جدًا، بَيدَ أنها كانت تفتح في السنة لأشهر قليلة)، وكان المجاهدون قد بنوا محطّات على كل ١٦ ميلًا، فكان الرسول يبلغ الرسالـة إلى المركز، ثم ينطلق إلى المركز التالي، وبذلك كانت تصل أخبار «سمرقنـد» وأحداثها التي وقعت في المساء خلال الصباح عبر المرور بهذه الجبال! وكانت تأتي أخبار «بخارى» من «لنگر اَتَهْ» إلى المجاهدين بوساطة رعاة الغنم وصانعي الكِلس (الجير).

وهكذا تجولتُ وسرتُ بينهم لمدة ساعة إلا الربع تقريبًا، ثم لما وصلتُ إلى المسجد وجدت الناس منشغلين في الدعاء، وفي ذلك المجلس بيّن شيخ المجاهدين أحوال الأسبوع الماضي وما جرى فيه، ثم دعا وطلب مجلس الشورى، وعرض عليهم رأي ذلك الشيخ الضيف في الليلة الماضية أنه ينبغي لنا أن نهاجر إلى أي دولة إسلامية!

جرى الحديث والمناقشة فيه، ثم استقر الرأي في النهاية واتفقوا على الإقامة في وطنهم، والاستمرار في المقاومة والقتال لتحرير البلاد وأهلها من أيدي الشيوعية الغاشمة.

كان ذلك وقت المساء، وقد مالت الشمس إلى الغروب، وفجأة هاجت الأفراح وانتشرت المسرّات في المركز في «غيلان»، وتبين الأمر أن ابنًا لشيخ المجاهدين واسمه

«عصام الدين جُرْعة» رجع إلى المركز، وكان غائبًا منذ ثلاثة أشهر تقريبًا. وعصام الدين هذا كان يُعدّ من الشعراء والأدباء البارزين الفائقين في اللغة التركستانية والفارسية، وكان عالمًا بالشريعة الإسلامية، وإضافة إلى ذلك كان قد تحصل على العلوم العصرية الحديثة في «طاشكند» بتفوّق، فكان يتكلم اللغة الروسية بطلاقة ويجيد كتابتها أيضًا، وكان من مرافقي «أنور باشا» ومن زمرة الشباب المقرّبين له، وهو الذي درّب عصام الدين تدريبًا عسكريًا عاليًا. وكان عصام الدين مقيمًا في بخارى حين قامت فيها الشيوعية بالإبادة الجماعية والقتل العام، وكان شاهد عيان، وكذلك كان في «قرشي» لما مارس الجيش الأحمر أنواعًا من المظالم المرعبة الرهيبة، وعاثوا فيها فسادًا وإكبارًا، وأطلقوا النار على عالم جليل هناك، ثم الصراع الذي وقع بين الشيوعيين ومسلمي «قرشي»، كان عصام الدين هو الذي قادها، ثم انطلق بعد ئذٍ من «قرشي» إلى «بايْسُون» فقبضت عليه الشيوعيون فيها، لكن الله نصره فنجا وهرب من أيديهم، ثم اتجه في مسيرته نحو بلاد أفغانستان، والآن رجع من هناك.

لقد لاحظ عصام الدين الأوضاع والأحوال السياسية في أفغانستان بنظر غائر، وقام بتحليلها، وكانت نقطته التي أراد أن نطّلع عليها هي مدى استعداد أفغانستان لمساعدة المجاهدين وقدرتها على ذلك، وكم عدد المهاجرين الذين يمكنهم أن يهاجروا إلى أفغانستان، وتستطيع الحكومة استقبالهم! فلما دخل إلى أفغانستان كان أمله كبيرًا جدًا، لكنه حين رجع منها، رجع خائبًا يائسًا. حكى عصام الدين لأبيه ما شاهده ورآه في أفغانستان، وقال:

«لقد أصدرت حكومة أفغانستان قرارًا بأن أفغانستان لن تجير أحدًا و لن تؤو يه. و كان لوالي مدينة «مزار شريف[1]» علا قة و صلة مع الحكو مة الرو سية، فكا نت رغبته أ شد ونـ شاطه وولاؤه أ كبر في تحقـ يق هذه الأحـ كام والـ قرارات، فـ كان يردّ الـ مهاجرين الـ ذين يـ صلون إلى الـ حدود بـ عد أن يـ عبروا النـ هر وعـ لى الـ فور. وبـ هذا قد رـ جع حـ تى الآن آلاف المهاجرين، وسلّمهم إلى الجيش الروسي، و كان يأ خذ مبلـ غًا كبيرًا من الـ مال من الـ روس عندما يردّ أحدًا من الشخصيات البارزة المهمة». ثم سرد عصام الدين قصة حزينة وأليـ مة، ولم يكن المجاهدون يعلمون بـ ها. كان القا ئد التركستاني «إبراهيم بك»[2] يـ قاوم ويقا تل الشيوعيين منذ مدة بعيدة في جبال «دَرْواز»، فحاصره الـ شيوعيون رو يدًا رو يدًا، وظ لمت الأرض تضيق عـ لى إبراهيم بك يو مًا بـ عد يوم، حـ تى اضطرّ هو وأ صحابه الـ ذين بـ لغ عددهم نحو ٢٠٠٠-٢٥٠٠ مجا هد إلى حـ طم حـ صار الـ شيوعيين وا لدخول إلى أفغانـ ستان بـ عد أن عبروا «نـ هر آ مو» (جيـ حون)، لـ كن حكو مة أفغانـ ستان رفـ ضت أن تـ ستقبلهم فسلّمتهم إلى الجيش الروسي بعد أن ألقت القبض عليهم. يـ قيم في أفغانـ ستان مليو نان من المهاجرين ما بين تركمان وأوزبيك وطاجيك، ويعمل بعضهم راعيًا لـ غنم «كاراكول»[3]، ومهنة بعضهم حياكة السجاجيد، ويشتغل بعضهم في صناعات أ خرى، وأ ما زعـ ماؤهم و قادتهم فيقيـ مون محـ تجزين في العا صمة «كابُول»، وأُ خذ منهم ضمان ألا يقو موا بأي عمليات ضد الاحتلال الروسي. ثم بيّن عصام الدين الأو ضاع السيا سية والدينـ ية في شبه

(١) مدينة مشهورة في شمال أفغانستان وقريبة من حدود تركستان.

(٢) **إبراهيم بك** (١٨٨٩م-١٩٣٢م): مقاتل أوزبكي مشهور في التاريخ التركستاني، وأحد قادة المقاومة والكفاح ضد الجيش الأحمر الروسي.

(٣) **كاراكول:** نوع من الغنم ذات شعر طويل في آسيا الوسطى.

القارة الهندية أيضًا، وفي اليوم التالي طلب أمير المركز بعد صلاة العشاء انعقاد مجلس الشورى للمجاهدين، وقد كنتُ من ضمن المشاركين فيه، وكانت العادة في مثل هذه المواقف تأخير أذان العشاء حتى يجتمع الناس جميعًا.

بعد ساعة تقريبًا أُذن لصلاة العشاء، وكان المكان مزدحمًا جدًا، فقام الشيخ بعد الصلاة يخطب، وكانت في يده بندقية وفي خاصرته سيف معلّق، فتحدّث عن تاريخ الأنبياء عليهم السلام في دعوتهم إلى الحق وجهودهم في سبيل ذلك، وذكر الصراع الذي وقع بين الحق والباطل في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، ووضح الأوضاع في تركستان وأحوال المسلمين فيها من ضعفهم وذلهم ويأسهم، وحكى ما مارسه الشيوعيون من ألوان العذاب والتنكيل، كما تحدّث عن مقاومة المجاهدين وكفاحهم، وبيّن كذلك خلاصة ما جاء به عصام الدين من الأخبار والأحوال في أفغانستان، ثم قال الشيخ:

«الآن أشيروا إليّ ماذا ترون؟ هل تريدون أن تقاوموا الموجة وتقاتلوا الشيوعيين؟ أم تفضّلون الهجرة؟ فكّروا جيدًا وبيّنوا لي رأيكم، ثم نعمل وفق رأيكم».

كان الوقت ليلًا فعمّ الجو صمتًا وسكونًا، فلما انتهى الشيخ من حديثه وسكت، فزاد ذلك صمتًا ووجومًا في الأجواء! ومضت على تلك الحالة دقائق عدة، فإذا بصوت مجاهد شاب قد بدأ يرتفع وجعل يضجّ في المسجد، وكان يقول:

«إننا لما قدمنا هذه الجبال وأوينا إليها، فإنما قدمناها بعد تفكير طويل، وقد بايعناك يدًا بيد، وما فعلنا ذلك إلا بعد أن أمعنا النظر في الأوضاع وتابعنا الأحوال جيدًا، ولا نزال قائمين على عهدنا ولا ننقض ميثاقنا ما دمنا أحياء، فلا نصالح الأعداء أبدًا كما لا نختار الهجرة».

فقام عدد من المجاهدين الشباب وأيّدوا رأيه، وأظهروا موافقتهم على رأيه، فقام

الأمير مخاطبًا الحاضرين، وقال:

«لقد استمعتم إلى آراء بعض أصحابكم، وعلمتم بإرادتهم، فهل توافقون كلّكم على هذا الرأي؟».

الحاضرون: «موافقون تمامًا... موافقون... موافقون!».

ضجّ المسجد بصيحاتهم، ورأيت وجه الشيخ يتهلل فرحًا وسرورًا في ذلك المساء تحت أضواء المسجد الضعيفة. قام الشيخ مرة ثانية وخطب فيهم، وقرأ بعض الأدعية المأثورة واختتم بالدعاء والابتهال، وفي الختام رفع الجميع أصواتهم بالتكبير والتهليل، وجدّدوا عهدهم، ثم انتشروا وانفضّ المجلس.

عُدنا إلى أماكننا، فقال لي الشيخ «توره زاده (يا ابن الشيخ)! أمامنا خياران: إما أن نرضى بالكفر والإلحاد ونعيش هنا مقهورين أذلاء، وإما أن ندافع عن ديننا ونقاوم لأجله، ونبذل أنفسنا في سبيل ذلك. نعم! توجد لدينا طريقة ثالثة وهي الهجرة. لكن السؤال: إذا هاجرنا فإلى أين نذهب؟ فقد سمعتَ عن الأوضاع في أفغانستان وعلمتَ بأحوال شبه القارة الهندية، وإن أرض الله واسعة رحبة، لم تضِق في زمن على أهل الإيمان كما ضاقت عليهم الآن!» ثم سكت الشيخ عن الكلام، فشعرت كأن سكون الليل وظلامه قد ازداد وتعمق بسكوته.

بعد صلاة التهجد، كان دور الحراسة على الشيخ نفسه، فقام بدوره طوال ساعتين، وكنتُ أصحبه في تلك المدة، فظلّ الشيخ يتحدّث عن أمور وقضايا، فقال مرة:

«إن هذه الحركة للمجاهدين لا تضم الرجال فقط، بل تضم إليها النساء أيضًا، فقد أخذن التدريب العسكري ومن ذلك إذا أغار علينا الأعداء لا تصير النساء كلّاً وثقلاً على كاهلنا».

وفي اليوم الرابع ارتحلتُ من عند الشيخ، فجعل لي عشرة فرسان يرافقونني في السفر، فما زلنا نسير ونختفي عن أعين الكتائب الجوّالة للجيش الروسي، حتى صعدنا على رؤوس الجبال الشامخات، ثم نزلنا منها إلى أسفلها. ومررنا على العقبات وقطعنا الغابات الكثيفة، حتى دخلنا في اليوم السابع حدود قرية «قايْنَار قِشلاق». من هنا يبدأ جبل «تاربوز» الشهير، وتقع في طرفه الآخر مدينة «سمرقند»، وكذلك مدينة شهرسبز كانت على مسافة قريبة من هذا المكان.

رجع رفاقي الفرسان أدراجهم، وغيّرت لباسي ومظهري، وحصلتُ على وظيفة لدى مالك الحَمير، وكان يذهب بقرابة مئة حمار إلى سمرقند، فمضى يوم في صعود الجبال، ويوم آخر في النزول منها، فلما وصلتُ إلى «سمرقند» ذهبتُ إلى «أوزْبكتُور» (مدير محلّ التموينات)، وطلبت منه أن يعطيني قماشًا عوضًا عن البطّيخ، فوافق لكنه قال: «تعالَ غداً في الساعة الثامنة لتأخذ القماش، سينعقد في مساء اليوم في «أَفْراسِيَاب»[1] اجتماع مهم جدًا، ولابدّ لكل فرد من الحضور فيه.

شدّ صاحب الحمير حمره في دار كبيرة مفتوحة، فطلبتُ من السيد إجازة ليلة كاملة، ووصلت إلى قرية «مَيمَن قِشلاق» مباشرة، ولقد تبدلت أوضاعها وتغيرت بيئتها خلال هذه الأشهر الثلاثة تغيرًا بالغًا، وكانت أحوالها أسوأ وأضعف، فقد لاحظت في صلاة الظهر عددًا قليلًا. وكانوا مرعـــوبين وأثر الدهشة والحزن ظاهر على وجوههم. فسألتُ أحدهم همسًا عن الشيخ «دامْلا بخاري»، فعرفتُ بأنه قد قبض عليه الشيوعيون، ولا يعلم أحد إلى أين ذهبوا به.

(١) منطقة تاريخية قديمة تقع في شمال مدينة سمرقند.

لقد قام الشيوعيون بعد أيام من غيابه بالإعلان، وضرب الطبول بأنه أُرسل «دا مْلا بخاري» إلى فرغانة حسب رغبته، إلا أن هذا الإعلان لم يتمكن من إقناع العامة، فلم يطمئنوا بهذا الخبر، فالظن الراجح في أوساط الناس أن الشيوعيين نفوه إلى «سيبيريا» أو أوردوه مورد الموت والهلاك.

وصلتُ إلى منطقة «شاه زِنْدَه»[1] قادمًا من قرية «ميمن قشلاق»، كان يقيم في إحدى دورها الخربة المهجورة «القارئ غفور جان» (عبدالغفور)، وكان غفور جان من «أنديجان» أيضًا، وكان صاحب صوت أخّاذ، ساحر، وكان قد تعلّم القراءات السبع، فإذا كان يتلو القرآن الكريم يطرأ على المستمعين حالة وشعور غير اعتيادي، ولما قدمتُ هنا قبل ثلاثة أشهر، كان هو الذي أراني وزار بي «شهر سبز» القديمة، واصطحبني إلى «داملا بخاري».

اطلعتُ على أمور جديدة، وهي أن الشيوعيين قد استولوا على الأوقاف والآثار القديمة في منطقة «شاه زِنْدَه»، وأبعدوا القائمين على شؤونها والعاملين فيها، ثم عيّنوا مكانهم رجالًا مخلصين أوفياء -على زعمهم- يعود ولاؤهم إلى المكتب الشيوعي. وكان «عبد الغفور» يقيم تحت الإقامة الجبرية والمراقبة الدائمة بوساطة هؤلاء القائمين على تلك الأوقاف والآثار منذ شهرين.

كان الناس يهرعون إلى منطقة «أفراسياب» مهرولين (حيث نودي بهم للتجمّع)، وكان الظاهر في وجوههم الاضطراب، فسرتُ معهم حتى وصلنا إلى مكان التجمع الكبير، وقد احتشد فيها عدد هائل من الجيش الأحمر وكمسمول والشيوعيين، فظل

(١) منطقة جنائزية تاريخية تقع بالقرب من مدينة سمرقند.

الناس يأتونها رافدين، والجمع يكبر ويعظم، وخلال نصف ساعة تجاوز عدد الحاضرين الآلاف.

ابتدأ الاجتماع بخطاب من أحد الشيوعيين، ماذا كان خطابه؟ لم يأتِ بشيء جديد! فلم يتجاوز تلك الافتراءات والأباطيل ضد الإسلام، ولم يزد على تلك الأكاذيب والهذيان عن الشريعة وأحكامها التي ظلت عادة راسخة للشيوعيين وسمة مميزة لهم، ثم أُحضرت ثلاثة تماثيل، أحدها بدا عاريًا، لا يستر جسده سوى إزار قصير يلتف حول خصره، فلما أتوا بذلك التمثال شبه العاري إلى المنصة أمطروا عليه الأزهار، ووضعوه في مكان مرتفع، ثم أحرقوا التمثالين الآخرين! فقام رجل وخاطب الحاضرين باللغة الروسية، وقال في التمثالين:

«هذان الرجلان من عملاء الاستعمار الإنجليزي في شبه القارة الهندية، وإن المكتب السياسي للاستعمار البريطاني أقام هذين الرجلين ضد حركة الاستقلال فيها، ويستفيد منهما في هذا الشأن أيما فائدة، وهما ينتسبان إلى المسلمين الذين ما زالوا يتجسسون لصالح الاستعمار الإنجليزي ويُقال لهما: «علي بَرادَران» (أي: علي الشقيقان)[1]. ثم عرّف بالتمثال شبه العاري بهذه الكلمات:

«هذا رجل عظيم، وهو القائد العام لحركة الاستقلال في هندُوستان (بلاد الهند)، ونظريته أنه يسكن في الهند شعب وحيد، وهم: الهندوس، وغايته الوحيدة في حياته

(١) المراد بهما **«محمد علي جَوهَر»** (ت: ١٩٣١م) وشقيقه **«شَوكتْ علي»** (ت: ١٩٣٨م): من أشهر الزعماء السياسيين المسلمين في حركة استقلال الهند ضد الإنجليز، ومن رواد النهضة الأدبية والصحافة الإسلامية في شبه القارة الهندية.

الاستقلال من احتلال الإنجليز، ويقال له «غاندي»[1]. وهو عادة ما يكون متجردًا عن الثياب لأن قومه عبيد، فيقول: ما دام شعبي جياعًا وعراة، وتحت سيطرة الاستعمار الإنجليزي، لا أزال أجوع وأتجرد عن الثياب. فهذا الزعيم العظيم عدوٌ لدود للمستعمرين الإنجليز، وعملائهم وجواسيسهم الذين هم أصحاب الأملاك والإقطاعيين والرأسماليين المسلمين».

وبما أن المسلمين اعتادوا على افتراءات الشيوعيين وأكاذيبهم وخرافاتهم الفارغة، فلم يقوموا بأيّ ردة فعل، وعلى هذا انتهت الجلسة بين ترديد الهتافات وتعالي الشعارات والغضب العارم نحو الرأسماليين وعملائهم (بعد سنة وربع تقريبًا، لما وصلتُ إلى مدينة «لاهُور»[2] عن طريق أفغانستان، وتشرفت بزيارة شاعر الشرق الكبير «محمد إقبال»[3]، وبيّنتُ له هذه الواقعة بالفارسية، فدعا العلامة إقبال صديقه الأستاذ ظَفَر علي خان[4]، وسيّد حَبيب[5] مدير جريدة «سِيا سَت» الأردية، وزعيمًا مسلمًا آخر -لا أتذكر اسمه الآن- فأمرني قائلًا: «بيّن تلك القصة لهؤلاء مرة أخرى!»).

ذهبتُ من أفراسياب إلى مكان إقامتي، فحكيتُ للسيد صاحب الحمير ما حلّ

---

(١) **مُوهِنداس غاندي** (١٨٦٩م-١٩٤٨م): زعيم سياسي، وكاتب هندوسي شهير، وهو الأب الروحي لدولة الهند.

(٢) مدينة تاريخية مشهورة في شبه القارة الهندية، وتقع حاليًّا في بلاد باكستان.

(٣) **الدكتور محمد إقبال** (١٨٧٧م-١٩٣٨م): شاعر إسلامي ومفكّر وزعيم سياسي شهير. وهو الأب الروحي لبلاد باكستان.

(٤) **ظفر علي خان** (ت: ١٩٥٦م): صحفي وشاعر، ومن أشهر الزعماء السياسيين المسلمين في حركة استقلال الهند ضد الإنجليز.

(٥) **سيّد حبيب** (ت: ١٩٥١م): صحفي شهير، ومن زعماء السياسيين المسلمين في شبه القارة الهندية.

بالقارئ غفور جان من الشدائد، وما جرى للشيخ «داملا بخاري» من إلقاء القبض عليه وتغييبه، وظلّ السيد يستمع إلي منصتًا مصغيًا، ثم ارتحلنا بعد يومين إلى شهرِ سبز. وفي الطريق في أثناء السير سألت السيد: «يا عمّ! من هؤلاء الذين يقال لهم الشيوعيون؟ والاشتراكيون؟ وماذا يقصدون؟ وما أغراضهم وأهدافهم؟

«يا ولد! يا بدوي! إنك من سكان فرغانة، وبالذات من أبناء هؤلاء الرجال الذين صنعوا التاريخ المجيد وأشادوا بهم «أنور باشا» بنفسه تقديرًا لجهودهم الجبارة، وتضحياتهم العظيمة، والذين ما زالوا يقاتلون ويدافعون عن دينهم ووطنهم منذ عشر سنوات! وأنت لا تعلم هذا الشيء البديهي. الشيوعيون هم الذين ينكرون وجود الله عز وجل ويسعون إلى إبادة من يؤمن بالله ويؤمن بقوّته وقدرته، ويريدون قلعه من صفحة الأرض. وأما الاشتراكيون فهم الذين يدعون إلى إشراك الناس جميعهم في الأموال، والأملاك، والعقارات، والنساء! فهل فهمتَ شيئًا؟

«لكن يا عم! إنكم تعيشون في الجبال والغابات، فكيف اطلعتم على هذه الأمور؟»، وجهت إليه سؤالًا آخر.

فجعل السيد ينظر إلي بإمعان وبدلًا من الإجابة بقي صامتًا، فلعل هذا السؤال رابه وأوقع في نفسه الشكوك! فقد كان يحسبني من أعضاء كمسمول! فندمتُ في نفسي على حماقتي هذه، وشعرت بالاضطراب الشديد في قلبي، فلو أن السيد أراد أن يسقطني من الجبال في حين غفلة مني أو يجعلني تحت حجر... لفعل!

مضت نصف ساعة على هذه الحالة، لم يتكلم فيها السيد ولا بكلمة واحدة، فظللتُ أفكر في نفسي: «يا للأسف، لقد أتى علينا زمان يخاف الرجل من صاحبه ويشك كل واحد في غيره!» ولقد قطعنا الممرات الجبلية وأمامنا عين وجعلت الشمس تغرب،

فلما بلغنا العين توقفنا، وأسقينا الحمر الماء، وملأنا القِرب، وتوضأنا، ثم صلّينا صلاة المغرب، كان السيد صاحب صوت عذب وشجي، فلما بدأ يتلو القرآن الكريم شعرت كأن الأرض والسماء، والجبال، والفضاء الأخضر، والماء الفياض من العين، كل ذلك طرأت عليه حالة السرور والفرح!

تناولنا طعام العشاء بعد المغرب، ثم أدينا صلاة العشاء، وبدأت القافلة تسير إلى الأمام، وفي اليوم الثاني بلغنا مشارف مدينة «شهرِ سبز» والأماكن القريبة منها، فالآن حان وقت الانفصال عن القافلة، فقدمتُ إلى رئيس القافلة واستأذنته وودعته، وسرت إلى شهرسبز عن طريق منطقة «سَري آسيا».

دخلت بلدة «سَري آسيا» وقت غروب الشمس مرورًا بمدفن جدي لأمي الشيخ غياث الدين إيشان. وكان قبره خارج البلدة على مسافة قليلة، وكان المكان المحيط به يحتوي على نصف فدّان[1] تقريبًا، والقبر كان غير مجصص. وكانت أطرافه الثلاثة من الجهة الغربية مفتوحة، وفي المكان قاعة تتسع في وقت واحد لعدد يتراوح بين ألف وخمسمائة إلى ألفين، فأمضيت الليلة في القاعة منشغلًا بتلاوة القرآن الكريم والذكر والاستغفار والدعاء والابتهال، واتجهتُ إلى المدينة وقت السحر قبيل طلوع الفجر، وأديتُ صلاة الفجر في مسجد هناك.

كان في «سَري آسيا» بساتين لخالي العزيز، وفيها أشجار كثيرة لأنواع مختلفة من العنب والرمان والتين واللوز والجوز والخوخ والتفاح وغير ذلك. فولجت بستانًا لعلّي أجد فيه من أعرفه من معارفي، فأطلع منه على الأوضاع في شهر سبز، ثم

(١) واحد فدّان = ٤٠٤٦ مترًا مربعًا.

أذهب إلى خالي الكريم.

وعند الظهيرة جاء أحد خدّام خالي، والتقى بي في انبساط و حرارة، لكن كان فيه اضطراب وتحيّر، فسألته:

«هل أنت بخير؟ يبدو أنك مشتت الذهن؟» فألقى الخادم نظراته يمنة ويسرة، وكأنه يشك في أن يسمعه أحد غريب ثم بدأ يقول:

«لقد حاصرت كتيبة من الجيش الأحمر قلعة الشيخ الخوقندي عند الساعة الثانية من ليلة البارحة، وجعلوه تحت الإقامة الجبرية والمراقبة، وكانت هذه المحاصرة الثانية التي وقعت بعد ٣٧ يومًا».

أنا: «كيف حال عَظّام خان (ابن خالي)؟».

الخادم: «هو بخير وسلامة».

أنا: «هل يمكنك أن تخبره بقدومي؟».

الخادم: «إذا سنحت لي الفرصة أخبره بالتأكيد». قال ذلك الخادم ثم انصرف. وقد رحل من عندي وقت العصر، وحلّ المساء، ثم انقضت الليلة، ومرّ نهار اليوم التالي كذلك، وصارت ساعات الانتظار تطول وتمتد. كنت أنتظر وأقضي وقتي بذكر الله تعالى حتى جاء «عَظّام خان» في الساعة الواحدة ليلًا، وجاء معه «تيمير بك» أيضًا.

جرت الأحاديث بيننا طويلًا، وحكيت لهما قصة سياحتي بالتفصيل، وأخبرني «عَظّام خان» أنه لا يمكن لأحد أن يلتقي بالشيخ الخوقندي؛ لأن الحراسة شديدة جدًا. ثم حكى لي حادثة مفجعة ومؤلمة، وإذا تذكرتها حتى في يومي هذا يقشعر منها جلدي ويتحرك قلبي ويقف شعر بدني، فمضى «عَظّام خان» يحكي:

«في الأسبوع الماضي قدم إلى الشيخ الخوقندي رجل موثوق به من سمرقند، فقال

للشيخ الخوقندي: لقد طلبت الشرطة السرية للاتحاد السوفيتي حسب أوامر ستالين[1] من أطراف روسيا جميعها علماء المسلمين من بلاد التتار والتركستان والقفقاس، ووضع بين أيديهم محضرًا وكتب فيه: "نحن حملة الدين وممثلو الإسلام ونؤمن بأن محمداً كان ولد قبل قرون في بلاد العرب، وكان قد أصلح شؤون قومه، والآن جاء لينين في هذه الدنيا الفاسدة المختلة، وأنقذ البشر من الظلم والهلاك، وإننا نعلن بأن ما كتبه كارْل ماركس[2] ولينين، وما قالاه هو الإسلام الآن، وجدير بأن يعمل به المسلمون جميعًا".

وأمر هؤلاء العلماء بأن يوقعوا على المحضر، لكن رجال الحق واليقين ردّوا هذا الأمر، ورفضوه تمامًا، وقالوا بكل جرأة وصراحة: "أين الثرى من الثريا؟! إن ماركس ولينين لم يكونا سوى شخصين عاديين، يسعيان وراء الماديات، فأين فلسفتهما ونظرياتهما -وهي مخالفة لفطرة الناس وطبائع البشر- من تلك التعاليم السامية والأحكام الرصينة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ، والتي تنسجم مع فطرة الإنسان انسجامًا كاملًا".

وحينئذ جنّ جنون الشيوعيين من هذا الإنكار الجريء من علماء المسلمين، فلم يكتفوا بإلقاء القبض عليهم، بل بدأوا بالقبض على مئات العلماء الذين يدينون ويعتقدون الاعتقاد نفسه، ونفوا إلى «سيبيريا» فورًا، وأرسلوا ٩٣ رجلًا من العلماء البارزين الأجلاء على الشاحنة إلى جبال مدينة «أوش» تحت حراسة الجيش المسلحين. ثم أعطي كل عالم كيسًا مملوءا بالكِلس وأعطي معه مجرفة، ثم أمر عالِم أولًا بحفر حفرة،

(١) **جوزف ستالين** (١٨٧٨م-١٩٥٣م): الرئيس الثاني للاتحاد السوفيتي من عام ١٩٢٩م حتى وفاته. اشتهر في مدة حكمه بالقسوة والجبروت.

(٢) **كارْل مارْكس** (١٨١٨-١٨٨٣م): عالم الاجتماع والاقتصاد الألماني، ويُعدّ من أبرز منظري الشيوعية.

عرضها قدم[1]، وعمقها قدمان، وطولها خمسة أقدام، فلما انتهى من حفرها، أمروه بالنزول فيها، وما إن نزل فيها حتى أطلقوا عليه رصاصات فسقط العالم جريحًا في الحفرة، فأمروا العالم التالي الذي يحمل الكِلس أن يلقيه على الجريح.

ولم تكن لديه أي حيلة إلا أن يمتثل لما يصدر من الأوامر، وكان الجريح يصرخ ويصيح من الألم، ثم صدر الحكم بتغطية الحفرة بالتراب، وهكذا دُفن ذلك العالم حيًّا. وبهذه الطريقة الوحشية أزهقوا أرواح ٩٢ عالمًا، إذ كلّفوهم بحفر قبورهم بأيديهم، وقضوا عليهم جميعًا، وبقي واحد منهم، لم يجرحوه ولم يطلقوا عليه الرصاص، بل دفنوه حيًّا. ولما انصرف الجيش الأحمر استطاع هذا العالم الخروج من الحفرة، وسار خفية حتى بلغ مدينة «كاشْغَر»[2]، ومن هناك هاجر إلى بلاد الهند. وفي سنة ١٩٣٥م وقع اللقاء بيني وبين هذا العالم الجليل في مدينة «دِلهي» الهندية، وحكى لي نفس الواقعة تمامًا التي حكاها الرجل القادم من سمرقند بحضرة الشيخ الخوقندي.

أما الجنود الذين ذهبوا بهؤلاء العلماء فكان كلهم من الروس أو من الأرمن، وكان قائدهم أرمنيًّا اسمه «داداش»، كان بين صفوف الكتيبة شابٌّ تَتَريٌّ واحد، فتأثر جدًا بهذه الحادثة الأليمة، ولما سنحت له فرصة الانفصال من الجيش هرب، فوصل من مدينة «أوش» إلى «سمرقند» ومنها إلى «شهرِسبز»، وحدّث بها الشيخ الخوقندي ثم هاجر إلى أفغانستان.

---

(١) القدم الواحد يساوي ١٢ بوصة.

(٢) **كاشغر:** مدينة مسلمة تاريخيـة، ومن أهم مدن بلاد تركستان الشرقية التي تسيطر عليها حاليًا دولة الصين الشعبية.

ثم زاد تيمير بك وفصّل في وصف الأحوال، وقال: «لقد تحولت الأوضاع في «شهرسبز» و«كِتاب» و«غُزار» من سيّئ إلى أسوأ، فقد غيّب مئات من الناس، وأغلبهم من العلماء البارزين، وأعيان القادة والزعماء، وقد بسطوا شبكات الشرطة السرية في شهرسبز وفي كل قرية مجاورة لها، وصنعوا لها نظامًا محكمًا. ومن الأمس تمركز رجال الشرطة السرية في محطة السكّة الحديدية في شهرسبز.

«توره زاده! (يا ابن الشيخ) بماذا تفكر؟» سألني تيمير بك.

أنا: «لقد وددتُ أن أزور شهرسبز ولو لمرة واحدة».

تشاور «تيمير بك» و «عظّام خان» فيما بينهما، ثم استقر الأمر على أن أذهب إلى شهرِسبز في زيّ البُستانيّ، فأُعطيتُ ثلاثة حُمر، ووُضعت عليها سِلال مملوءة بالعِنب، ثم رحلتُ، وكان قد رافقني بستاني آخر يكبرني في السن قليلًا. مهمتي كانت إيصال السلال إلى المحالّ القريبة من البوابات الأربع الرئيسة ضمن اثنتي عشرة بوّابة تحيط بمدينة «شهر سبز». هكذا وجدت فرصة لزيارة جزء كبير من شهر سبز، فكانت المدينة تبدو وكأنها تحت قبضة الجيش الأحمر وسيطرتهم الكاملة، وكان الجنود يتجولون في كل أنحاء المدينة وكانوا روسيين كلّهم.

كنت أسوق الحُمر إلى بوابة قرشي، وفجأة سمعت أوزبَكْتور (مدير محلّ التموينات) يناديني باسمي، فأظهرت تجاهلي، فناداني صائحًا: «خوقندي توره!» (أيها الشيخ الخوقندي).

«مَن هذا؟» قلتُ في نفسي! فتوقفت بعد أن مشيت قليلًا ونظرت إليه، فإذا رجل يخرج من حانوته إلى الطريق. كان الرجل واحدًا من أولئك القازاق المُستيرين الذين سرتُ معهم من محطة «قرشي» إلى المطعم الأحمر للتخلص من اللصوص الروسيين في القطار.

ضمّني الأخ بحرارة وحنان، وقال: «ارجع إليّ لزامًا بعد أن تترك هذه الحُمر!».

رجعت إليه في الساعة الرابعة فوجدته ينتظرني، فعرفت بأن الرجل مسؤول في المحل ومحاسب فيه، وكان الموظف الآخر يهوديًا. فحكى لي أحواله وما جرى عليه خلال هذه الأشهر الأربعة، وأين ذهب هو وأصدقائه بعد «قرشي» وأين تجولوا، ثم كيف وصل هو إلى شهرسبز، فعاد قائلًا:

«أين تقصد الذهاب الآن؟».

أنا: «أفكر أن أزور كركي».

الرجل: «ومنها تريد الذهاب إلى أفغانستان؟» قال لي.

أنا: «نعم، في حال لم أجد أي خيار آخر سأضطر إلى الذهاب إليها».

الرجل: «أين ستذهب الآن؟»

أنا: «عند تيمير بك أو قلعة حضرة الخال».

الرجل: «لا... لا... لا تذهب إلى القلعة، نعم إذا كان منزل تيمير بك فارغًا فامكث في منزله، وإلا يحسن بك أن تذهب إلى سَري آسيا، وأما إذا اتجهتَ إلى القلعة فإنهم سيقبضون عليك فورًا. أين تركت الحمر؟».

أنا: «كان معي عامل آخر وأخذها مني».

الرجل: «أحسنت».

كانت البضائع مبعثرة في المستودع، فقال أوزبكستور (مدير المحلّ): «تعالَ إلى هنا، ورتّب هذه البضائع، وسأعطيك أجر عملك. فرتّبت البضائع في مواضعها خلال نصف ساعة، فأعطاني المدير ورقة بخمسة روبلات، فحصلتها من اليهودي القيّم على المستودع، فقال المدير: «تعالَ غدًا أيضًا، فإني أرجو أن يتوفر عمل لك».

وعندما استلمت الروبلات من يد اليهودي وقّعت على السجل بالأحرف اللاتينية، فظلّ اليهودي يراقب كتابتي ويمعن النظر فيها!

وصلتُ إلى «مدرسة مالك أشتر»[1] في المدينة قبيل غروب الشمس، وكانت المدرسة قد تحولت إلى بيت للمآسي، فقد انتشر الهدوء في أرجائها بين المدرسين والطلبة جميعهم، والحزن والألم خيّم على وجوههم، فتبيّن أن الشرطة السرية قبضت على عالمين بارزَين، وكانا من الأساتذة المتميزين في المدرسة، وقد مضى عشرون يومًا على غيابهما، ولا يدري أحد أين هما؟ وهل هما حيّان أم قُتلا؟

وفي هذا الجو الحزين أدّينا صلاة المغرب، وكان عدد الحاضرين في صلاة الجماعة قليلًا جدًا. وأكثر الناس صلّوا في الغُرف منفردين، وكان الليل قد أرخى سدوله. كنت متحيرًا من أمري، أين أذهب وأين أقضي ليلتي؟ فقد مُنع الغريب والأجنبي من الإقامة في المدارس والمساجد!

ظللت أفكر مضطربًا حتى ظهر تيمير بك وهو قادم إليّ. وكان عليه زيّ البستانيين، فمرّ بي صامتًا، وشرب ماءًا ومضى يمشي ساكتًا، ولم يلتفت إليّ مطلقًا، فأدركت أن الأمور ليست على ما يرام، وأنه جاء ليذهب بي، فاقتفيت أثره بحيث لا يشعر بي أحد أني ذاهب برفقته. كان دكّانه على مسافة فُرلُنغين اثنين تقريبًا[2]، فولج داخل المحل، وتقدمت أنا إلى الأمام. ولما مشيت قليلًا رجعت إلى الخلف فرأيت رجلين يقدمان تجاهي ويتحدثان، فخففت مشيتي حتى يتقدم الرجلان فمرّا بجانبي ودخلا في منزل يبعد

(١) كانت تقع في شهرسبز، ويوجد الآن مسجد بهذا الاسم. ولعل الغُرف المبنية حوله كانت تُستخدم للتدريس.

(٢) حوالي ٤٠٠ متر.

٢٠٠ قدم، فرجعت مسرعًا وبلغت دكان تيمـــير بك. كان ينتظر ني و يراقبني من نا فذة غرفته العلوية، فنزل منها و فتح لي الباب، ورافقني إلى ا لدور العلوي من دكّا نه، ثم سمع مني ما جرى لي اليوم بتفاصيله، وعرفـــت منه أن ا سم ذ لك الأوزبكتور «تُنْكُري قُل»، ثم سألني:

«هل حدّثك تُنْكري قُل عن أي شيء جديد؟».

أنا: «لا».

تيمير بك: «الأمر الجديد هو أنه صدر قرار بنفي الشيخ الخوقندي إلى سيبيريا! فقامت المدينة بأ سرها بالا ستنكار ضد هذا القرار، و قد أر سلنا ما لا يُحصى من الر سائل إلى زعماء الشيوعيين البارزين الأربعة في المدينة، وكان مفادها كلّها واحدًا: "لو مسّ الشيخ الخوقندي أي ضرر، أو تجرأ عليه أي أحد بالتعدي عليه، فسننتقم من الشيوعيين لكل جزء من جسد الشيخ الخوقندي! فعقد الشيوعيون ا لمدنيّون جلسة، وفكّروا في ا لحالات المحتملة التي ربما يتعرضون لها، ثم أصدروا القرار التالي:

"لا شك أن الشيخ الخوقنـــدي روحانيّ لكنه ر غم ذ لك إنسان يعيش بين العوام، وإ نه لا يزال يبذل حياتـــه في خد مة الشعب، فلذلك يُترك مع أحوا له وأعما له، ولا يُتعرّض إليه".

ثم نشر هذا القرار في أرجاء المدينة، وأعلن به بالضرب على الطبول. وهكذا سكن الغضب ورفع الاضطراب المنتشر بين الجماهير، لكنه شيء طارئ، فقد أضيف عدد كبير إلى الشرطة السرّية في المدينة، و بدأت الشرطة تتجول بالزي الأبيض، و تحرس الجهات الأربعة لقلعة الشيخ الخوقندي، وقد بلغ المدينة في هذه الليلة ا لجيش الأحمر، وعُيّنت كتيبة منهم داخل القلعة».

في الساعة الحادية عشرة ليلًا، قدم «تُنْكَري قُل» فبدأ يقول: « لماذا وقّعتَ بالأحرف اللاتينية عندما أخذت الأجرة؟ لا تفعل ذلك مطلقًا». فعلمت منه أنه لما رجعتُ بعد الحصول على الخمسة روبلات سأله الموظف اليهودي: «من أي بلد هذا الفتى؟ يبدو أنه ليس من سكّان هذه المدينة؟ وأين يقيم هنا؟».

ثم جرى بيننا الحديث في أوضاع الوطن وأحواله إلى نصف الليل. لقد ظلت سيطرة الشيوعيين المستبدة تشتد وتزداد، وصار الناس في «قرشي»، و«غُزار»، و«كِتَاب»، و«سَري آسيا»، و«شهرِسبز»، وغيرها من المدن يغيبون في كل ليلة إلى جهة مجهولة! لعل الشيوعيين كانوا بصدد الإغارة وشنّ الحرب للمرة الأخيرة على المسلمين وعلى حياتهم الدينية والاجتماعية. ثم جاءت قضيّتي فجرى النقاش فيها، وفي النهاية استقر الأمر بأن الأفضل لي أن أذهب إلى بلاد «أفغانستان» فالحالة هناك مازالت عادية نوعًا ما، فإن وجدت مثوى وملجأ فيها فبها، وإلا أرتحل إلى بلاد هندُوستان (الهند)!

(٥)

في النهاية جهّزت أمتعتي للسفر و سِرت نحو أفغانستان عن طريق مدينة «كَركي»، والحسرة من عدم تمكني بلقاء خالي الكريم باقية في قلبي بمرارتها، وأعاد إليّ تيمير بك الأغراض التي أعطتنيها أمي. فوصلت إلى محطة السكة الحديدية، وركبت - مستعينا بالله- القطار المتجه إلى «تِرمِذ»، وقبل محطة «كَرْكي» الكبيرة، تقع المحطة في مكان اسمه «إمام جعفر» في منطقة نائية عن المساكن والعمران، ويقع على مسافة منها مدفن قديم، فسُمّي المكان على اسم صاحبه.

فلما وصل القطار إلى هذا المكان توقف فيه، فهل توقف فيه حسب النظام المعتاد المعمول به أم على اتفاق مسبق، فالله أعلم بحقيقة الأمر. نزل كثير من الركاب من العربة التي كنت فيها، وفي الأخير نزل شابان قويّان من «فرغانة» مع أمتعتهما القليلة فنزلتُ بعدهما، فجعل الناس يمشون قريبًا من السكّة الحديدية. ظللت أنظر حولي متحيّرًا مترددًا، وكان القطار قد غاب عن الأنظار، والناس يسيرون في صف طويل، وهذان الشابان كانَا في آخر الصف، وكان الجوّ مخيفًا ومرعبًا جدًا، ولم أكن أعرف في أيّ مكان أسير أنا؟ وأين يذهب هؤلاء الناس؟ (ثم تبيّن لي مؤخرًا أن اسم هذا المكان: إمام جعفر).

وظللت أمشي خلف هذين الشابّين لا إراديًّا، وكان الناس يسرعون في المشي حتى غاب بعضهم عن الأنظار، وظللنا نسير لنصف ساعة، حتى بلغنا شاطئ «نهر آمو» في الساعة الثانية عشرة تقريبًا. لم يجرِ بيننا أي حديث أو حوار. ولما وصلنا إلى شاطئ النهر غسل الشابان وجهيهما وأيديهما وجلسَا في مكان، فجلستُ على بُعد مسافة قليلة منهما، ولم أكن أكلت منذ الصباح، وكنت أتضور جوعًا، فأخرجت من كيسي الهديّة الخاصة من شهرسبز «كُوماج» -وهو خبز خاص يُصنع بوضعه على رماد الجمر-، وبعضًا من

عناقيد العنب، وذهبتُ بهما إلى الشابين فسلّمتُ عليهما ووضعته أمامهما ودعوتهما للطعام حسب التقاليد الأوزبكية: «يول بولسون هارمنگ لر»، أي: سهّل الله سفركم بغير تعب ولا نصب. فردَّا عليّ السلام والتحية، وقاما يصافحاني بدماثة ثم جلسنا جميعًا، فأخرجا من كيسهما «تالقان» ووضعَاه أمامي ذلك «تالقان» (وهو سويق تركستاني: يُطهى الدقيق والأرز أولاً ثم يمزج مع السكر ويُطعن كل شيء معًا. وعند الضرورة يتناول قطعة من التالقان ويشرب معه الشاي الأخضر أو الماء. وله أهمية كبيرة خاصة في أيام الحرب إذ يمكن الاكتفاء به)، فسألني أحدهما:

«هل تزور المقبرة؟».

أنا: «نعم».

«هل ستلتقي بالقارئ مسعود؟» سألني أحدهما.

أنا: «أي مسعود تقصد؟».

«القارئ مسعود من سكّان پايتُوق؟» بيّن لي أحدهما.

وقعت في حيرة، فإن قبل سنتين تقريبًا كنت ذهبت إلى «أنديجان» لاستخراج جواز السفر، وكنت نزلت في داره في «پايتوق»، ففضّلت ألا أجيب عن هذا السؤال.

وبعد الفراغ من الطعام والشراب سرنا نحو قرية «إمام جعفر»، وكانت هذه القرية عامرة على جانب من النهر حتى وصلنا إلى مسجد رائع جميل. وكان مبنيًا من الحجر بجانب شط النهر، وكان جزء كبير منه ممتدًا داخل النهر، وكان منظر المسجد ساحرًا، وكان نهر آمو يجري من جهة «ترمِذ» ويواصل جريانه تحت المسجد فيرتطم بأعمدته. كان المدفن يقع بجانب المسجد. لما دخلتُ في المسجد من بابه الصغير رأيت أن «القارئ مسعود» كان يتجول ويمشي في صحنه، ثم التفتُ إلى الخلف فلم أرَ أصحابي!

كان عدد المصلين الحاضرين في صلاة الظهر قرابة ثمانية رجال، وكان «القارئ مسعود» يؤمّنا في الصلاة. وبعد الانتهاء منها جلس المصلّون في حلقة الدرس، وكانت تلك عادة رائجة في تركستان كلّها. كان الناس يجلسون بعد الفراغ من الصلاة، ويتلو أحد الحاضرين ما تيّسر من القرآن الكريم، ثم يترجمها الإمام ويُفسرها. فطلب مني الإمام أن أتلو شيئًا من القرآن الكريم، فجرت على لساني سورة الإنسان، فتلوتُ السورة كاملة مرتلًا بصوت حسن، فطرأت على القلوب حالة خشوع عميقة، وبكى الجميع وذرفت دموعهم فصرتُ أبكي معهم!

جرت حلقة الدرس لمدة ساعة تقريبًا، ثم خرج المصلون إلى بيوتهم، وانطلق الإمام إلى غرفته، وظللت جالسًا في مكاني مغمضًا عيني. وفجأة تذكرت الاستخارة التي كنت عملتها في «مسجد مغاك» في «بخارى»، وتلك الرؤيا التي رأيتها في تلك الليلة.

فقد رأيت كأني اقتنيت تذكرة قطار لمدينة «تِرْمِذ»، وركبتُ القطار، فتوقف في بيداء بعيدة عن العمران، وكان الناس يسمّون هذا المكان بإمام جعفر، وبدأ بعضهم ينزل، فأسأل أحدهم: هل أنزل أنا أيضًا؟ فيجيب الرجل: لا، محطتك بعيدة جدًا من هنا، وتصل إليها في الليل. وفي أثناء ذلك ينزل شابان من القطار، ويبدو من مظهرهما أنهما من وادي «فرغانة»، فأتبعهما وأمشي خلفهما لكنهما يظلّان يبتعدان عني، ثم أدخل مسجدًا بُني قريبًا من مدفن، وتقام صلاة الظهر بعد مدة قليلة، ويجلس الناس بعد الصلاة في حلقة الدرس، ثم أشرع بتلاوة سورة الإنسان: ﴿ **هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً** ﴾ [الإنسان: ١]. فيبكي الإمام بكاء شديدًا، ثم أسير إلى أفغانستان وأدخل في حدودها، فيأخذني ١٢-١٣ شابًا أفغانيًا، ويختلفون في شأني فيما بينهم، إلا أنهم يعاملوني معاملة طيّبة، ويطعموني ويواسوني، فأشعر بالراحة، ولا أحس في قلبي

شيء من الحزن والخوف والأسى. ثم تنفتح عيناي وأستيقظ.

هكذا فقد تحقق الجزء الأول من هذه الرؤيا أمامي واقعيًا بالفعل[1]، فازداد إيماني ويقيني بما قاله رسول الله ﷺ: «إذا همّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة»[2] فطرأت علي حالة غريبة، وسرى في دمي حماسة واندفاع وشعور عاطفي قوي، وفجأة خرجتْ من فمي كلمات باللغة التركستانية، وصحتُ بها:

«يا الله! إنني أومن بك، لا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء، أنت الحافظ القادر، أنت الرزاق، وأنت السميع والبصير، والموت والحياة بيدك، والشيوعيون جهلاء وغافلون وظالمون، إني أفوّض أمري إليك وأستعين بك».

وعندما سمع القارئ مسعود هذا الثناء والحمد، خرج من غرفته، فقال:

«أيها الشاب المسافر! أين تقصد؟».

أنا: «كَركي».

القارئ مسعود: «هل لديك تصريح؟».

أنا: «وما ذلك؟».

القارئ مسعود: «التصريح هو رخصة للسفر والانتقال، يجريها القائد في الجيش الشيوعي».

أنا: «إذن أعدّها لي من فضلك».

---

(١) وهكذا تحقق الجزء الأخير من رؤياه كما حكاه في رسالته المرسلة إلى أحد أصدقائه في عام ١٩٤٤م، وقد أُلحقت تلك الرسالة في ترجمة الكتاب باللغة الفارسية.

(٢) رواه الإمام البخاري (رقم: ٦٣٨٢) من حديث جابر رضي الله عنه.

القارئ مسعود: «هل لديك نقود؟».

فقدّمتُ لها خمسة روبلات، سرّ بذلك القارئ مسعود وسألني: «هل أبقيت لنفسك شيئاً؟».

أنا: «نعم، الكثير من فضل الله عز وجل».

كنت قد اشتريت من «قرشي» عددًا من الأقمشة والثياب، ولما ذهبت إلى شهر سبز باعها لي تيمير بك بربح وفير، وعند الرحيل سلّمني النقود، فأخرجتُ منها نصفها وقدّمتها للقارئ مسعود، وقلتُ: «اصرف هذه في نفقتك وحاجاتك، فمن يدري لعلها تضيع مني».

فأصابت القارئ حيرة، فقال:

«يا شاب أنت مجنون! إنك في حاجة إلى هذه النقود، فإن أهل كركي ليسوا أصحاب جود وكرم مثل أهل نمنگان، كما أن الرحمة والشفقة في قلوبهم قليلة جدًا. ثم سألني:

«هل أنت أعظم خان النمنكاني؟».

أنا: «نعم». فبدأ القارئ مسعود يعرّف بنفسه.

بدت البسمة في وجهي وقلتُ: «إنني عرفتُك عندما رأيتك! ولقد أخبرني الشابان الفرغانيان بأنك تقيم في إمام جعفر». ثم بدأ يذكر لي ذكرياته في الأيام الماضية، فعندما توفي العلامة «ثابت خان»[1]، قَدِمَ العلماء البارزون الكبار إلى «نمنگان»، وأقاموا في بستاننا. وكان القارئ مسعود ممن حضر تلك المجالس، ثم بدأ يحكي لي

(١) **الشيخ أبو المعاني ثابت خان النمنكاني:** أحد علماء تركستان البارزين في زمانه، اشتهر بالتأليف، والتدريس، والدعوة، والإفتاء. توفي سنة ١٣٤٦هـ.

بعض الذكريات والمواقف التي شاهدها هناك. وكان يبكي في أثناء حديثه بكاءً مريرا بالتأثر.

ثم غيّر القارئ مسعود الموضوع وقال:

«أنا أقيم هنا في قرية إمام جعفر منذ سنة ونصف. لقد تأثرتُ بقراءتك جدًا بعد صلاة الظهر، ولا سيّما عندما قرأت الآية ورددتّها مرارًا ﴿ **فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِماً أَوْ كَفُوراً** ﴾ [الإنسان: ٢٤]. فتذكرت وجوه هؤلاء العلماء الأفذاذ والمشايخ الكبار وأبطال بلاد التركستان الذين تمثلوا بهذا الحكم الرباني. لقد حاول الشيوعيون إغراءهم بشتى الوسائل ليسيروا معهم في دربهم، ولكن لم يفلحوا! فماذا فعلوا؟ لقد اختاروا طريق الظلم والجبروت فعذبوهم أشد تعذيب، ومع ذلك لم تتزلزل أقدامهم، ولم يفزع مقدامهم حتى استُشهدوا على تلك الحال.

هؤلاء الظلمة أخذوا الشيخ «القاضي عبد المجيد خان» من بيته في الليل المظلم وذهبوا به إلى الغابة وضربوه ضربًا شديدًا حتى انجرح وسالت جروحه دمًا غزيرًا ثم دلّكوا جسمه بالكِلس، وأهالوا عليه الرماد الحار بعد أن طرحوه في الحفرة وقالوا: «إذا كنت تتبع ما نقوله، سنتركك تذهب!» فقرأ هذا الرجل الشجاع هذه الآية من القرآن، ثم دُفن في الجير وهو في حالة مفارقة الحياة.

وهكذا أُخذ الشـــيخ «محيي الدين» ثم قيل له: "لو اعترفت بأن لينين مساوٍ لمحمد ﷺ -والعياذ بالله- وأعلنته بين عامة الناس لأصدرنا قرارًا بأنك وأولادك وأقاربك وأصدقاءك والمحبين لك كلهم فوق القانون، ولا يؤاخذ أحد منهم ولو صدر منهم أشنع الجرائم وأكبرها. فقال الشيخ مخدوم -نوّر الله مرقده- وهو غاية في التحمل والصبر على حاله:

«چه نسبت خاك را با عالم پاك»[1] أي: أين التراب القذر من عالم النقاوة والطهارة؟! فشتّان بين الثرى والثريا! فإن لينين لا يساوي ذلك التراب الذي مشى عليه رسول الله ﷺ. إنه الظالم الطاغية الفاجر العابث الساعي وراء المادّية، وينكر الأمور الغيبية جميعها، وليس ذلك فحسب، بل إنه يسلب حق الحياة كل مَن يعتقد ويؤمن بهذه الحقائق، حتى وإن كان مميّزًا بين الناس في عقله وعلمه وقدراته ومؤهلاته الفائقة!

وبالعكس تمامًا، فقد كان سيدنا محمد ﷺ إنسانًا كاملًا، ومحسنًا عظيمًا إلى الإنسانية، ولقد رأى بعينيه تلك الحقائق التي تغيب عن أعين الناس، ثم دعا إليها، وأخرجَ الناس من الظلمات إلى النور.

فلما سمع الشيوعيون هذا الرد المفحم من الشيخ تميزوا من الغيظ، وجنّ جنونهم فجعلوه في مكان مرتفع، ووضعوا أمامه خمس فرق مسلحة: فرقة استهدفت رأس الشيخ والثانية كتفيه، والثالثة صدره، والرابعة فخذيه، والخامسة ركبتيه. ثم أطلقوا عليه الرصاص في وقت واحد، فتقطع جسده وتجزأ في لمح البصر، ولم يبقَ منه إلا الدم، وبعض الأشلاء من اللحم. ولقد بذلوا غاية جهدهم في إخفاء هذه الحادثة الدامية، وسعوا جاهدين بألّا يطّلع عليها الناس، لكنهم فشلوا في ذلك. ولم يمضِ أسبوع عليها حتى انتشر الخبر على ألسن الناس في كل مكان، وحتى بين الصبيان! وهذا الثبات والرسوخ والبسالة قد زادت في إيمان الناس وتمسكهم بالدين، وأثرت في أنفسهم تأثيرًا عميقًا، ورسخت في إيمانهم عظمة الإسلام وصدقه. وعندما كررتَ تلاوة هذه الآية الكريمة من سورة الإنسان أشرقت في ذهني ذكريات "الشيخ مخدوم" والعلماء الكبار والمشايخ الأفاضل الآخرون،

---

(١) مَثل فارسي.

و تذكرت م شيَهم وذ هابهم وإ يابهم ومجال سهم ومحاد ثاتهم في ب ستانكم، ك ما تذكرت مواقف استشهادهم في سبيل الله. ثم استنشق القارئ الهواء البارد عميقاً، وعاد يقول بعد توقف قليل:

«توره زادَه (يا ابن الشيخ) كيف جئت هنا؟ وأين تقصد؟».

أنا: «جئت لزيارة المدفن في كَركِي[1]، ولعلك تعرف أناسًا في المدينة فعرّفني بهم من فضلك».

القارئ مسعود: «نعم، يقيم رجلان أو ثلاثة ممن أعرفهم».

ثم أفهمني جيدًا كيف أعثر على بيوتهم، ودلّني على الطريق على نحو تام، و قال: «يتجه من هنا مَركب إلى الطريق الآ خر في الساعة الرابعة يوميًا، وعلى العبور يطلبون منك جواز السفر والتصريح، فعليك أن تقول: أنا أخ القارئ مسعود، أريد مشاهدة المدفن هناك وسأرجع، وادّعى بعض زملائي أن طوله سبعة أذرع، فحصل الخلاف بيننا، وأريد أن أتأكد من الأمر بنفسي[2]. فإن تركوك تذهب، فحسن. وإلا فقد تكون الحالة

(١) إن زيارة القبور مستحبة في الشرع، و قد جاء النهي عن قصد السفر لمجرد زيارتها؛ لقول النبي عليه الصلاة والسلام: "لا تشدّوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد". رواه مسلم (٢/٩٧٥) من حديث أبي سعيد الخدري. **يُنظر للمزيد:** إحياء الآثار – دراسة عقدية، منيرة المقوشي (صـ٣٠٠-٣١٩، صـ٥٣٤ وما بعدها).

(٢) بما أنه جاء في بداية الكتاب و سيأتي مجددا أيضًا بعض إشارات المؤلف في مسألة تشييد القبور والسفر بقصد زيارتها، وبناء الأضرحة وتعظيمها في مجتمعه، يجدر بنا نقل ما قاله الأستاذ أبو الحسن الندوي عن هذا الأمر إذ حلّله تحليلاً جيـداً، فيقول: "وكانت النتيجة الحتمية لهذا الإجلال والتعظيم أن تتزايد أهمية المشاهد بإزاء المساجد... فقد انتشرت هذه المشاهد والمزارات في كل ركن من أركان العالم الإسلامي، ووجدت آلاف مؤلفة من القبور المزورة، وتصدى الأمراء والسلاطين لوقف الممتلكات والأراضي الواسعة عليها، وأقيمت عمارات ضخمة وقباب فخمة في أمكنة هذه القبور ومشاهد المشايخ، كما وجدت أمة بأسرها من العاكفين والكناسين =/=

محرجة والقضية صعبة، ففكّر الآن جيدًا».

فأخذتُ كتاب «دلائل الخيرات» و«المصحف الشريف» الذي أعطتنيه أمي، وربطتهما على كتفي، وأعطيت بقية المتاع بما فيه من الساعة الجيبية النفيسة، وألفيْ روبل إلى القارئ مسعود مع الحقيبة، وقلتُ له: «ضع كرمًا هذه الأشياء عندك، وإن تمكنتُ من التخلص من أيدي الجيش الروسي وعبرتُ النهر أبلغك عن حالي بوساطة هؤلاء الذين ذكرتَهم لي، فإن سمحت الأوضاع بإرسال هذه الأشياء فافعل. لكن إن وقع عليّ القبض، سأرفض أي صلة لي بك، وكذلك تُنكر أنت معرفتي».

تسلّم القاري المتعلقات الشخصية، فسِرتُ بعد أن سلمت عليه، فلما اقتربت من باب المسجد جاء نحوي وأمسك قدمي وهو يبكي، ويقول: «يا ابن السيد الشريف! إنني شقي كبير، أشهدك أني أتوب الآن، وادع الله لي أن يغفر لي ذنوبي، فإني عاص ومجرم كبير!».

اختنق صوته بالبكاء وأُرتج عليه، وكنت أفكر قائمًا متحيرًا «يا إلهي! ما الذي جرى؟» وظلّ القارئ يردد: «أتوب إلى الله...أنا تائب...أنا مجرم كبير...». ثم هونت عليه قليلًا، وقلتُ له: «إن الله توّاب غفور، يقبل التوبة عن عباده». فسلّمتُ عليه وخرجت من المسجد.

ثم انكشف لي فيما بعد أمر القارئ مسعود، فقد كان قد ركب موكب الشيوعيين،

والخدم لهذه القبور. ونالت الرحلة إليها كل إعجاب، حتى بدأت تصل قوافل الحجاج إليها من مسافات بعيدة ... وفي القرنين السابع والثامن دخلت هذه المشاهد والضرائح في حياة المسلمين الدينية، ونالت عندهم من القبول والمركزية ما جعلها تنافس بيت الله وتتحداه". ينظر: رجال الفكر والدعوة (٢/١٧٩-١٨٠).

والتحق بالشرطة السرّية وقايةً لنفسه من ضرر محدق!

لم يكن المرفأ بعيدًا، وكان المركب مستعدًا للإبحار، فجلستُ على ناحية من المركب. تبدأ أراضي بلاد «تركمانستان» بعد عبور النهر، وتتصل حدودها بدولة أفغانستان. وتُعدّ «كركي» من المدن الكبيرة العريقة في بلاد «تركمانستان»، وفيها مدفن منسوب إلى رجل صالح وصاحب علم يقال له: «معروف الكرخي»، وإليه تنسب هذه المدينة[1]، وهي مدينة عظيمة.

لما قطع المركب نصف المسافة بدأ عسكري بجولة تفقدية، وجعل يفتش التصاريح وجوازات السفر (لغير المواطنين)، وفي النهاية قدم نحوي وطلب مني جواز السفر، فقلت: «أنا مواطن».

الجندي: «حسنًا...أرِني التصريح!» قالها بتهكّم.

أنا: «أريد أن أرى المدفن هناك، وسأرجع بعد ذلك».

فاشتعل الجندي غضبًا، وصفعني الظالم العابث على وجهي بكلّ ما أوتي من قوة، فزلّت قدماي وتزلزلت الأرض من تحتي، وشعرتُ كأن الأرض تدور من حولي وتتحرك، ووقعت في النهر!

من حسن حظي أنني أجيد السباحة، وأستطيع المكوث تحت الماء بنفَس واحد عميق مدة طويلة، وعلى الفور تمكّنت من السيطرة على نفسي، ودفعتُ بدني بقوة كاملة إلى

(١) لعل اسم «كَرخي» تحول إلى «كَركي» بعد مرور الزمن، فهي إحدى مدن تركمانستان الآن، ومعروفة إلى يومنا بهذا الاسم.

الأعلى، وفي الوقت نفسه سمعت أصواتًا متتالية من أعلى سطح الماء. كان الجندي يطلق الرصاص نحوي من مسدسه بشكل متتابع، إلا أنني كنت قد انحرفت بعيدًا إلى الجهة الجنوبية منه. وهكذا ظلمت أسبح في النهر قرابة ٢٠-٢٥ دقيقة متتابعة بشعور كامل وإحساس تام، وإذا انقطع نفَسي أخرجتُ رأسي إلى سطح الماء وتنفست وعدتُ أكمل السباحة. لاحظتُ في أثناء السباحة أن المركب ابتعد عني كثيرًا، وكان على وشك الوصول إلى الجانب الآخر. كانت مياه النهر شديدة البرودة، وصار جسدي متجمّدًا من طول المكث في المياه، وظلّت قوتي تضعف وتنتهي.

وفي النهاية صرتُ أفقد الوعي والشعور، حتى وجدتُ نفسي بين نبات القيصوب، وكان «المصحف الشريف» و«دلائل الخيرات» في الكيس كما كانَا، وكنتُ منهكًا، فما زلتُ في مكاني ساكنًا لا أتحرك لمدة طويلة. ثم خرجت زاحفًا رويدًا رويدًا ومسكًا بالقيصوب. لقد تجرحت يدي ورجلي. وصلت إلى الشاطئ قبيل المغرب، فأردت أن أقف لكن ساقي لم تساعداني، فزحفت إلى مكان متسع مستلقيًا على بطني، فبدأت الدماء تجري في بدني، والدفء يسري فيه، وصارت الأقدام صالحة للقيام والمشي.

خررتُ ساجداً لله على ما رزقني الله الحياة مرّة ثانية وأعاد إلي قواي، فأكثرتُ من الشكر والحمد والثناء لمولاي وخالقي لمدة طويلة. ولما رفعت رأسي بعد نحو ١٥-٢٠ دقيقة شعرت أن القوة رجعت إليّ كاملة، وكأن شيئًا لم يحدث لي.

كانت الليلة مقمرة، وكانت الغابات الهادئة الساكنة ممتدة إلى بُعد شاسع، ولعل «كركي» تقع على مسافة أميال من هنا إلى جهة الشمال! وكان على ساحل النهر نبات القيصوب، وهو يمتدّ إلى مسافة بعيدة، وكان قائمًا يرفع رؤوسه، والريح تهبّ عليه. وثيابي كانت مبللة، فبدأت أشعر بالبرودة وجسمي عاد للاضطراب، فلجأت إلى أشجار

القيصوب الكثيفة وجلستُ خلالها، كان هناك كومة من أوراق القيصوب في مكان مفتوح، فكأن القدرة الإلهية قد فرشت لي مهدًا وثيرًا، فنمت عليها طوال الليل في راحة وسكون كامل. ولما طلع الفجر استيقظت وأذنت وصليت الفجر، وعند طلوع الشمس خرجت من بين القيصوب، وبدأت أمشي، وأستمتع بمنظر النهر وأمواجه.

بعد أن مشيت قرابة فرلنغين اثنين[1]، واجهت غابة كثيفة فولجتها، فإذا القدرة الإلهية تجلّت أمامي. وكان من بين الأشجار المختلفة أشجار التوت، وكانت مثمرة بألوان التوت اليانعة الناضجة من الأبيض والأحمر والأصفر والأسود، فجرى على لساني الحمد والثناء لله جلّ وعلا، وازداد إيماني ويقيني بأن الله هو «الرزاق»، وهو «الكريم الودود». أكلتُ من التوت حتى شبعتُ ثم خرجت من الغابة، وبدت لي مشارف مدينة تظهر أمامي من بعيد، فسرت في اتجاهها، وبلغت فناء المدينة قبل زوال الشمس. وكان قد اضمحلّ جسدي من التعب الشديد، فافترشت تحت ظل شجرة أستريح قليلًا لكن النوم غلبني، ونمت مدة طويلة. استيقظت فجأة مذعورا على جلبة عالية وأصوات غير اعتيادية. سبحان الله! خمسة رجال متماسكين أقوياء يتكلمون بأصوات مرتفعة جدًا، وجوههم توحي بالخوف والرعب، وكانت شواربهم طويلة غليظة، فزاد ذلك فيّ رعبًا. يبدو من مظاهرهم أنهم ليسوا من الأتراك. كانوا يتحدثون في أمري، فاستقر رأيهم أن يحملوني معهم، فتقدّم نحوي أحدهم وسألني بالفارسية: تو كيستي؟ از كجا آمدي؟ چه اراده دارى؟) أي: من أنت؟ من أين أتيت؟ وإلى أين تذهب؟

فأشرت إليه بيدي أني لا أفهم ما يقول! فذهبوا بي إلى مكانهم، وهي دار عظيمة.

(١) أي نحو ٤٠٠ متر.

فدخلنا قاعة كبيرة، وكان فيها سبعة رجال آخرين مثلهم في الرعب والهيبة. وكان يُطبخ في ناحية من القاعة مرق الديك، وريحه قد ملأ القاعة. فأقعدوني على سرير، وانشغلوا في التحدث، وكان حديثهم عني. الرجل الذي أحضرني إليهم قدم لهم تقريرًا عني، وكان الرجال السبعة ينظرون إليّ خلال ذلك الوقت مرة بعد أخرى! وبعد مدة قليلة أُحضر الطعام فجلسوا يأكلون، وأشركوني معهم في الطعام أيضًا. ولما انتهينا عادوا إلى الحديث في قضيتي، وفتح رجل منهم الكيس الذي كان معي. فلما رأى فيه كتابين بقي متحيّرًا!

«ما هذا الشيء؟» سألني بوساطة رجل منهم.

أنا: «دلائل الخيرات، والمصحف الشريف».

الرجل: «لماذا هما مبتلّان؟».

أنا: «وقعتُ في النهر، ثم نجوت بعد صعوبات».

الرجل: «حسنًا.. جَفّف المصحف في الشمس أولاً ثم نتحدّث». قاله رجل آخر وكان ألين وأشفق منهم. فخرجتُ إلى ناحية من تلك الدار التي فيها أشعة الشمس، وجلست أجفف من المصحف الشريف ورقة ورقة، فارتفعت أصوات الرجال واشتد غوغاؤهم. وبعد مدّة يسيرة قدم إلي ذلك الرجل الليّن، وقال لي بالفارسية مع الإشارة: «يا فتى! يمكنك أن تذهب لكن بسرعة، ولا تمكث هنا لحظة واحدة، فاهرب بسرعة. إنك محظوظ، لقد نجوت»! ثم قال بالفارسية وهو يحرّك يده ويشير بأصابعه: «إن المكان الذي كنت تستريح فيه يقع على مسافة قريبة منه جامع الشيخ الكرخي فانزل فيه». فقمتُ فورًا، وسرت نحو الغابة هاربًا من تلك الدار.

ثم لما تيسّر لي أن أقيم في «كركي» مدة شهرين ونصف، علمتُ أن هؤلاء الرجال كانوا من الأفغان، ومن رجال الحاكم في مدينة «مَزَار شَرِيفْ»[1]، وهم يعملون للمحكمة السرّية الروسية. وكان واجبهم أن يقبضوا على المهاجرين إلى أفغانستان، وكان القارئ مسعود الذي تاب أمامي من عملاء هذه المحكمة السرية. ولقد ألقى الله عز وجل في قلوب هؤلاء الجواسيس رأفة ورحمة، فتخلصتُ من أيديهم وإلا من يدري كم من مهاجر قبضوا عليه وسلّموه إلى الحكومة السوفيتية!

وصلتُ إلى حدود الجامع وقت غروب الشمس، فرأيت أمامي مسجدًا كأنه قلعة عظيمة، فدخلته فإذا صحنه واسع، ومبانيه عظيمة، وفيه حجرات كبيرة، ومدرسة، وإجمالًا كان المسجد مثالًا رائقًا للمرافق والمزايا التي تتوفر في مساجد تركستان. وكان يقع في الجهة الشرقية من المسجد قبر كبيرٌ (يقال إنه) مدفن الشيخ معروف الكرخي[2].

وفي أثناء ذلك ارتفع صوت الأذان، وكان المؤذن أسود اللون، ولم أر في بلاد تركستان كلّها رجلًا زنجيًّا مثله، فصلّى بنا هذا المؤذن، وكان المأمومون رجلين اثنين: أنا وشخص آخر! وهذا الرجل غادر المسجد دون أن يصلي السنّة الراتبة. وأما الإمام فصلى السنّة الراتبة ثم خرج. وصليتُ السنة الراتبة والنوافل، وقمت أذهب إلى جهة المقبرة، وكان الإمام قائمًا على الباب ينتظرني، فلما رآني أذهب إلى تلك الجهة، صاح بلهجته التركمانية: «الطريق من هنا!» وأشار إليّ أن أخرج من المسجد، ولم أكد أخرج من الباب

(١) مدينة أفغانية مشهورة.

(٢) سبق التعليق عن الأمر قبل صفحات فليراجع مشكورا. وزيارة القبور مستحبّة في الشرع، وجاء النهي في قصد السفر لمجرد الزيارة، لقول النبي عليه الصلاة والسلام: "لا تشدّوا الرّحال إلا إلى ثلاثة مساجد". رواه مسلم (٢/٩٧٥) من حديث أبي سعيد الخدري.

حتى أغلق الإمام باب المسجد من الداخل.

لقد جنّ الليل وغشيت الدنيا ظلماته، ووقعتُ في حيرة شديدة، فظللت أفكر قائمًا: «أين أقصد في هذه الليلة السوداء المظلمة؟» فدرتُ حول المسجد دورة كاملة، كانت جدرانه ضخمة شامخة جدًا، وكانت الجهة الشرقية تحتوي على نحو ٢٠-٢٥ فدانًا من الأراضي الزراعية، وكانت معدّة وجاهزة للزراعة. وكانت تقع على مسافة قليلة بئر عظيمة، وفي القرب منه شجرة توت ضخمة، وأغصانها ممتدة متماسكة ومتشابكة، وكانت ممتدة إلى أكثر من مئة قدم مربع، وكانت هذه الأراضي مع البستانَين المتصلة بالمدفن وقفًا للمسجد وتوابعه، لكنها سُلّمت حاليًا إلى «كُولْخُوز» (مزرعة تعاونية جماعية)[1].

صعدتُ على شجرة التوت، واتخذتُ من أغصانها المتشابكة القوية مسكنًا لي، وكانت سرج الإبل والفرش والسرر البالية مبثوثة حول البئر، فأخذتها واستخدمتها فراشًا وثيرًا، وصلّيت العشاء ونمت في مسكني على الشجرة.

استيقظتُ من النوم قبيل وقت السحور، ونزلتُ من الشجرة وتوضأت من حوض الدواب والأنعام، ثم صلّيت ركعتين وناجيت ربي ودعوته لمدة طويلة، وفي أثناء ذلك غفوتُ قليلًا، وعندما استيقظت كان قد دخل وقت الفجر، فذهبت إلى المسجد ورأيت الباب مغلقًا، فطرقته مرة تلو الأخرى، لكنها لم تعُد إليّ بنتيجة، وفي آخر الأمر أدّيت

(١) **الكولخُوز:** مصطلح روسي يُستخدم للإشارة إلى المزارع الجماعية في الاتحاد السوفيتي، ويرتكز على فكرة توحيد الموارد الزراعية واليد العاملة تحت إدارة جماعية بإشراف الدولة. **ينظر للمزيد:**
https://www.britannica.com/topic/kolkhoz

الصلاة عند الباب. تذكرت معاناة المسلمين في تركستان وما مرّوا به من شدائد و عذاب، وابتلاءات في دينهم وإيمانهم، فانهرتُ بالبكاء عليهم وعلى محنتهم، ودعوت الله الكريم أن ينقذهم ويحفظ إيمانهم ودينهم من هذه المحن الشديدة. ثم قمتُ وسرتُ نحو الغابة بعين مبتلة بالدموع، وصعدتُ على تلّة مرتفعة، وظللت أتلو القرآن الكريم وأكلت من التوت حتى شبعت جيّدًا. وكان هذا المكان ملجأ لي في الأيام القادمة، أقضي الليل في المسكن على الشجرة، وأسدّ جوعي بأكل ثمار التوت.

ارتفعت الشمس فخرجت من غابة التوت، ورأيت عددًا من الشباب يعملون في تلك الأرض الزراعية المحروثة، ويصنعون المنابت لنثر البذور فيها، فدنوتُ منهم وألقيت عليهم تحيّة الإسلام دون تردد، ودعوتُ لهم وفق عادات الأتراك: «هارْمِنْگْ لَرْ» أي: طابت أعمالكم بغير تعب ونصب.

فردّوا عليّ التحيّة برغبة واهتمام، وبدا لي أن هؤلاء الشباب فلّاحون جُدد، فكان عملهم يفتقر إلى المهارة أو الإتقان، إذ لم يكن في عملهم أي إتقان أو مهارة تُذكر!

«ماذا تزرعون في هذه المَنابت؟» سألتُهم.

«الطماطم» أجابوني.

«الطماطم؟!!» أظهرت حيرتي ودهشتي.

قلت لهم: «إن هذه الأراضي لا تصلح لزراعة الطماطم، إذ أن الماء لا يمرّ فيها بنحوٍ جيّد مما يؤدي إلى بقاء الأرض مبللة بالطين، وقبل أن يجفّ الطين ينقضي موسم الطماطم، فيذهب جهدكم سدًى!»

فرح الفلّاحون وأخذوا يقولون: « بارك الله فيك أيها الفتى! فأخبرنا كيف نجعل الأراضي مهيئة لزراعة الطماطم؟».

إن زراعة الخضروات في فرغانة لا تنحصر على أهل القرى فقط، بل يزرع أهل المدن أيضًا في حدائقهم وبيوتهم أصنافًا من الخضراوات والطماطم والفجل واللفت والجزر وغيرها. ومن ذلك حصلت لديّ مهارة وخبرة في هذا المجال، فعملت معهم طوال ثمانية أيام. فلما انتهى العمل، أعطوني الأجرة المعينة، وأعربوا عن فرحتهم بطريقة أخرى بطلبهم من الشركة تقديم ٤٠ روبلًا إضافية تقديرًا لجهودي.

ذات يوم كنتُ منشغلًا في الزراعة فأتى رجل أبيض مشرب بحمرة إلى مزرعتنا، راكبًا على فرس، وكان ذلك في الساعة الثانية عشرة أو الواحدة. فأدّى له رئيس المزرعة تحيّة عظيمة، نزل الرجل عن فرسه وظل يشاهد ويراقب الحقل الزراعي، وفي يده عصا، وفجأة تعثر وسقط على الأرض وهو يتجول، وجرح منه قدمه فذهب به الفلاح إلى المستشفى. وهكذا انجلت عني هذه المصيبة!

كان هذا الرجل عضوًا في الحزب الشيوعي، ومفتشًا عامًا، وكان يهوديًا، فلما أتى الرجل نحوي وسألني عن وجودي في الحقل لنشأت مصيبة وبلية جديدة. وهكذا أنقذني الله العظيم من فتنته ونجّاني من شره.

وخلال أيام معدودة اختلطت بالفلاحين التركمان فاتخذت لباسًا مثل لباسهم وجعلت من نفسي واحدًا منهم بالمظهر والهيئة. وكنتُ أذهب إلى بيوتهم دون تردد، ولا أبخل في مساعدتهم في الزراعة، بل أقوم بما يحتاجون إليه في المدينة، وهكذا بدأت أروح وأجيء إلى «كركي». التقيت بالرجال الذين ذكرهم لي القارئ مسعود، وحصلت على الأمانة التي تركتها عنده.

ثم بدأت أيام الخريف وبدأت أوراق الأشجار تتساقط. وصار مسكني فوق شجرة التوت غير آمن. وقد حصلتُ على أجرتي من اليهودي مدير المزرعة، وأهل تركستان

يُسمون اليهود «جهود». فأعطيت الجزء الكبير من أجرتي للفلّاحين الذين يعملون عند البئر، فصاروا أكثر شفقة ورأفة بي وازدادت محبتهم لي، وجهّزوا لي حجرة من الحجرات الوقفية حول المسجد، وكذلك أعطوني شهادة مكتوب فيها: «إن هذا الرجل خبير الزراعة، والقيّم على طماطم أوزْبكتُور (مدير الحقل)».

فكانت هذه الشهادة مفيدة جدًا، وبها صرتُ أجول في المدينة حرًا دون عوائق، أقضي وقت الظهيرة في المدينة غالب الأحيان.

ذات يوم اشتريتُ من المدينة ثمانية أقراص خبز تركماني (الخبز التركماني يكون عادة كبيرًا، والواحد منه يكون وزنه كيلو ونصف)، فرفعتها على رأسي وانطلقت إلى طريق منطقة جامع الكرخي، وكنت قد سلكتُ على غفلة مني طريقًا غير المعتاد، ولما بعدت عن المدينة كثيرًا، شعرتُ بأنني أسير في طريق مخيفة غير آمنة، فمرّت بي شاحنة عسكرية بعد دقائق عدّة، وبدا لي أن أرجع لكن قوّة مجهولة ما زالت تجذبني إليها، فصرتُ بعيدًا عن المدينة، وظهرت لي قلعة على الجانب الشمالي من الطريق، وكان الجنود يحرسون مواضع منه، وتبيّن لي فيما بعد أن هذه القلعة مقرّ رئيس المنطقة، فنزلت في الخلاء الواقع في جنوب الشارع لأختفي عن أعين الجنود.

فلما سرتُ أكثر من نصف كيلومتر تقريبًا رأيت الغبار قد انتشر في الهواء، وتقدمت نحوي قافلة، فبقيت واقفًا متضايقًا مختنقًا. ولم تكن هذه قافلة للتجار، بل كانت للفتيات الأسيرات، احتوت على ما يزيد عن ألف أسيرة، تتراوح أعمارهن بين ١٢ و٢٥ عامًا، وقد بدت عليهن علامات الضعف والهزال، وجوههن مغطاة بالغبار، وملابس أكثرهن ممزقة، وكان يظهر جليًا من وجوههن وثيابهن أنهن من عائلات كريمة شريفة، وبنات الأغنياء والوجهاء. وكان في يد كل فتاة مجرفة وفي قدميها «چاروق» (نوع من الحذاء يصنع

من جلد غير مدبوغ، يلبسه الرعاة والعمال). وكان يسوقهن قرابة خمسين جنديًا كما تُساق الشياه والغنم. فرآني أول فريق من الفتيات، فتقدمن نحوي وأحطن بي، ولما رأين على رأسي الخبز، قلنَ بلهجة أوزبكية:

«آكا (أي: الأخ)! هل أنت خبّاز؟».

قلتُ: «لا، إلا إذا كنتن في حاجة إلى الخبز يمكنكن أن تأخذنه مني». فقطعت الخبز خمسين قطعة تقريبا وقسّمتها بين الفتيات. وكانت الفتيات كلهن من أهل «بخارى»، و«سمرقند»، و«طاشكند»، و«خوقند»، و«أنديجان»، و «نمنگان»، و«خُجَنْد»، و «كاگان»، و«قَرشي»، وغيرها من المدن.

فلما سألتهن أجهشن بالبكاء وجعلن يقلن: «نحن قرّة عيون العلماء والتجّار وزعماء الوطن والقادة وغيرهم من الوجهاء والنبلاء. لقد سُلبت منا حقوقنا الأساسية كما سُلبت من آبائنا وأمهاتنا وأزواجنا ونُفينا عن بلداننا. أما آباؤنا وأمهاتنا فإما قتلوا وإما نفوا إلى بلاد نائية أخرى، وهنا نكلّف بالعمل ست ساعات في النهار، وأربع ساعات في الليل أعمالًا مختلفة.

«من أي مكان ترجعن الآن؟» سألتهن.

«من الحقول الزراعية».

فما انتهتْ من الإجابة حتى قدم الجنود المراقبون، فقال واحد منهم باللغة الروسية بطريقة فظّة غليظة: «من أنت؟». كانت عيناه جاحظة غضبًا وغلظة.

فقلت في نفسي: لا خير اليوم! وصرتُ أفكّر فيمَ أجيب، حتى بدأت الفتيات يقلن: «هذا الرجل خبّاز، ولقد أكلنا خبزه، فهو يطلب الآن ثمن خبزه». حزن قلبي من حكايات الفتيات المظلومات المبكية، وتألّم فؤادي من عجزهن وضعفهن، وضاقت نفسي حين

رأيتهن مقهورات في مخالب الشيوعيين، فاشتعل الجندي الثاني صارخًا كالثور: «هل صحيح ما قلن؟».

لم أقدر على أن أتمالك نفسي حين سمعت صراخه ففاضت عيناي بالدموع و صرت أبكي بشدة. ظنّ الجندي أنني خباز مسكين وأبكي على خبزي، فنظر إليّ بلطف. وفي أثناء ذلك وصلت الفتيات الباقيات. وفي النهاية كتب لي المراقب الكبير رقعة، لأحصل بها على ثمن خبزي، وقال: «احضر هنا غدًا واستلم ثمن خبزك».

نسيت أن أذكر أن المكان الذي حدث اللقاء المفاجئ فيه بيني و بين الفتيات كان سجنًا، فجرى استعراضهن عند الدخول إلى السجن، ففعلن شيئًا حسنًا فطنًا و بديعًا، فأخذن يجهرن بأسمائهن وأسماء آبائهن ثم يدخلن من الباب لكي أطّلع على أسمائهن وعناوينهن، لكني لم أستطع سماع إلا أسماء معدودة، قالت إحداهن:

«باطور باي قزي خديجـــه من اندجان ليك» (أي: خديجة بنت باطور باي، من سكان أنديجان).

وقالت الثانية: «اندجان ليك توردى داملا قزي تورسن اى»، (أي: أنا تورسون بنت توردي دامْلا من أنديجان).

وقالت الثالثة: «نمنگان ليك اسماعيل جان قارى داملا قزي زبيده ديدور لار» (أي: أنا المدعوة زبيدة بنت إسماعيل جان من نمنگان).

وأرادت الرابعة أن تجهر باسمها مفصّلًا لكن المراقب صاح قائلًا: «اذكري الاسم فقط». ثم توجّه إلي وهو يضغط على أسنانه مغتاظًا و يرميني بنظرات غاضبة: «لماذا ما زلت قائمًا هنا؟ اذهب وإلا...» قاله وهو يصرخ. فرجعت من ذلك المكان متألّمًا متضايقًا.

رجعت أدراجي إلى جهة المدينة ولم أتقدم إلى الأمام كي لا أُتّهم بالتجسس فيُقبض

علي. وكان قلبي ينزف دمًا مما رأيت من الذل والخذلان واللوهن الذي لحق ببنات المسلمين، وكانت أصواتهن ترنّ في أذني ودخلت صور أعينهن الحزينة الكئيبة في أعماق قلبي، وبدأ صوت داخلي يقول لي: يا مسلمي تركستان الغيارى! ما الذي حدث لغيرتكم؟ فهذه بناتكم مقهورات مخذولات بين مخالب الأعداء الأجانب...

لقد كاد صدري ينفجر من الغيرة والحمية، لكن استولى علي الهوان والضعف بعد قليل، وظللت أبكي بشدة بالغة. فلما دنوت من المدينة انحرفت عن الطريق الرئيس، وصعدت على تلّ من الرمال، وسرحت نظري إلى المدينة، فرأيت مسجدًا قريبا من الغابة في جهة الغرب فسرت نحوه، ولما بلغته كان وقت الظهر قد قارب الانتهاء. هذا المسجد كان تابعًا لـ«كاروان سراي» أي: نُزل القوافل والمسافرين، وقد بني أيام العهد الإسلامي، وكانت تنزل فيه القوافل الأفغانية عمومًا، ومعظم المصلين في المسجد من الأفغان أيضًا.

توضأتُ وأديت الصلاة، ولما قمت إلى الصلاة لم يرجع ذهني إلى الهدوء والسكينة فكانت صور تلك الفتيات المسكينات تستولي على ذهني، وصارت أفكارهن وآلامهن تشغل بالي. ولما انتهيت من الصلاة ظللت جالسًا باتجاه القبلة في مكاني وصرت أبكي، وخلال ذلك غلبني النعاس وسقطت على الأرض نائمًا، حتى قدم إليّ رجل كان جالسًا في ناحية من المسجد وسألني قائلًا: «هل تريد أن تذهب إلى أفغانستان؟» فأجبته متسرّعًا: «نعم!» لكن سرعان ما اجتاحني شعور بالخوف والتأسف والحسرة! إن كان هذا عميلًا للشيوعيين. وقد شعر الرجل وأحسّ بمخاوفي بالنظر إلى وجهي، فهدّأني وطمأنني وأشار لي أن أتبعه.

ولما انتهينا من صلاة العصر خرجنا من المسجد وبدأنا ننطلق حتى صار وقت غروب الشمس، ودخلنا دارًا كانت نزلًا أيضًا، وكان يقيم فيها جماعة من الأفغان، فعرّفني

الرجل بهم، وكان طالب علم من الأفغان، وقام خلال السنوات الأخيرة بإيصال كثير من التركستانيين إلى أفغانستان. ثم قال: «سأذهب بك إلى دار الإسلام إن شاء الله، ولدي اثنان من أبناء وطنك أيضًا، وسنرحل في ليلة الغد على بركة الله، فاحضر هنا قبل المغرب من يوم غد.

وفي صباح اليوم التالي خرجت بأمتعتي ووصلت إلى مسجد النُزل، وفي المساء وصل دليلي الطالب الأفغاني وقدم معه الشابّان الفرغانيان وكان على ظهرهما قربتان صغيرتان لملء الماء، وفي أقدامهما چارُوق (الحذاء التقليدي التركي) وعلى رأسهما عمامة أفغانية، فمضت ساعة أو ساعتان للإعداد والتأهب. وكان المكان قد امتلأ بالمسافرين وكلهم من الأفغان، وكان يظهر علينا من الملبس والمظهر أننا من التركمان، وبما أن التركمان يقيمون في أفغانستان أيضًا، فلم ينظر إلينا أحد بريبة أو شك. ورغم ذلك كان قلبي مضطربًا وذهني شاردًا.

أدّينا صلاة المغرب ثم خرجنا واحدًا تلو الآخر، وخلال الساعة العاشرة مشينا مسافة طويلة، وبعدنا عن المدينة كثيرًا، ولما التفت ورائي، بدت المدينة كأنها نقطة سوداء محاطة بأنوار البدر، وكان أمام أعيننا بيداء واسعة ممتدة إلى الأفق. فلما صرنا وسط الصحراء أرشدنا الدليل فقال: «نسير نحن الأربعة على حدة، ويكون بين كل منا مسافة مئتان ياردة[1]. وهذا مهم جداً، فإنه لو صادفنا عملاء الشيوعيين، يجب أن نتأكد من عدم القبض علينا جميعًا. سيكون طريق المسافرين والقوافل عن يميننا، ونحن نسير موازيًا بعيدًا عنه، لكن يجب ألا نغفل عن الطريق حتى لا نضلّ في الصحراء ونلقى حتفنا.

(١) حوالي ٦٠٠ قدم.

لقد راعينا توجيهات الدليل وعملنا وِفقها، فتركنا الطريق وانحرفنا عنه بعيدًا، وبدأنا بالسير في الجهة اليسرى منه، وكان الدليل يتقدمنا ونحن الثلاثة نسير خلفه، وبين كل واحد منا مسافة من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ قدم، إلى أن وصلنا إلى ضفّة النهر، كان هناك جسر خشبي يبعد عنا بمقدار ٢٠٠ قدم، وكان طريق المسافرين والقوافل يمرّ عبر هذا الجسر الذي يبلغ عرضه حوالي ١٠٠ قدم تقريبًا.

وكان دليلنا قد عرّفنا من قبل بأصوات معيّنة التي نستخدم للمشورة والتنبيه من المخاطر، وللتواصل بيننا للاستعلام عن أحوالنا بين الحين والآخر. وكان قد عيّن للطالب والاجتماع صوتًا للحيوان الوحشي، فلما وصلنا قريبًا من النهر، رفع صوته بذلك الصوت فمشينا مسرعين إليه. كان الجسر محاطًا بجنديَين مسلّحين نائمين عند طرفيه، بالإضافة إلى كلب حراسة في الجهة التي كنا فيها، ولكنه كان نائمًا أيضًا. اتفقنا على أن يتولى اثنان منّا مراقبة الجندي والكلب، بينما يعبر اثنان آخران الجسر ويقفان بجانب الجندي الآخر، في حال عدم وقوع أي طارئ، سيتعيّن على الزميلين الآخرين عبور الجسر، لكن إذا استيقظ الجنديَين أو الكلب -لا قدّر الله- فسنعمل بسرعة على انتزاع أسلحة الجنديين ومحاولة القضاء على الجميع.

هكذا عبر الجميع الجسر، لكن عندما اقترب الرابع من الجندي النائم ودَنا من الأشجار ذات الأشواك، تعثرت قدمه بشيء فسقط، وأطلق صوتًا قويًا في ظلام الليل العميق، فصار الكلب ينبح، واستيقظ الجندي، وقال الواحد للآخر: ماذا جرى؟ ماذا حدث؟

فمشينا بخطوات سريعة إلى الغابة واختفينا فيها، وصرنا نتقدّم إلى الأمام بسرعة وحذر، وكان الجنديان يتحدثان بأصوات مرتفعة. ثم سكت الكلب وسكت الجنديّان بعد

قليل، فعمّ الغابة صمت عميق وسكوت مخيف.

بعد أن مشينا ساعتين أو ساعة ونصفًا رفع الدليل عقيرته فأسرعنا إليه فتبين أن الدليل قد ضلّ الطريق، فبحثنا عن الطريق الصحيح طول الليل. ولما بدا الصبح، ظهر أمامنا تلٌّ، فأوقفنا السير، وصلينا الفجر، وحفرنا حفرًا في ظل شجرة ذات أشواك ورقدنا تحتها، وأقمنا هناك طول النهار. لم يصل إلى جوفنا شيء منذ أن ارتحلنا من «كركي»، إلا ما شربنا قدرًا يسيرًا من الماء في بعض الأحيان، ولما جنّ الليل قال الدليل بأنه لا بد من معرفة الطريق الصحيح، وإلا سنهلك جميعًا في هذه الصحراء. فانطلقنا طوال الليل في أنوار البدر نبحث ونحاول، وهكذا مضى اليوم التالي كأمس، ثم سرنا الليلة كلها. ولما طلع الصبح كان أحد أصحابنا قد عجز عن الحركة من شدة التعب والجوع، وكان الماء قد انتهى، فكان لساننا لا ينطلق من شدة العطش. وفي الأخير مكثنا في مكان لقضاء النهار، فخرج دليلنا تاركًا إيانا إلى جهة ثم رجع بعد ساعتين، وقال: «تبدو أشجار في مكان يبعد من هنا مسافة ساعتين أو ثلاث، ويُرجى أن يوجد فيه ماء، وآمل أن نجد الطريق كذلك. لكن السؤال: كيف نصل إلى ذلك المكان؟ فإن صاحبنا المريض لا يقدر على المشي خطوة واحدة، فجعل الدليل يفكّر، فقال الصاحب المريض: «إخواني! اتركوني هنا ولا تثريب عليكم، فإنما أنا ضيف ساعة أو ساعتين، فلا تلقوا أنفسكم إلى الهلاك والخطر لأجلي!».

لكنا أنكرنا أن نتركه في هذه الحالة ليموت هنا، فارتفعت أيدينا إلى السماء، ودعونا الله تعالى لمدة طويلة، وطلبنا منه السلامة والنجاة من هذه المصيبة. انتهينا من الدعاء فشعرت بسكون غير عادي! واستعان الدليل بالله وتوكل عليه ورفع المريض على كتفه، وعندما أتصوّر ذلك الموقف في ذهني، أظلّ مدهوشًا من إرادته القوية وعزيمته التي لا تعرف الاستسلام. كان الدليل جائعًا أيضًا منذ أيام، وقد أصابه الظمأ الشديد، لكن رغم

ذلك كلّه رفع على كتفه شابًا مثله وظلّ يمشي به، وكنت قد أخذتُ في يدي القِرب والأمتعة الأخرى، فصرت أنا وصاحبي نمشي وراءه بصعوبة وتعب شديد.

على الرغم من أن دليلنا ظنّ أن المسافة إلى الأشجار تستغرق ساعتين أو ثلاث، فقد وصلنا إليها في حوالي ساعة أو ساعة وربع، إلا أنها لم تكن أشجارًا، بل تلالًا، وكنّا على مسافة ٢٠٠ متر من ذلك المكان، فإذا صاحبنا الثاني قد أعيا وكلّ، ثم سقط على الأرض. فأردت أن أرفعه لكن الضعف والوهن كان قد غلبني، فبقيت عاجزًا، فتركه الدليل في ذلك المكان وأمرني أن أمشي معه. ولما وصل إلى التلال أنزل المريض من ظهره فأرقده، ثم رجع إلى الصاحب الآخر فرفعه وأتى به أيضًا.

كانت حالة المريضَين سيئة جدًا، وكانا يلتويان من شدة العطش، وظلّ الدليل يروح لهما الهواء بيديه، وصعدت على التل بعد جهد جهيد، فرأيت تلًّا آخر ملاصقًا له وبينهما وادٍ. نزلت إلى الوادي وبدأت أحفر بخنجري على بركة الله في الأرض الرملية، وهكذا حفرت أربعة أقدام، فإذا برمال مبتلّة بدأت تظهر، فكأن نورًا لمع في ظلمات اليأس والقنوط. فحفرت قدر قدم آخر حتى نبع الماء، وفي أثناء مدة قصيرة تجمعت المياه، فشربت منه وكان عذبًا باردًا، وتحرك بدني من فرط السرور، وعادت إليه الطاقة، فأسرعت إلى أصحابي وصحتُ من بعيد قائلًا: الماء ... الماء!

حملتُ القربة والوعاء وتوجهت نحو العين، فوجدت الحفرة ممتلئة بالماء، وشربت قليلًا، وقد ابتلّ حلقي بعد أيام عدة من العطش، فشعرت بالحياة تعود إلى بدني، ثم ملأت القربة وعدت بها إلى أصحابي أسقيهم قليلًا قليلًا، ورشحتُ الماء على وجوههم وأجسادهم. وبعد الجد والكد لمدة ساعتين تقريبًا أفاق صاحبانا المريضان، فخررت أنا والدليل ساجدَين لله عز وجل شكرًا على رحمته وكرمه.

أنقذنا الله بسبب الماء من الهلاك، وأقمنا هناك نهارًا كاملًا وليلة، وكان في كيسي بعض التالقان، فمزجته بالماء وناولته للمريضين وتناولنا جميعًا منه، فعادت إلينا قوتنا رويدًا رويدًا حتى تمكّن المريضان من الجلوس. فلما صلحَا للمشي والسفر ملأنا القرب وارتحلنا، ثم بلغنا ميدانًا واسعًا طويلًا بعد المرور على التلال المتعددة، فتوقفنا فيه لمدّة ساعتين واسترحنا، ثم مضينا نكمل السير.

وبعد المشي لمسافة قصيرة طلع الصبح فأوقفنا السير، كنا قد وصلنا إلى أرض شبه رملية مختلفة المستويات: جهة منخفضة وأخرى مرتفعة كالأودية، وكانت مليئة بالشجيرات، والطيور تغنّي وتغرّد. خرج دليلنا يبحث عن الطريق فرجع قبيل الظهيرة، وقال: «لقد اطلعت على الجهة الصحيحة للطريق، ونحن الآن ما زلنا ندور ونتجوّل في الصحراء، وتركنا طريق المسافرين والقوافل بعيدًا عنا. وتقع مدينة كركي من هنا على مسافة يومين، ويوجد الماء والأشجار المثمرة على قرب منا، فامكثوا أنتم هنا، وأنا أذهب إلى كركي وأرجع بالزاد والراحلة. لكن الصاحبين المريضين كانا يريدان أن يرجعا إلى «كركي»، فارتحلنا في اليوم السابع إلى كركي.

عدنا إلى كركي بعد السياحة في الصحراء لمدة سبعة أيام وثمان ليالٍ، واستأذنتُ أصحابي وانفصلت عنهم في مسافة ميلَين من كركي وبدأت أسير حرًا طليقًا وحدي، فقضيت الليلة والظهيرة من اليوم الثاني في غابة التوت. ورغم أني رجعتُ خائبًا غير ناجح فإن قلبي كان مطمئنًا، فاستخرت الله عز وجل فزادني ذلك سكونًا وطمأنينة في قلبي.

وصلتُ إلى مسجد النُزل وقد انتهت صلاة الظهر، فتوضأتُ وصلّيت وحدي، ولما فرغت من أداء الرواتب والسنن، رأيت رجلًا يشدّ أمتعته وينظر إليّ، فشككت أن يكون جاسوساً! أكملت صلاتي ثم رفعت يدي أدعو الله عز وجل، ومضيت أدعو لمدة طويلة،

وفي أثناء هذه المدة كانت نظرات الرجل مركّزة عليّ! ثم دَنا هذا الرجل مني شيئًا فشيئًا، فلما أردت أن أقوم بعد أن انتهيت من الدعاء، أمسك الرجل بيدي وأقعدني، ثم سألني: «كيف وصلتَ هنا؟».

أنا: «أحضر هنا دائمًا».

الرجل: «أنت راعي إبل؟».

أنا: «لا، أنا فلّاح».

الرجل: «يبدو أنك لست من أهل هذه البلاد!».

أنا: «ظنّك صحيح».

الرجل: «هذا المسجد خاص بالقوافل الأفغانية، وهذا النُزل كذلك للأفغان، ويمنع أن يدخل فيه غيرهم!».

قال الرجل هذه الكلمات بشدة وقوة، فتيقّنت أن هذا الرجل من جواسيس الشيوعيين، وأن لا مفر منه اليوم، لكنني تمالكت نفسي، وأظهرت رباطة جأش كاملة، وأجبته بثقة واطمئنان: «إذا أردتَ أن تفتّش وتبحث عن أمري، فاذهب بي إلى مكتبك أو إلى أي مكان تريد، لا في بيت من بيوت الله». فجعل الرجل يضحك، وقال:

«هل تريد أن تذهب إلى أفغانستان؟».

أنا: «بالتأكيد، نعم».

الرجل: «هل لديك نقود؟».

أنا: «كم تريد؟».

الرجل: «ما يكفي لشراء حمار».

أنا: «يمكنني أن أشتري لك حمارَين».

الرجل: «حسنًا...ضع النقود في جيبك، وامشِ خلفي». قال ذلك و هو يقوم فاتبعته. فاصطحبني إلى حجرة من حجرات النُزل، وكان فيها ثلاثة رجال جالسين فيها، فظهر أن هذا الرجل رئيس القافلة واسمه «دَولَتْ قُل». وكان رجلًا مثقّفًا يتكلم اللغة العربية والفارسية بطلاقة مثل لغته الأم التركمانية، فلما رآه الثلاثة يقدُم إليهم قاموا تكريمًا له وخاطبوه بـ«دولت آغا»[1]. أمرهم دولت آغا: «احضروا لهذا الشاب چپان»، وهي بردة طويلة ثقيلة خاصة برعاة الإبل التركمان. فقام أحدهم وأتى به، فلبستُه فأصبح مظهري كواحد من رعاة الإبل التركمان. فابتسم «دولت آغا» حين رآني. واشتُري حمارين.

وصلتْ في اليوم التالي خمسون إبلًا للسيد دولت آغا، فارتحلتُ كسائق إبل مع سائقي الإبل التركمان الآخرين. لم يكن دولت آغا معنا في القافلة، وبعد أن سافرنا ومشينا نحو ساعتين وصلنا إلى بوابة شامخة كالقلعة العظيمة، ولما دخلنا رأينا أشجارًا كثيفة للتوت، وكان دولت آغا جالسًا تحت ظلّ شجرة، وكان معه رجلان آخران، أحدهما عالمٌ تركستاني كبير في السن والآخر شاب تركماني، لعله كان من أقرباء دولت آغا. لقيني ذلك الشيخ الكبير بشفقة وحنان.

ولما انتهى دولت آغا من تناول الطعام بدأ يخاطبني: «هذا الشيخ الأستاذ البخاري يهاجر أيضًا معكم، ويصحبكم رجلان من التركمان. يركب الشيخ على حمار وأنت على الآخر، ويكون أحد التركمانيين أميرًا عليكم، ويلزمكم أن تسافروا تحت إشرافه وحسب

(١) **آغا:** لقب مثل «باشا» ومعناه: السيد أو الزعيم، ويستخدم مع الاسم تكريمًا للشخص، وهو لقب عائلي أيضًا في كثير من البلدان العربية.

إرشاداته. وسترتحل القافلة في آخر الليلة، فإذا وصلتم إلى دار الإسلام فلا تنسوا أن تدعوا لهذا النزل.

وبدأت القافلة تسير في الوقت المحدد، وقد أصدر الشاب أمير القافلة الإرشادات والتوجيهات في أثناء السفر. وكان الشابان التركمانيان مسلّحين بالبنادق، فكان أحدهما أمامنا يسير والآخر من خلفنا. كنّا نسير مع الحفاظ على مسافات قصيرة بيننا، وصرنا نمضي بعيدين قليلًا من طريق المسافرين والقوافل، وكنا نقطع الطريق في الليل ونختفي ونستريح في النهار بين الشجيرات.

وفي أثناء السير واجهنا الجنود الروس مرتين، إلا أن الله عز وجل أنقذنا من أيديهم. لما قرّبنا من حدود أفغانستان أصدر أميرنا التوجيهات مرّة ثانية، وكان علينا أن نعبر الحدود من مكان معين امتدت فيه شجيرات كثيفة، وأرضه صعبة وعرة ذات رمل، وفيها أنواع من الحشرات المختلفة المتنوعة.

عندما مررنا الحدود ووضعنا أقدامنا في دار الإسلام أفغانستان كان الفجر الصادق يطلع، فقد كدتُ أن أجنّ من شدة الفرح والسرور، وخررتُ بين تلك الشجيرات الكثيفة ساجدًا لله، وجرى على لساني الحمد والشكر والامتنان لله عز وجل، فلما قمتُ من سجدة الشكر، صحتُ صيحة: «يا دار الإسلام! إن تربتك تربة شفاء لي، وكحل صفاء لعيني، يا أيها الأفغان! إنكم محظوظون! إنكم سعداء! لقد رزقكم الله نعمة عظمى: نعمة الحرية والإسلام، ربما لا تعلمون ولا تدركون قيمة هذه النعمة، لكنا نحن نعلم قيمتها وقدرها جيدًا. أدام الله عز وجلّ عليكم هذه النعمة العظيمة!».

إلى هنا تنتهي يوميات سمرقند و بخارى الدامية، ثم تبدأ قصة حياتي. ولقد أراد مفوض «أَنْدْخُوي»[1] تسليمي إلى الحكومة الشيوعية الروسية، لكن المواطنين في المدينة قاموا يحمونني ويدافعون عني وأجبروا المفوض على إبطال قراره. ثم وصل بعد ذلك إلى مدينة «هِرَاة» الأفغانية بعد صعوبات ومشكلات واجهتها في «أندخوي»، ووصلتُ إلى منطقة مقبرة الجامي[2]. أردت أن أمزّق جلد المصحف حسب نصيحة والدتي الكريمة، لكنه كان قاسيًا، فأخذتُ من طالب علم فأسًا صغيرًا، ولما مزقتُه بقيت مدهوشًا متحيرًا، فقد ملأت أمي العزيزة[3] هذا الجلد بالنقود الذهبية! وهذه النقود نفعتني كثيرًا في أيام الغربة، وبها أكملتُ دراستي الشرعية في شبه القارة الهندية.

(١) مدينة في شمال أفغانستان، وتقع قرب حدود تركمانستان.

(٢) **عبد الرحمن الجامي** (ت: ٨٩٨هـ) من مشاهير شعراء وكتّاب الفُرس.

(٣) كان اسمها «**ذاكِرة خان**»، وقد امتدّ بها العمر رحمها الله حتى خمسينيات القرن العشرين، كما نقل لي بعض أقاربي.

ملحـق

الصـور والوثائق

خريطة بلاد تركستان من كتاب:

تركستان مساهمات وكفاح

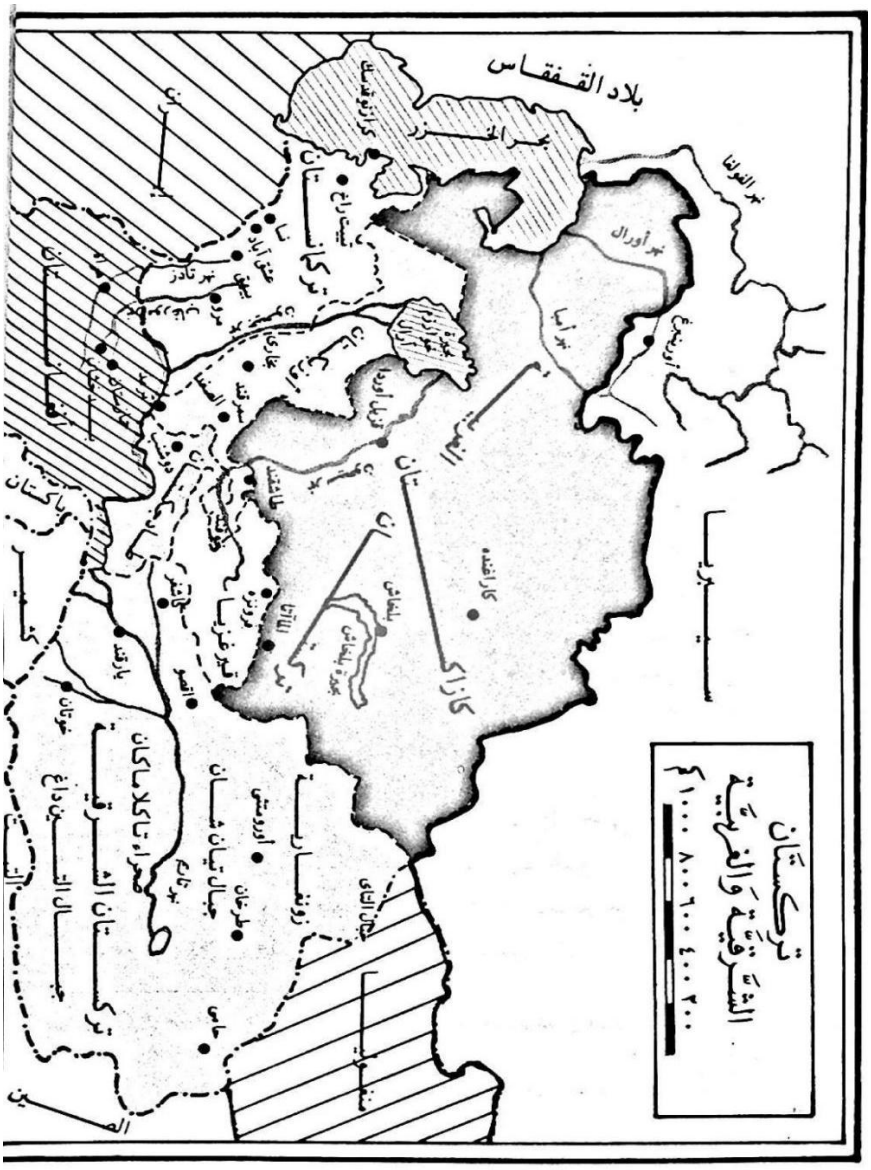

وادي فرغانة

جامع بُني حديثًا في قرية قائقي
(التابعة لولاية نمنكان حاليًّا)

جامع قديم في مدينة أنديجان

حوض ديوان بيگي (بِركة مياه) – بخارى

مدرسة تلّا كاري – سمرقند

مسجد مغَاك عطّار – بخارى (أوزبكستان)

جامع خوقند الكبير (أوزبكستان)

مسجد ومدرسة مالك اشتر – شهرسبز

(أوزبكستان)

حملة هجوم (Hujum)

احتفال بحرق الحجاب في مدينة أنديجان بمناسبة يوم المرأة
(الذي يُعرف اليوم بيوم المرأة العالمي) ٨ مارس ١٩٢٧م.

(المصدر: ويكيبيديا)

مقهى أحمر في مدينة طاشكند

(أيام الاتحاد السوفيتي)

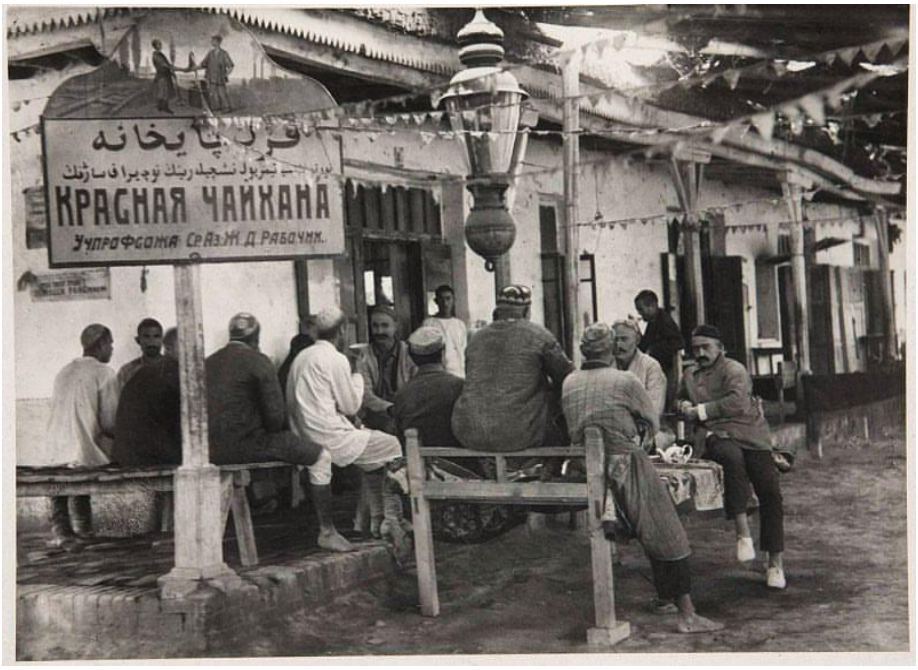

محطة كاگان (بخارى الجديدة)

قديمًا وحديثًا (أوزبكستان)

نهر جيحون (آمو دريا)

نهر سيحون (سيردريا)

مدينة كركي (تركمانستان) في ١٩٢٩م

رسمها الرسّام الروسي: ب- ليتفينوف

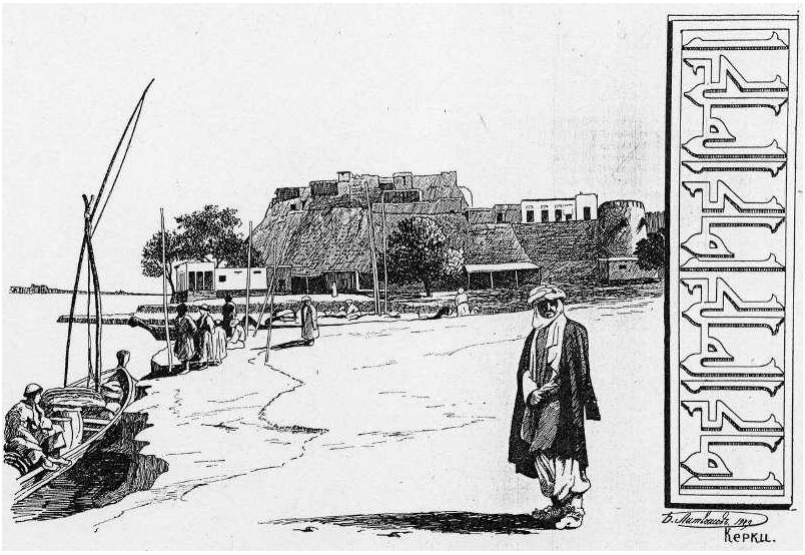

مدينة كركي حديثًا

جبال تخته قراچه الشامخة

الصور الشخصية لأعظم هاشمي (المؤلف)

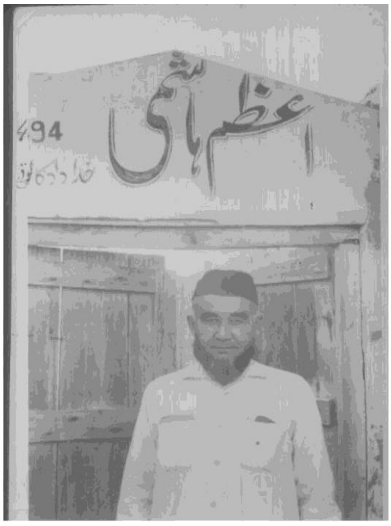

بعض إصدارات مكتبة: أعظم هاشمي

(مكتبة ترجمان الأفكار)

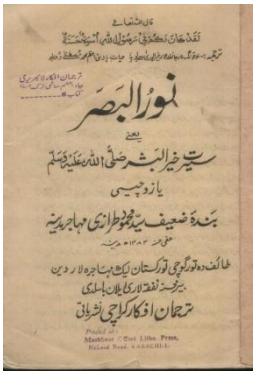

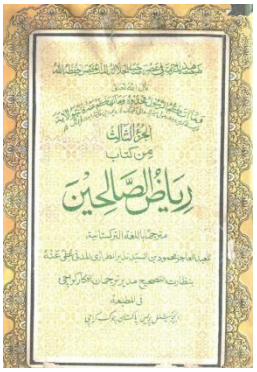

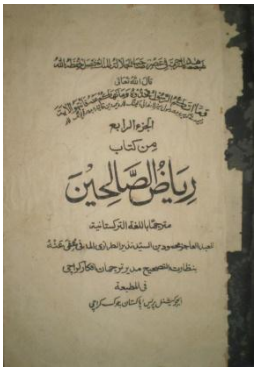

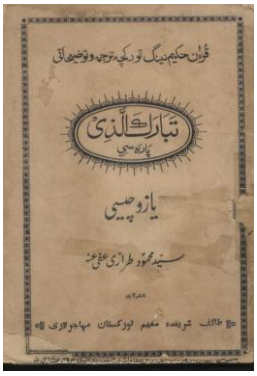

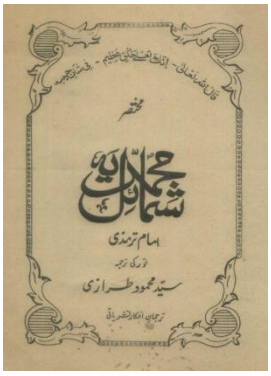

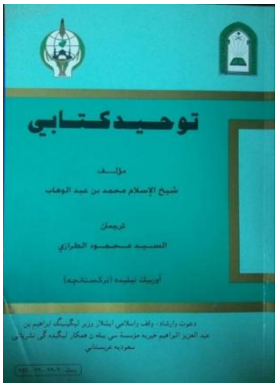

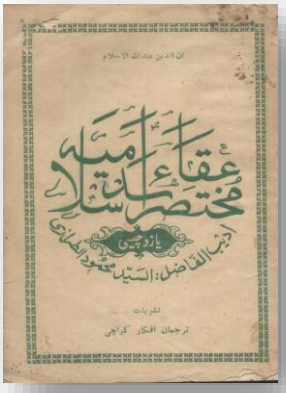

بعض الرسائل المبعوثة إلى: أعظم هاشمي

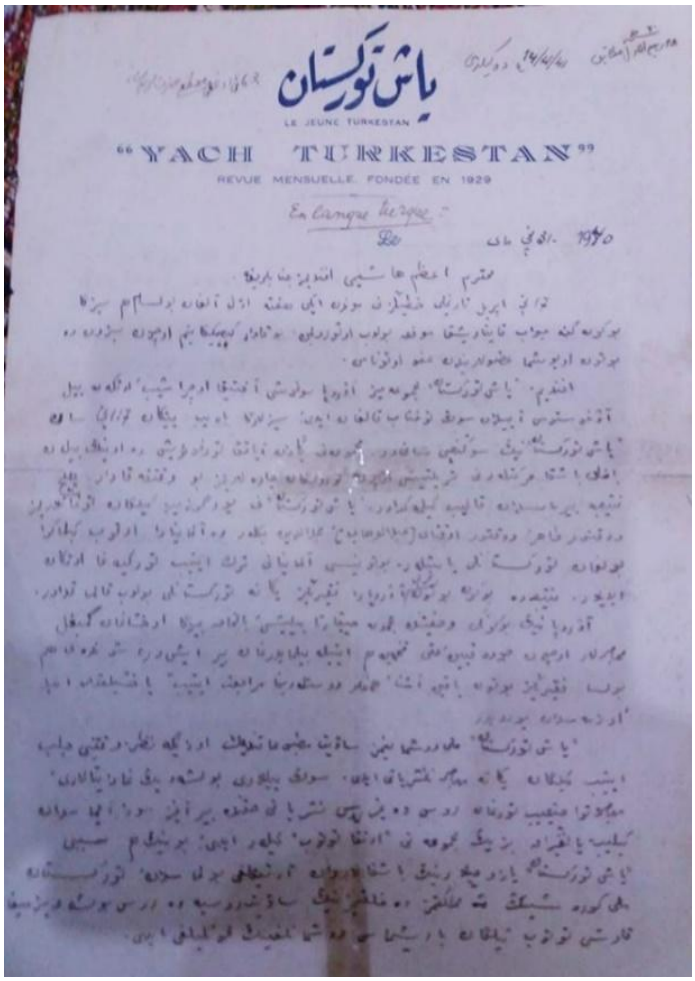
ياش تركستان

LE JEUNE TURKESTAN

"YACH TURKESTAN"

REVUE MENSUELLE FONDÉE EN 1929

رسالة من فخامة رئيس دولة تركستان: مصطفى شوقائي أوغلي (ت: ١٩٤١هـ)

تابع بعض الرسائل المبعوثة إلى: أعظم هاشمي

الأمانة العامة

الجمعية العربية العامة في الباكستان

PAKISTAN ARAB CULTURAL ASSOCIATION

KARACHI 1955

حضرة الأستاذ اعظم هاشمي تركستاني سلاما عطرا وتحية زكية

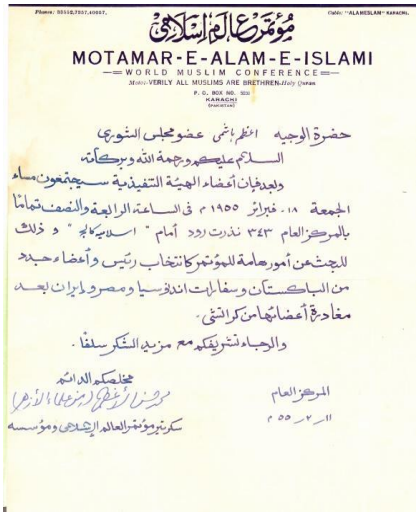

وبعد فان اعضاء الهيئة التنفيذية للجمعية العربية العامة في الباكستان سيجتمعون يوم الاحد ١٩ فبراير ١٩٥٥ في الساعة التاسعة والنصف صباحا للبحث عن امور هامة تتعلق بنشر العربية - والرجاء تشريفكم في الميعاد المحدود مع الف شكر سلفا.

وذلك في منزل سعادة غياث الدين بتان رئيس الجمعية (٢٥ وكتوريا رود) والسلام

مخلصكم الدائم

محمد حسن الأعظمي من علماء الأزهر

الامين العام للجمعية

مؤتمر عالم اسلامي

MOTAMAR-E-ALAM-E-ISLAMI

WORLD MUSLIM CONFERENCE

Moto: VERILY ALL MUSLIMS ARE BRETHREN. Holy Quran

P. O. BOX NO. 5030 KARACHI (PAKISTAN)

حضرة الوجيه اعظم هاشمي عضو مجلس الشورى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد فإن أعضاء الهيئة التنفيذية سيجتمعون مساء الجمعة ١٨ فبراير ١٩٥٥ م في الساعة الرابعة والنصف تماما بالمركز العام ٣٤٣ نذرت رود أمام "اسلاميه كالج" وذلك للبحث عن أمور هامة للمؤتمر كانتخاب رئيس وأعضاء جدد من الباكستان وسفارات اندونيسيا ومصر وايران بعد مغادرة أعضائها من كراتشي.

والرجاء تشريفكم مع مزيد الشكر سلفا.

مخلصكم الدائم

محمد حسن الأعظمي من علماء الأزهر

سكرتير مؤتمر العالم الإسلامي ومؤسسه

المركز العام

١١-٢-٥٥ م

12.5.54

Qimmatli Hašimi afandi

Qalbi salam! Bundan bir ikki kun ilagari sizga bir maktub yazgan edim va Dr. Hayit tamanindan "Millat " gazitasiga berilacak cavabni ham yubarigni bildirgan edim.Bugun sizga Dr. Hayit tarafindan "Millat" gazitasiga yazilgan maqalaga qarsi cavabni usbu maktub ila yubarmaqdamen.Lutfan bunin Ordu tilinda tarcuma qilib, Pakistan gazitalariga yubaruvinizni soraymen.Agarda birar nuqtalar ustinda savallar bolsa, lutfan bildiruvinizni otunamen.

Bu zamanda islar eskisi kabi öz halinda va ciddiyat la davam etmakdadir."Milli Türkistan" 88 D sanini algan bolsaniz kerak.Hazirda 89 D sani basilmaqdadir.

Öz islariniz va sihatiniz qanday? "Tarcuman Afkar" nin songi numirasini aldim va bunin üçün taşakkurimni qabul qilğaysiz.

Dr. Hayitdan va başqa milli hadimlardan sizga va u yerdagi butun vatandaşlarga qalbi salam bar.

Büyük ehtiram ila sizning esdaguçi:

المجلات العلمية لأعظم هاشمي:

١ – مجلة ترجمان بدلهي (١٩٣٨–١٩٤٠م)

(تركستانية – فارسية – أردية)

شرح چندہ

ریاستوں اور سرپرستوں سے ۲۵ روپیہ

امراء اور وؤسا سے ۱۰ روپیہ

عام چندہ ——— ۳ روپیہ

طلبا رو نادار بریلوں سے ۱½ روپیہ

خارج از ہند ——— ۵ روپیہ

مینیجر

رجسٹرڈ ایل نمبر ۴۲۵۹

ماہوار رسالہ

ترجمان

دہلی

اطلاع

رسالہ نہ پہنچنے کی اطلاع اسی مہینہ کی ۲۰ تاریخ تک آنی چاہیے۔ کسی قسم کے جوابی امور کے لیے ٹکٹ آنا چاہیے۔ رسالہ کا نمونہ طلب کرنے والے حضرات ۳ کا ٹکٹ روانہ کریں ہر قسم کی خط و کتابت و ترسیل زر بنام اعظم ہاشمی ہونا چاہیے۔

جاری شدہ ماہ مئی ۱۹۳۸ء | ماہوار علمی اجتماعی مذہبی تمدنی سیاسی رسالہ | مسلسل نمبر ۱۹

بابت ماہ نومبر ۱۹۳۹ء مطابق رمضان ۱۳۵۸ھ

نمبر شمار	عنوان مضامین	صاحب مضمون	صفحہ	نمبر شمار	عنوان مضامین	صاحب مضمون	صفحہ
۱	رمضان کا موضوع	ادارہ	۲	۱۰	مہاجرین کی نئی خبریں	ادارہ	۲۳
۲	صحبت علمیہ	"	۳	۱۱	ساتواں سالانہ اجلاس	محمد قاسم نائب ناظم	۲۴
۳	شاہان مغلیہ کی داد و دہش	مغلیہ گزٹ	۷	۱۲	روس کا اقرار عہد اور [illegible]	"	۲۷
				۱۳	یوم الشہداء	ادارہ	۳۰
۴	تمدن اسلامی	عبد الباسط صاحب بی۔اے	۹		حصہ فارسی		
۵	آل تیمور سے	درد مند	۱۱	۱۴	سیاحت ہند	ادارہ	۳۱
۶	تاریخ و جغرافیہ توران	ادارہ	۱۲		حصہ ترکی		
۷	اشتراکیت اور اسلام	ایک عالم دین کے قلم سے	۱۴	۱۵	بیش مسئلہ	ابو المسعود افندی	۳۲
۸	انقلاب	مرزا محمد اختر بیگ چغتائی	۱۸	۱۶	استدعا	----------	
۹	واقعات مہمہ عالم کا ماہنامہ	ادارہ	۱۹	۱۷	ایک سو [illegible] کون لائے	--- ادارہ ---	

٢- مجلة ترجمان – مدينة كراتشي (١٩٥١م)

(تركستانية – أردية)

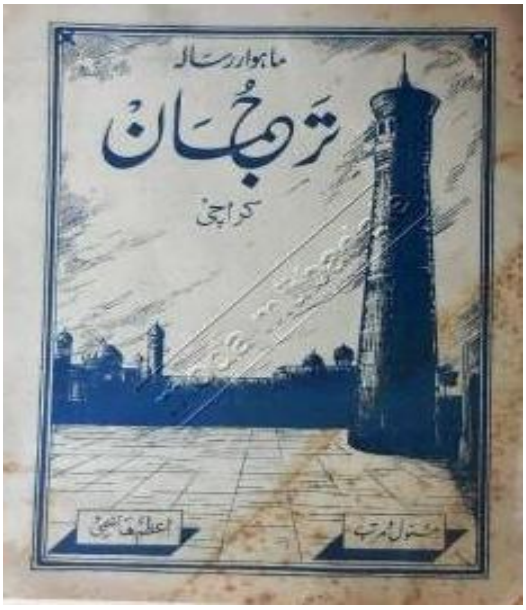

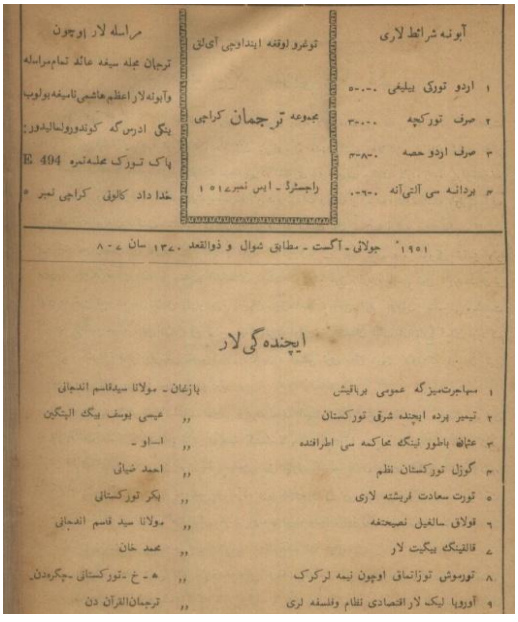

آبونه شرائط لاری	توغرولوقغه اینداوچی آی‌لق	مراسله لار اوچون
١ اردو توركی بیلیغی ٥-٠-٠	مجموعه ترجمان کراچی	ترجمان مجله سیغه عائد تمام مراسله
٢ صرف تورکچه ٣-٠-٠	راجسترڈ - ایس نمبر ١٥١٧	وآبونه لار اعظم هاشمی نامیغه بولوب
٣ صرف اردو حصه ٣-٨-٠		ینگی ادرس گه کوندورولماليدور:
٤ بردانه سی آلتی آنه ٠-٦-٠		پاک تورک محله نمره E 494
		خدا داد کالونی کراچی نمبر ٥

١٩٥١ء جولائی - آگست - مطابق شوال و ذوالقعد ١٣٧٠ سان ٧-٨

ایچنده گی لار

١ مهاجرتمیزگه عمومی برباقیش	بازغان - مولانا سیدقاسم اندجانی
٢ تیمیر پرده ایچنده شرق تورکستان	„ عیسی یوسف بیگ الپتکین
٣ عثمان باطور نینگ محاکمه سی اطرافنده	„ ا-او -
٤ گوزل تورکستان نظم	„ احمد ضیائی
٥ تورت سعادت فریشته لاری	„ بکر تورکستانی
٦ قولاق سالغیل نصیحتغه	„ مولانا سید قاسم اندجانی
٧ قالقینگ بیگیت لار	„ محمد خان
٨ توروموش توزاتماق اوچون نیمه لرکرک	„ ه - خ - تورکستانی - چکره‌دن.
٩ آوروپا لیک لار اقتصادی نظام وفلسفه لری	„ ترجمان القرآن دن

٣- مجلة ترجمان الأفكار بكراتشي (١٩٥٢-١٩٥٩م)

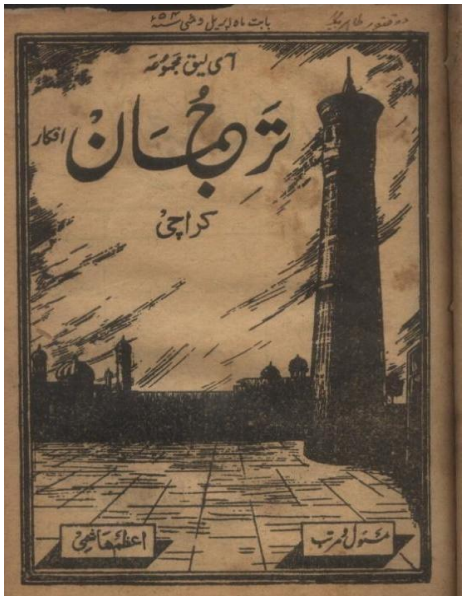

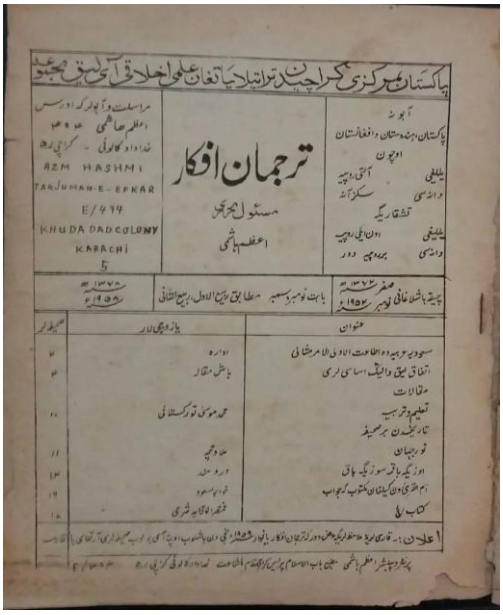

(تركستانية – أردية)

مقال بالعربية لأعظم هاشمي

(المنشور في مجلة العرب كراتشي)

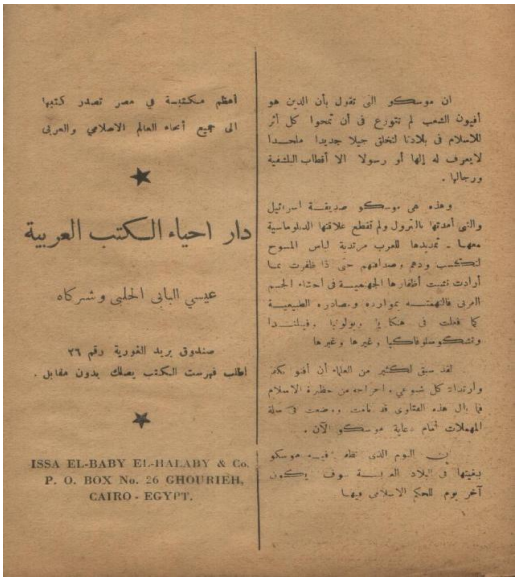

ان موسكو التى تقول بأن الدين هو أفيون الشعب لم تتورع فى أن تمحوا كل أثر للاسلام فى بلادنا لتخلق جيلا جديدا ملحدا لايعرف له إلها أو رسولا الا أقطاب البلشفية ورجالها .

وهذه هى موسكو صديقة اسرائيل والتى أمدتها بالبترول ولم تقطع علاقتها الدبلوماسية معها - تمديدها للعرب مرتدية لباس المسوح لتكسب ودهم وصداقتهم حتى اذا ظفرت بما أرادت نشبت أظفارها الجهنمية فى أحشاء الجسم العربى فالتهمته بموارده ومصادره الطبيعية كما فعلت فى هنكاريا وبولونيا وفنلندا وتشكوسلوفاكيا وغيرها وغيرها

لقد سبق لكثير من العلماء أن أفتوا بكفر وارتداد كل شيوعي واخراجه من حظيرة الاسلام فما بال هذه الفتاوى قد نامت ووضعت فى سلة المهملات أمام دعاية موسكو الآن .

ان اليوم الذى تظفر فيه موسكو ببغيتها فى البلاد العربية سوف يكون آخر يوم للحكم الاسلامى فيها

أعظم مكتبة في مصر تصدر كتبها الى جميع أنحاء العالم الاسلامي والعربى

★

دار احياء الكتب العربية

عيسي البابى الحلبى وشركاه

صندوق بريد الغورية رقم ٢٦

اطلب فهرست الكتب يصلك بدون مقابل .

★

ISSA EL-BABY EL-HALABY & Co.
P. O. BOX No. 26 GHOURIEH,
CAIRO - EGYPT.

٢٥

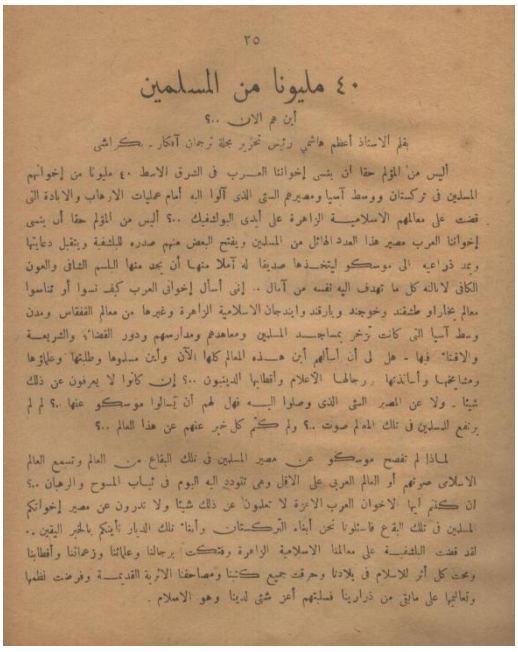

٤٠ مليونا من المسلمين

أين هم الان ..؟

بقلم الاستاذ أعظم هاشمي رئيس تحرير مجلة ترجمان آمكار - كراتشى

أليس من المؤلم حقا ان ينسى إخواننا العرب فى الشرق الاسط ٤٠ مليونا من إخوانهم المسلمين فى تركستان ووسط آسيا ومصيرهم السئ الذى آلوا اليه أمام عمليات الارهاب والابادة التى قضت على معالمهم الاسلامية الزاهرة على أيدى البولشفيك ..؟ أليس من المؤلم حقا أن ينسى إخواننا العرب مصير هذا العدد الهائل من المسلمين ويفتح البعض منهم صدره للبلشفية ويتقبل دعايتها ويمد ذراعيه الى موسكو ليتخذها صديقا له آملا منها أن يجد منها البلسم الشافى والعون الكافى لانالته كل ما تهدف اليه نفسه من آمال .. إنى أسأل إخوانى العرب كيف نسوا أو تناسوا معالم بخاراو طشقند وخوجند ويارقند واينديجان الاسلامية الزاهرة وغيرها من معالم القفقاس ومدن وسط آسيا التى كانت تزخر بمساجد المسلمين ومعاهدهم ومدارسهم ودور القضاء والشريعة والافتاء فيها - هل لى أن أسألهم أين هذه المعالم كلها الآن وأين مسلموها وطلبتها وعلماؤها ومشايخها وأساتذتها ورجالها الأعلام وأقطابها الدينيون ..؟ إن كانوا لا يعرفون عن ذلك شيئا - ولا عن المصير السئ الذى وصلوا اليه فهل لهم أن يسألوا موسكو عنها ..؟ لم لم يرتفع للمسلمين فى تلك المعالم صوت ..؟ ولم كتم كل خبر عنهم عن هذا العالم ..؟

لماذا لم تفصح موسكو عن مصير المسلمين فى تلك البقاع من العالم وتسمع العالم الاسلامى صوتهم أو العالم العربى على الاقل وهى تتودد اليه اليوم فى ثياب المسوح والرهبان ..؟ ان كنتم ايها الاخوان العرب الاعزة لا تعلمون عن ذلك شيئا ولا تدرون عن مصير إخوانكم المسلمين فى تلك البقاع فاسئلونا نحن أبناء التركستان وأبناء تلك الديار نأتيكم بالخبر اليقين .. لقد قضت البلشفية على معالمنا الاسلامية الزاهرة وفتكت برجالنا وعلمائنا وزعمائنا وأقطابنا ومحت كل أثر للاسلام فى بلادنا وحرقت جميع كتبنا ومصاحفنا الاثرية القديمة وفرضت نظمها وتعاليمها على مابقى من ذرارينا فسلبتهم أعز شئ لدينا وهو الاسلام .

تقرير عن تأسيس جمعية المهاجرين التركستانيين بالهند
-منشور في مجلة ياش تركستان بفرنسا- يناير ١٩٣٥م

تیله گیمز یوروش کیره‌ك» دیدیله‌ر. خواجه‌م نیاز قبول ایته‌ك مجبوریتنده قالدی.

یه‌گی حکومتکه قاتناشغانلارنگ کوپچیلگی قوممونیستله‌ردر. حاضر خواجه‌م نیاز حاجیم آقسودادر. روسلاردان کومه‌ك آلادر.

هه‌ر ولایتده‌ن اوتوز نفرده‌ن یاشلارنی کیلتریب آقسودا تعلیم بیره‌درله‌ر. بولارغا درس بیرو اوچون روسیه‌ده‌ن ایکی یوز نفر ایرکه‌ك‌خاتون معلم قافله‌سی کیلدی. روس نشویقاتچیلاری جوده کوبدر. خلق بو کونگی وضعیتده‌ن سوك درجه ناراضی. خلق طرفدان هیچ بر تورلو مظاهرت کورمه‌گه‌ن یه‌گی حکومتنگ حالی آغیر. بو وضعیتنگ دواملی بولا آلووینی سویله‌ب بولمایدر.

21 ده‌قابر 1934.

*

هندستانداغی تورکستان مهاجرلەری توره‌موشندان

دهلی شهرنده‌کی «تورکستان مهاجرله‌ری برلگی» 1353 هجری 22نچی شعباندا (34 .11 .29ده) 3نچی یاشینی تولدیروب، 4نچی یاشغا کیردی. شو ییل دونوم بایرامینی طنطنه‌لی صورتده قارشی آلماق اوچون تورکستانلی مهاجرله‌ر یاشایتورغان هندستان شهرله‌ریده‌ن دهلی گه وکیلله‌ر دعوت ایتلگه‌نله‌ر ایدی. بولاردان پشاور، بومبای، لاهور، کاراچی شهرله‌رینی استثنا ایتسه‌ك باقی دیوبند، سهارانپور، علیگر، اکبر آباد، میریت، اجمیر شریف، باریلی (Bareli)، دابل شهرله‌ریده‌ن بیلگیله‌نگه‌ن تاریخده وکیلله‌ر کیلیب، سیوینچله‌ر ایله بایرامیمزغا قاتناشدیلار. تقریباً 200 نفر مهاجر توپلانیب یالپی مجلس اوتکه‌زدیك. ییغینچاغیمزغا باشلانیچدا یاش فکرلی یورتداشیمز عبدالحق افندی سوڭرا محمد سلطان افندی صدارت ایتدیله‌ر. مجلس چاغی بایرق کوته‌ریلیب تورولدی وه اولچه مجلس اهلی تبریك ایتلیب، سوڭرا جمعیتنگ قیلغان ایشله‌ری حقندا معلومات بیریلدی. یورتنی ایسله‌ته تورغان نطقلار سویله‌ندی.

تورکی، فارسی، اوردو تیلله‌ریده شعرله‌ر اوقوندی. جمعیت ایشله‌رنده چالیشقانلار صمیمی سوزله‌ر ایله آلقیشلاندیلار. بعضی خدمتچیله‌ر عذر تیله‌گه‌نله‌ری اوچون اورونلاریغا باشقا کشیله‌ر سایلاندیلار.

مثلا قاری محمدجان — صدر اوروناساری، محمد علی – صدر اوروناساری، عبدالحی — خزینه‌چی، اسماعیل جان — خزینه‌چی اوروناساری، محمد امین — منتظم اولاراق بیلگیله‌ندیله‌ر. باشقالار اوز یرله‌ریده ساقلاندیلار.

ییل دونوم بایرامیمز کوب کوڭوللو اوتدی. تورت ساعتدان اوزون

دهلی‌ده‌کی «تورکستان مهاجرله‌ری برلگی» نگ ییل دونوم بایرامیغا قاتناشغانلاردان بر غروپ

سورگه‌ن اولتوروشمز فاتحه ایله بیتکه‌نده‌ن سوڭ، مهاجرله‌رده‌ن برغروپ بایراق کوته‌ریب یاتاقخانه‌له‌ریگه کیلیب، «یاش تورکستان»غا ساوغا اوچون رسم آلدیردیلار. ایسده‌ن چیقماس تاریخی بر کون کیچیریلدی.

بزنگ بو ییل دونوم بایرامیمزغا یاقیندان-اوزاقدان قاتناشغان بارچا تورکستانلی توغانلاریمزغا تشکرله‌ریمزنی بیلدیریب، آرامزداغی برلك تویغوسینگ دوامینی وه چوقورلاشماغینی اولوغ تاڭریدان تیله‌یمز.

خواجه مسعود

قصاصة من رسالة المؤلف على ترويسة
جمعية المهاجرين التركستانيين بدلهي – ١٩٤٢م

Society of the Migratory
TURKS FROM TURKISTAN
DELHI (INDIA)

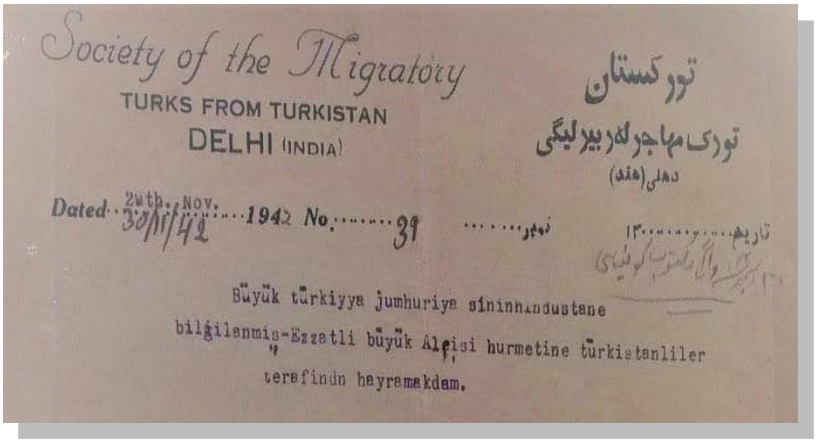

توركستان
تورک مهاجرلەری بیرلیگی
دهلی (هند)

Dated 2uth. Nov. 30/11/42 1942 No. 31 نمبر ...... تاریخ ١٣٠٠

Büyük türkiyya jumhuriya sininhindustane
bilgilenmis-Ezzatli büyük Alçisi hurmetine türkistanliler
terafindn hayramakdam.

ترويسة جمعية المهاجرين التركستانيين بباكستان
بعد ١٩٤٨م

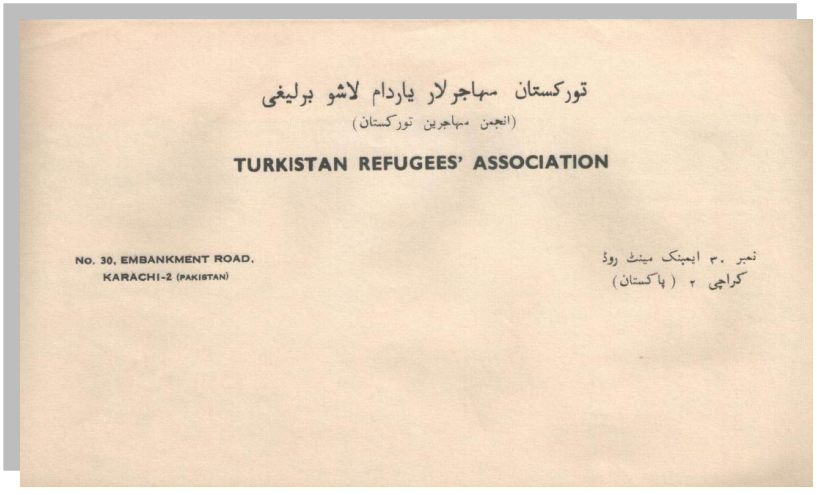

توركستان مهاجرلار ياردام لاشو برليغى
(انجمن مهاجرين توركستان)

TURKISTAN REFUGEES' ASSOCIATION

No. 30, EMBANKMENT ROAD,
KARACHI-2 (PAKISTAN)

نمبر ٣٠ ايمبنک مينٹ روڈ
کراچی ٢ (پاکستان)

نعي الأستاذ أعظم هاشمي في مجلة مِلّي تركستان الصادرة من ألمانيا، ١٩٧٣م

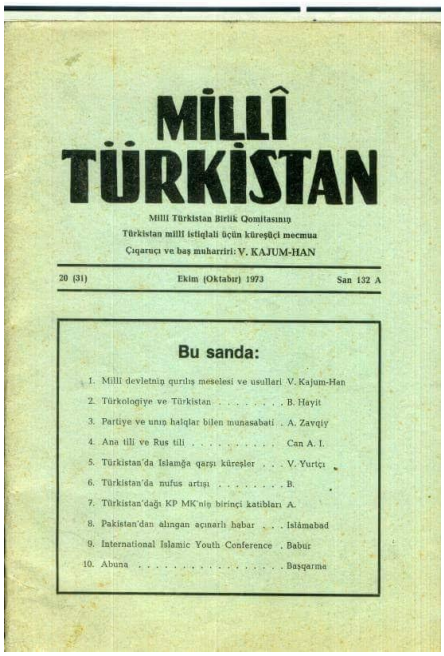

MİLLÎ TÜRKİSTAN

Millî Türkistan Birlik Qomitasının
Türkistan millî istiqlali üçün küreşüçi mecmua
Çıqaruçı ve baş muharriri: V. KAJUM-HAN

20 (31) Ekim (Oktabır) 1973 San 132 A

Bu sanda:

1. Millî devletniŋ qurılış meselesi ve usullari V. Kajum-Han
2. Türkologiye ve Türkistan . . . . B. Hayit
3. Partiye ve unıŋ halqlar bilen munasabati . A. Zavqiy
4. Ana tili ve Rus tili . . . . Can A. I.
5. Türkistan'da Islamğa qarşı küreşler . . . V. Yurtçı
6. Türkistan'da nufus artışı . . . . B.
7. Türkistan'dağı KP MK'niŋ birinçi katibları A.
8. Pakistan'dan alıngan açınarlı habar . . . Islâmabad
9. International Islamic Youth Conference . Babur
10. Abuna . . . . Başqarma

Biz bu yerde İslam dinige ve İslam an'analariga qarşı kommunist fırqası tamanıdan körilmekde bolğan çaralardan kiçkina bölegini misal olaraq keltirdik. Keleçekde İslâm dininiŋ hâlâ büyük tasiri ve halqnıŋ baqışı, ve dini vakillarniŋ harakati haqqında yena da mufassal izahat beramiz.

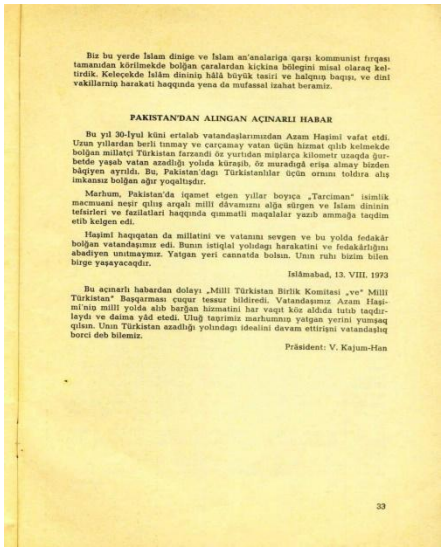

PAKISTAN'DAN ALINGAN AÇINARLI HABAR

Bu yıl 30-İyul küni ertalab vatandaşlarımızdan Azam Haşimi vafat etdi. Uzun yıllardan berli tınmay ve çarçamay vatan üçün hizmat qılıb kelmekde bolğan millatçi Türkistan farzandi öz yurtıdan miŋlarça kilometr uzaqda ğurbetde yaşab vatan azadlığı yolıda küraşib, öz muradıgâ erişa almay bizden bâqiyen ayrıldı. Bu, Pakistan'dagı Türkistanlılar üçün ornını toldıra alış imkansız bolğan ağır yoqaltışdır.

Marhum, Pakistan'da iqamet etgen yıllar boyıça „Tarciman" isimlik macmuani neşir qılış arqalı millî dâvamıznı alğa sürgen ve İslam dininin tefsirleri ve fazilatlari haqqında qımmatli maqalalar yazıb ammağa taqdim etib kelgen edi.

Haşimi haqıqatan da millatini ve vatanını sevgen ve bu yolda fedakâr bolğan vatandaşımız edi. Bunın istiqlal yolıdagı harakatini ve fedakârlığını abadiyen unıtmaymız. Yatgan yeri cannatda bolsın. Unın ruhı bizim bilen birge yaşayacaqdır.

Islâmabad, 13. VIII. 1973

Bu açınarlı habardan dolayı „Millî Türkistan Birlik Komitasi „ve" Millî Türkistan" Başqarması çuqur tessur bildiredi. Vatandaşımız Azam Haşimi'niŋ millî yolda alıb barğan hizmatini har vaqıt köz aldıda tutıb taqdırlaydı ve daima yâd etedi. Uluğ taŋrimiz marhumnıŋ yatgan yerini yumşaq qılsın. Unın Türkistan azadlığı yolındagı idealini davam ettirişni vatandaşlıq borci deb bilemiz.

Präsident: V. Kajum-Han

33

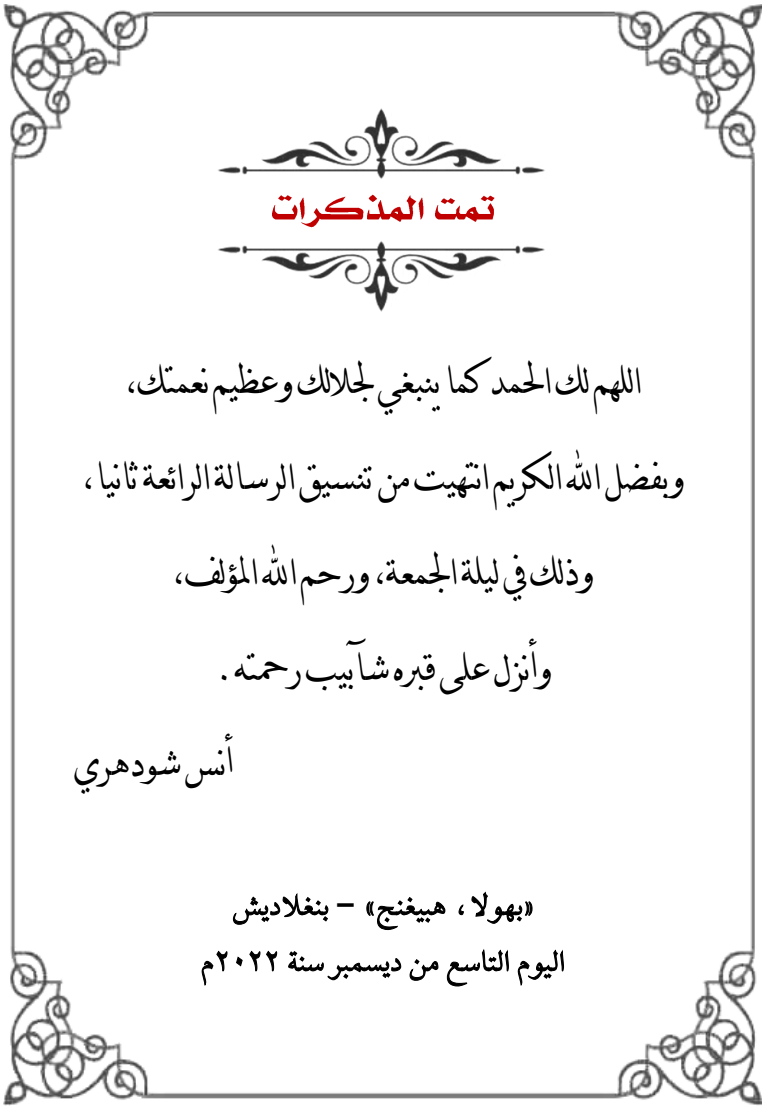

تمت المذكرات

اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلالك وعظيم نعمتك،

وبفضل الله الكريم انتهيت من تنسيق الرسالة الرائعة ثانيا،

وذلك في ليلة الجمعة، ورحم الله المؤلف،

وأنزل على قبره شآبيب رحمته.

أنس شودهري

«بهولا، هيغنج» – بنغلاديش

اليوم التاسع من ديسمبر سنة ٢٠٢٢م

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه تُنجز الأعمال.

فقد أتممت بحمد الله مراجعة هذا الكتاب وتصحيحه،

وإضافة ما يلزم من تعليقات وتوضيحات،

وذلك للمرة الثانية، في ليلة الأحد، الموافق:

للعاشر من محرّم ١٤٤٧هـ (٦ يوليو ٢٠٢٥م).

كفاية الله هاشمي

«إسلام آباد» – باكستان